مركز البيدر للدراسات والتخطيط
Al-Baidar Center For Studies And Planning

مدرسة السيد محمد باقر الصدر الأخلاقيّة
أصولها.. وخصائصها

عادل القاضي

6

إصدارات مركز البيدر للدراسات والتخطيط

مدرسة السيد محمد باقر الصدر الأخلاقيّة
أصولها.. وخصائصها

مركز البيدر للدراسات والتخطيط
Al-Baidar Center For Studies And Planning

مدرسة السيد محمد باقر الصدر الأخلاقيّة

أصولها.. وخصائصها

عادل القاضي

6

إصدارات مركز البيدر للدراسات والتخطيط

مدرسة السيد محمد باقر الصدر الأخلاقيّة .. أصولها وخصائصها

اسم المؤلف: عادل القاضي

عدد الصفحات: 180

الناشر: مركز البيدر للدراسات والتخطيط - 2022

ISBN:978-9922-9781-3-0

حقوق النشر محفوظة لمركز البيدر للدراسات والتخطيط

لايحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، بما في ذلك النسخ أو التسجيل دون إذن خطّي من المركز.

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (2306) لسنة 2022

www.baidarcenter.org

info@baidarcenter.org

عن المركز

مركز البيدر للدراسات والتخطيط منظمة عراقية غير حكوميّة، وغير ربحّية، تأسس سنة ٢٠١٥م، ومُسجل لدى دائرة المنظمات غير الحكومية في الأمانة العامة لمجلس الوزراء.

ويسعى المركز للمساهمة في بناء الدولة، عن طريق طرح الرؤى والحلول العملية للمشاكل والتحديات الرئيسة التي تواجهها الدولة، وتطوير آليات إدارة القطاع العام، ورسم السياسات العامة ووضع الخطط الاستراتيجية، وذلك عن طريق الدراسات الرصينة المستندة على البيانات والمعلومات الموثقة، وعن طريق اللقاءات الدورية مع الجهات المعنية في الدولة والمنظمات الدولية ذات العلاقة. ويسعى المركز لدعم الإصلاحات الاقتصادية والتنمية المستدامة وتقديم المساعدة الفنية للقطاعين العام والخاص، كما يسعى المركز لدعم وتطوير القطاع الخاص، والنهوض به لتوفير فرص عمل للمواطنين عن طريق التدريب والتأهيل لعدد من الشباب، بما يقلل من اعتمادهم على المؤسسة الحكومية، ويساهم في دعم اقتصاد البلد والارتقاء به.

ويحرص أيضاً للمساهمة في بناء الانسان، باعتباره ثروة هذا الوطن، عن طريق تنظيم برامج لإعداد وتطوير الشباب الواعد، وعقد دورات لصناعة قيادات قادرة على طرح وتبني وتطبيق رؤى وخطط مستقبلية، تنهض بالفرد والمجتمع وتحافظ على هوية المجتمع العراقي المتميزة ومنظومته القيمية، القائمة على الالتزام بمكارم الاخلاق، والتحلي بالصفات الحميدة، ونبذ الفساد بأنواعه كافة، إدارية ومالية وفكرية وأخلاقية وغيرها.

المحتويات

مقدمة المركز 13

المدخل 15

دواعي البحث 23

منهجيّة البحث 25

هيكلية البحث 26

المحور الأول: أصولُ المدرسةِ الأخلاقيّة الصدريّة 27

أولاً: الوعيّ الذاتيّ..... 27

المحطة الأولى: الإعداد الروحي..... 28

المحطة الثانية:التسامي عن طريق التوحيد..... 29

المحطة الثالثة: الجهاد الأكبر 30

المحطة الرابعة: نفض اليد من الدنيا..... 41

المحطة الخامسة: استذكار الموت والإحساس بالآخرة..... 52

ثانياً: الوعي التاريخي..... 55

عملية الاختزان 64

المثل الأول للاختزان (محمد بن عمير) صمود الفقيه وصلابته..... 68

المثل الثاني للاختزان (يوسف بن تاشفين) حسن الظنّ والثقة بالله 70

خصائص الاختزان.....72

أنواع الاختزان.....72

كيف يعمل مبدأ الاختزان؟.....72

الشعور بحتمية الانتصار.....74

ثالثاً: الوعي الميداني.....77

الدائرة الأولى- أخلاقية الإنسان العامل 78

أ ـ اختيار الوكلاء.....81

ب ـ المشاركة الوجدانية 83

ج ـ مع مستخدمه 85

د ـ تعامله مع أهله وذويه 87

هـ ـ تعامله مع أعدائه والمناوئين له 92

الدائرة الثانية- أخلاقية العلم.....95

البعد الأول: أخلاقه مع تلامذته (الخُلق الأبوي) 96

البعد الثاني: أخلاقه مع نظرائه من المراجع والمجتهدين 101

أ ـ الدعوة إلى حماية المرجعية من الداخل.....101

ب ـ اتهام الذات (نقد المرجعية) 103

ج ـ التواضع للمراجع واحترام مواقفهم 105

د ـ المواقف المؤيدة والمساندة للمرجعية.....107

البعد الثالث: أخلاقه مع العلماء والمفكرين (الخُلق العلميّ).....109

المحور الثاني: خصائص المدرسة الأخلاقية الصدريّة 112

أولاً: الأريحيّة.....112

ثانياً: التجسيديّة 121

ثالثاً: الشمولية.....123

رابعاً: المعياريّة.....125

خامساً: الغيريّة 126

خلاصة واستنتاجات 130

الملاحق 139

الملحق الأول المِحنة في جانبيها (الذاتيّ) و(الموضوعيّ).....140

الملحق الثاني حبُّ الدنيا رأسُ كلّ خطيئة! 165

المصادر والمراجع.....174

مقدمة المركز

وقف الشهيد السيد محمد باقر الصدر على قمة عالية من العلم، فكانت مستقره الخالد. لقد مضت عليه عقود الزمن بعد استشهاده، وهو لا يزال متفرداً بموقعه.

تطور العالم كثيراً بالبحث العلمي والمناهج الجديدة والآراء الصادمة. تراجعت نظريات وسقطت أفكار، واهتزت مفاهيم، ومع ذلك فان النتاج الفكري للسيد الشهيد في المجالات التي تناولها ظل على مكانته المتألقة، يبرهن وهو في العالم الآخر على دقة ما توصل اليه من نتائج بالرجوع الى العقيدة الإسلامية وفكرها ومنظومتها المعرفية الواسعة.

أمسك الشهيد الصدر بيديه عنصري السير نحو التكامل الإنساني، وهما الفكر والأخلاق، فلم يهتم بواحد ويترك الآخر، بل ضمهما الى صدره بكل قوة، فقد آمن وكما أراد القرآن الكريم، بأن يكون الفكر لصيق العمل. وأن يكون العلم مقروناً بالأخلاق. واستطاع أن يفعل ذلك بصدق مشهود وبإصراره الثابت على مبدئه.

لقد جرت سياقات الحياة الاجتماعية والثقافية أنها تضع عينها على النتاج العلمي لرجال الفكر، بينما لا تنظر الى البعد الأخلاقي في شخصياتهم إلا بنظرات عابرة. ربما يكون السبب في ذلك النزعة البشرية الميّالة الى بهرجة العلم وتفضيله على الأخلاق. ولو أن العيون تطلّعت الى الجانب الأخلاقي عند السيد الشهيد محمد باقر الصدر، لأرجعتْ البصر مرات ومرات على سلوكه وقيمه الأخلاقية، وفي كل مرة سيأخذها الانبهار بسمو أخلاقه ومدى مجاهدته لنفسه وكفاحه الدائم لتجسيد ما يؤمن به عملياً.

تحدّث عن الزهد فكان مثاله في الواقع الذي عاشه. وكتب في النظام الإسلامي فبنى مدرسته السياسية على هذا الأساس موطّناً نفسه لمواجهة أصعب الظروف في دولة تقوم سلطتها على القتل بالظنة وأخذ المعارضين بالتنكيل لمجرد شبهة.

تكلم السيد الصدر عن دنيا هارون الرشيد وحذّر منها، وقد عُرضت عليه من قبل نظام البعث في محاولات متكررة، لكنه رفضها بشدة. صرف نفسه عنها، وترك لذائذها، فما وجده في الصدق مع مبادئه كان أشهى اليه من دنيا الرشيد.

لم يكن الجانب العلمي رغم الإبداع الكبير الذي حققه السيد الصدر، سوى الجانب المنظور من شخصيته، ولعله الجانب الأقل سعة لو قارناه بالجانب الأخلاقي الذي يحتاج الى مجالدة وصبر وثبات. لقد خاض الجهاد الأصغر في معاركه الفكرية والسياسية وانتصر فيها. وقبل ذلك واثناءه وبعده خاض

الجهاد الأكبر وخرج منه منتصراً مرفوع الرأس.

في هذا الكتاب للأستاذ عادل القاضي، يجد مركز البيدر للدراسات والتخطيط جهداً رائعاً في التعريف بالمدرسة الأخلاقية للسيد الشهيد، وهو جهد يستحق عليه الشكر والثناء لأنه قام بتسليط الضوء على هذا الجانب من حياة الشهيد الكبير، فسدّ النقص الموجود في التعريف بتراثه ومدرسته وشخصيته.

جهد الأستاذ القاضي يلتقي مع توجهات مركز البيدر في نشر ثقافة البناء والنهوض الفكري والأخلاقي في المجتمع، فله منا الشكر الجزيل ووافر التقدير ونحن نقوم بإعادة طبعه خدمة للمجتمع في مجال الاخلاق والثقافة.

مركز البيدر للدراسات والتخطيط

المدخل[1]

هناك ثلاث نقاط أساسية يمكن أن تكون مدخلاً لهذا البحث:

1. كيف تعاطى السيد الصدر (رحمه الله) مع المسألة الروحية؟

2. ما هي حدود التزاوج بين (الفقه) و(الأخلاق)؟

3. كيف يمكن أن نقيّم المعطى الأخلاقي بين مفهومه (المدرسيّ)وبعده (العمليّ)؟

النقطة الأولى: كيف تعاطى السيد الصدر مع (المسألة الروحية)؟

لا بدَّ للإجابة عن هذا السؤال إجابةً علمية من أن ندرس الاتجاهات السائدة في التعامل مع هذه المسألة لنتبيّن التعاطي الصدري معها. فهناك ثلاثة اتجاهات للتعامل مع المسألة الروحية:

الاتجاه الأول: اتجاه يحاول أن يفصل (المسألة الروحية) عن (حركة الواقع) أي يجعل منها شيئاً معلّقاً في الفضاء، أو شيئاً مغلقاً في دائرة الذات، في حين أن المسألة الروحية لا هي من الرهبانية في شيء، ولا من الصوفيّة المنطوية على الذات في شيء، ذلك أن المغزى الأساسي في البناء الروحي هو أن تشعّ هذه الروح على الواقع المحيط لتكسبه ألقاً ودفئاً وإنسانية أكبر، وإلاّ فهل يكفي أن تكون مخلصاً لربّك والواقع الجدب من حولك يتلهّف لنبض الإخلاص في حركته؟! وعلى هذا كان تركيز المربّي الإسلامي بالغاً في أن تكون المسألة الروحية حركة باتجاهين:

(حركةً نحو الداخل)، لاعادة صياغة محتواه صياغة إسلامية، و(حركة باتجاه الخارج) لتشيع الروح المتأدبة أو المتخلّقة بأخلاق الإسلام في الجوّ المحيط، تماماً كما الزهرةُ التي تنعشُ الآخرين بعطرها، وتجتذب النحل والفراشات إلى رحيقها، وكما النبعُ فيّاضاً يسقي العطاشى من غير أن يسأل الواحد منهم: ما هي هويتك؟

ولذا فإن فصل المسألة الروحية عن مجرى الواقع الحياتي للإنسان تمثّل ـ من ناحية افتراضية ـ عملية إيصال الماء إلى الجذور وقطعه عن الجذع والأغصان والأوراق، فهل يمكن ذلك؟! هل هو شيء عمليّ؟!

(1) تمنّيت على سماحة آية الله السيد (عبد الله الغريفي) وهو أحد تلامذة الإمام الصدر علمًا وُخلقاً، أن يكتب مقدمة لهذا البحث، ولمّا كان منشغلاً في كتابه عن الإمام المهدي المنتظر (عج) أعانني مشكوراً على وضع الخطوط العريضة والمفاصل الأساسية لهذا المدخل، فله عرفاني ومحبتي على ذلك، وعلى مراجعته للبحث كلّه.

وأما الاتجاه الثاني، فهو اتجاه معاكس يحاول أن يفصل (حركة الواقع) عن (المسألة الروحية) بمعنى أنّه يرى أن لا دخلَ لهذا الجانب من سيرة الإنسان في مسيرته الحياتية، فللمسجد ـ حسب هذا المنطق ـ حياته، وللواقع المعاش حياته، ولا وشيجة تربط بينهما، بل قد يرى بعض دعاة الفصل من العلمانيين أن دخول المسجد على خط الحياة اليومية للإنسان قد يفسدها، وهم في ذلك محقون لجهة أن الحياة خارج المسجد قائمة على غير ما أراده الله، ولهذا تراها تصطدم مع ما يضخّه المسجد من مفاهيم وقيم وأخلاق رسالية. وهذه هي مشكلة العديد من مجتمعاتنا الإسلامية التي تدين بالإسلام في المساجد وتتنكّر له ـ راضيةً أو مكرهة ـ في السوق والشارع وساحات العمل.

وكان من نتائج هذا الفصام النكد أن أفرز هذا الاتجاه ما يمكن الاصطلاح عليه بـ(حركيينَ بلا روحانية) أو (حركيين غير روحانيين)، وهم الفئة المتحرّكة في خطّ الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، والذين يعانون من أزمة روحية تعصف بهم في مفارقات سلوكية هنا وهناك، وفي ضمور حركيّ بين الحين والآخر، وفي انشداد ماديّ تارة، وفي جفاف العلاقة بينهم وبين الناس من حولهم تارة لدرجة النفور وربما القطعية أحياناً.

وبسبب من هذا نفهم دعوة الإمام الصادق (عليه السلام) إلى تقديم الداعية من سلوكه الأسوة الحسنة والقدوة الفاعلة الحيّة: ((كونوا دعاة لله بغير ألسنتكم حتى يرى الناس منكم الورع والتقوى، فذلك داعية)). وكلمة (فذلك داعية) ترمز إلى أن الدعوة المؤثرة هي الدعوة الناطقة بصدق الشعار وإن لم ينطق به حملته، ولهذا قيل إن الأعمال تتكلم بصوت أعلى من الأقوال.

وثمة اتجاه ثالث: يحاول أن يمنح المسألة الروحية حركتها في الواقع، ويعطي لحركة الواقع عمقها الروحي، وهذا هو باختصار المراد من كلّ البرنامج الروحيّ في الإسلام، فليس في أية مفردة من مفرداته شيء مطلوب لذاته، بل هو مطلوب ليسقط ظلاله الوارفة على الواقع في حقوله كلّها، وبكلمة أخرى، فإن المراد من المسألة الروحية ـ في بعدها الاجتماعي ـ أن تروحنَّ الواقع ليصبح واقعاً روحانياً، أي إنّها تخرجه من قوقعة ماديّته وجفافه وصرامته ليتلبس لبوساً غير الذي تحكمه قوانين المادة الجائرة، هو لبوس الرفق والرحمة والإحسان، بل والتي هي أحسن.

هذا الاتجاه الروحي الذي يمدّ جسور الوصل والتواصل مع الواقع، ويضفي اللطف، ينتج للأمة روحانيين حركيين تتعانق روحانيتهم مع حركتهم لتعطيها دَفقاً خاصاً، قد نعدمه في الحركة المفتقرة لهذا النسغ الذي يغذيّها بلطفه، كما ينتج حركيين روحانيين تتلازم حركتهم مع روحانيتهم، فيرتفع بذلك منسوب التأثير في الواقع، وذلك من خلال هذا التأثير المتناظر من قبل (روحانية الحركة) و(حركيّة

الروحاني)، وتلك هي قيمة هذا التفاعل الذي حفر عميقاً في وجدان الأمّة حاضراً وغابراً.

وعلى سدة هذا الاتجاه تتربّع مدرسةُ السيد الصدر (رضي الله عنه) الأخلاقية، فكما سيظهر من مجرى البحث، فإنّ حركة الصدر في تنوّعاتها، لم تكن لتشذّ عن الروحانية الحميمية حتى وهو يصوغ أعقد الأفكار، وربّما أبعدها عن الروحانية، فهو بمختصر العبارة، روحانية فيّاضة التقت أو تلاقحت مع حركية معطاءة، فكان هذا النتاج المتروحن والمتحرّك معاً.

النقطة الثانية: التزاوج بين الفقه والأخلاق

كما يمكن ملاحظة مفارقة أخرى في واقع المسلمين الفكري والسلوكي وهي انفصال (المسألة الأخلاقية) عن (المضمون الفقهي) أي التعاطي مع المسائل الأخلاقية لا على أساس أنها تملك قوة (الإلزام الفقهي) فلا يجد الإنسان أي حَرج في التخلّي عنها حتى ما وجد فيها تعارضاً مع مصالحه، في حين يصل إلى حد (الوسوسة) في التعاطي مع أصغر المسائل الفقهية.

ومما كرّس هذا النمط من التعاطي الأبتر، هو (الافتراق) بين الفقه والأخلاق في (الرسائل العملية الفقهية) وفي (الكتب الأخلاقية). فنجد أن هناك تعبيراً سائداً على ألسنة الفقهاء والعلماء والدارسين يعكس هذا الفصل، وهو قولهم: ((هذه أوامر أخلاقية)) أو إرشادية. أي إنها لا تحمل صفة (الإلزام الشرعي) مما أوحى للمكلّفين، أو ترك انطباعاً لا واعياً أن القضايا الأخلاقية ليست أحكاما ملزمة من الناحية الفقهية.

وكمثال على ذلك، من بين أمثلة عديدة، أن المكلّف الملتزم يعيش أقصى حالات القلق والخوف حينما يحتمل أن قطرةً من النجاسة أصابت ملابسه، ولا يعيش أيَّ قلق أو خوف وهو يمارس أقصى حالات التجاوز على حقوق الآخرين في ما هي الغيبة والبهتان والظلم ...الخ.

ولقد نجم هذا عن شيوع نظرة خاطئة إلى الفقه حصرته في المسائل المدرجة في الرسائل العملية، في حين أن دائرة التشريع أوسع بكثير، فنصوص القرآن الكريم والأحاديث الشريفة الصحيحة الموثقة والروايات الدقيقة المحقّقة، تشريعٌ شأنُها شأن العبادات والمعاملات. لذا يمكن اعتبار كل ما جاء من الله عزّ وجل في الكتاب الكريم، وما جاء عن النبي (صلى الله عليه وآله) والأئمة الهداة من آل بيته (عليهم السلام) من السنّة المطهّرة فيما هو قولهم، وفعلهم، وتقريرهم، تشريع، ومنه الآيات والأحاديث والروايات الأخلاقية التي تكتسب صفتها الإلزامية من كونها تشريعاً مثلها مثل التشريعات الإلزامية الأخرى.

فلو أخذنا ـ على سبيل المثال ـ (سورة الحجرات) لرأينا أن الآيات التي تتحدث فيها عن الأخلاق تحمل إلزامية فقهية، وليست واردة على نحو التجمّل الأخلاقيّ أو التزيّن السلوكي الترفيّ الذي يمكن الأخذ به أو تركه، أو الأخذ ببعضه وترك بعضه الآخر، دون أن يترك ذلك تأثيراً سلبياً في السلوك العام للشخصية الإسلامية.

فالدعوة إلى عدم رفع الصوت فوق صوت النبي (ﷺ)، وتحرّي حقيقة النبأ الصادر عن الفاسق، والنهي عن السخرية، واللمز، والتنابز بالألقاب، واجتناب الكثير من الظن، ونبذ التجسس، والغيبة، كل ذلك ـ وغيره في الكتاب كثير ـ تشريع أخلاقي لا بدَّ لمن يؤمن بالكتاب كلّاً متكاملاً أن يؤمن به إيماناً تفصيلياً، وأن يعتبره مسائل فقهية أخلاقية: فيها العمل، وفيها الترك، وفيها الاستحباب، وفيها الكراهة وفيها الإباحة. ولذا فلا اجتهاد أخلاقياً في مقابل النصوص الأخلاقية التي لم يتركها المشرّع الإسلامي منطقة فراغ خاضعة لاجتهادات الظرف.

وإن ما يترتب على المسائل الفقهية من ثواب وعقاب وعتاب يترتب أيضاً على مسائل الفقه الأخلاقية، وبالتالي، فإن التشريع يجب أن يؤخذ وحدةً واحدة وكلّاً متكاملاً غير قابل للتبعيض أو التبضيع، ذلك أن المنظومة التربوية ـ بصفتها الشمولية ـ لا يمكن أن تحقق أهدافها المنشودة كاملةً بالتشريع العباديّ وحده، أو التشريع المعاملاتي وحده، بل لا بدَّ من تلازمهما مع التشريع الأخلاقي الذي يهب الروح السارية في التشريعات الإلهية كلّها. من مناحي الفصل والتجزئة في هذا المضمار، هناك أكثر من منحى:

المنحى الأول: وهو النظر إلى المسألة الفقهية بعيداً عن المضمون الأخلاقي، وهذا يعني أن المسائل الفقهية، من وجهة نظر هذا المنحى، مجرّد تعليمات صادرة عن المشرّع الإسلاميّ لا روح فيها، قد يجد فيها المكلّف المشقّة فحسب، وأنها مجموعة إلزاميات في العمل والترك لا بدّ له أن يأخذ بها من غير روح أخلاقية تنتظم هذه المنظومة من التعليمات والاحكام، في حين أن المسائل الفقهية تنظيمٌ قانونيّ دقيق لسيرة حياة الإنسان المسلم في شؤونها كلها، وهي تراعي في الأصل والأساس مصلحتة التي قد لا يقدّرها أحياناً، أو ينظر إلى جانب واحد منها ويغفل عن جوانبها الأخرى. فقد يحب شيئا وهو كره له، وقد يكره شيئا وهو محبِّبٌ بالنسبة له، لكن المشرّع الذي هو الله سبحانه وتعالى أعلم بما يصلح العبد، وبما يسعده، وبما يهديه، ولذلك فمن معاني الإسلام كدين يُدان به: (الإستسلام) أو (التسليم) لهذا التشريع حتى مع عدم القدرة على استكناه مراميه ومقاصده، وذلك من موقع الاطمئنان الراسخ انه لا يرمي إلاّ لتحقيق سعادة الإنسان المسلم في كل ما ينهاه ويأمره (قصة موسى (عليه السلام) مع العبد الصالح (الخضر) (عليه السلام) خير دليل على ذلك).

إن الإنسان حينما يأخذ بالعزائم (الفرائض) فإنه يأخذ بوصفة ناجحة لتربية شخصيته في العبادات كلها، وحينما يأخذ بـ(الرُخَص) فإنّه يجد فيها المساحة التي يجاز له أن يتخفّف فيها من بعض أعباء التكليف، وبين هذا وذاك تنتظم حركةَ سيره جملةُ ضوابط تقنّن له خطَ السير، كما هو حال السائق مع إشارات المرور التي لا تُعتبر قيوداً بقدر ما تعتبر إرشادات إلى سلوك الطريق الصحيح الذي فيه منجاة السائق وسلامة الآخرين على حدٍ سواء.

لكن خطورة هذا المنحى تتأتى من التزامية فقهية مجرّدة أو مُنتَزعة عن أخلاقيتها، أي إن يعمد المكلّف إلى الالتزام ببنود الحكم الشرعي دون أن تنفذ هذه البنود في صميم سلوكه العملي بحيث تصبح جزءا من أخلاقية المكلّف، فهو قد يؤدّي الصلاة بشكلها الطقسي الجامد والمجرّد من الروح والآداب المعنوية للصلاة، وقد يصوم ولكنه يجوع ويعطش من غير أن يتلمّس أثر هذه العبادة في صناعة إرادته وبناء مناعته الداخلية، وهو قد يحجّ من دون أن يتخلّى عن الكثير من أنواع الشرك والانتماءات الشكلية الهشّة التي يمارسها في حياته... وهلمّ جرّا.

المنحى الثاني: أو المفارقة الأخرى، هي أن تؤخذ المسألة الأخلاقية منفصلةً عن المضمون الفقهي.. وهي حالة معاكسة للحالة الأولى، لكنها تشترك معها في كونها سلبية أيضاً، فهنا قد تجد (الروح) لكنك تفتقد أو تفتقر إلى الانضباط، وهذا ما يدعو بعضاً من الناس إلى القول إن بإمكاننا أن نكون خيّرين من دون الحاجة إلى ممارسة العبادات، وأن تكون أخلاقُنا حسنة بلا حاجة إلى التقيّد بالأحكام الشرعيّة، ويضرب أصحابُ هذا الاتجاه مثلاً ببعض المتخلّقين بالأخلاق الحميدة التي لا تستمدّ قوتها وحيويتها وديمومتها من ضوابط شرعية تكفل استمرار المتخلّق بها في الخطّين العام والخاص لمسيرته الحياتية.

وقد يفهم هؤلاء الأخلاق في دائرتها الذاتية الضيّقة أو في مفردات أخلاقية محدودة، من دون النظر إليها ككل متكامل. فقد يرى هؤلاء أن الصدق جميلٌ والكذب قبيح، لكنهم قد لا يرون مقاطعةَ الظالم أو مناهضته أو العمل على تغييره أمراً أخلاقياً، كما هو واجب سياسي واجتماعي وأمني واقتصادي أيضاً.

إن خطورة هذا المنحى تنبع من ممارسات أخلاقية مهددة بالمزاجية الشخصية، التي قد تنطلق في تعاملها من منطلقات ذاتية تكون رهنَ الحالة التي عليها الإنسان، وبمعنى آخر فإن الخُلقَ ـ أياً كان ـ لا يشكّل ملكة في النفس تسيّرها ـ كبوصلة ـ باتجاه الخطوط المحمودة دائماً، وقد تتعارض شخصية الأخلاقي الذى لا تحكمه قاعدة شرعية ثابتة، وقد تتناقض مواقفه وتصرّفاته، فيظهر ازدواجياً أو انفصامياً هنا أو هناك، وهذا هو أثر الإلتزام الشرعي الواعي الذي يجنّب صاحبه مثل هذا المزلق أو المطبّ الخطير.

وبين هاتين المفارقتين، يأتي التزاوج الطبيعيّ أو التلقائيّ بين (المضمون الفقهي) وبين (المضمون الأخلاقي) الذي تلتقي فيه الأخلاق كمنظومة سلوكية متكاملة مع قواعدها الشرعية التي تنطلق وتنبثق منها، فالذي يحددها و يحرّكها هنا ليس (المزاجية) الذاتية المتقلّبة، وإنما هو (الوازع) والدافع الشرعي الذي لا يخضع لتقلبات الجوّ النفسي للإنسان، فالإمام علي (عليه السلام) لا يثأر لنفسه ولكرامته حينما يبصق (عمرو بن عبد ود العامري) أثناء المنازلة بوجهه، ذلك ان الحِلمَ عنده حالةٌ مستقرّة لا تخضع لتذبذبات الموقف، وبمعنى آخر، هي التي تحكم حركةَ سيره ليكون متوازناً حليماً في أشدّ الحالات التي يمكن أن تُخرج الإنسان عن حِلمه وعن اتزانه، وهذا المنحى يقدّم لنا مُعطيَين متلازمين:

أ. يعطي للالتزامية الفقهية مضموناً أخلاقياً، فلا تكون شبكةُ الأحكام الشرعية مجردَ هياكل جامدة لا روحَ فيها، ولا هي قيود منفّرة يبحث الإنسان عن سبل الخلاص أو التحرّر منها أو التحايل عليها، وإنما يتبناها ويدين بها اعتقاداً منه أنها المحجة البيضاء والصراط المستقيم والجادة الوسطى.

ب. ويعطي كذلك للممارسة الأخلاقية إلزامية فقهية، فلا تكون عبثية، أو مزاجية، أو ازدواجية، أي إن الممارسة الأخلاقية تكتسب شرعيتها وعنوانها وروحها من منهج أخلاقيّ منظّم ومبرمج لا يقع تحت غلوّ هنا، ولا إجحاف هناك، فالالتزام الشرعي يُمنهج للإنسان حركته لتكون المتوازنةَ بين (الإفراط) وبين (التفريط)، وبين (المغالاة) و(الاعتدال).

مزاوجة السيد باقر الصدر بين القيمتين: والسؤال المثار هنا هو: أين تقف مدرسة السيد الشهيد الصدر (رضي الله عنه) في سياق هذه المناحي الثلاثة؟ لا شكّ أن السيد الشهيد (رضي الله عنه) ـ وبما سيطّلع عليه القارئ في تفاصيل البحث ـ قد زاوج بين (المضمون الفقهي) وبين (المضمون الأخلاقي) في جوانب الفقه كلّها، وفي جوانب الأخلاق كلها، ولذا فإنك لا يمكن أن تجد له تصرّفا أخلاقياً ـ مهما كان بسيطاً ـ إلّا وتجد انه مستمدّ ومستوحى من مضمون فقهي، فهو على سبيل المثال، حينما يقول بـ(مسلك حقّ الطاعة) يستند في ذلك إلى دلالة عقلية قاطعة في أن طاعته سبحانه وتعالى ممتدة حتى في (المندوحات) أو (المستحبّات).

وهنا تأتي أهمية دراسة مدرسة الشهيد الصدر (رضي الله عنه) الاخلاقيّة في بعدها العمليّ، فهي ليست دراسة عادية تطال خصالَه الحميدة البارزة، وإنما ترسم للأجيال منهجا أخلاقيّاً يقوم على نصوص تصلح كمعايير أخلاقية، وهذا أيضاً هو السرّ الذي سيمنح هذه المدرسة ـ التي هي نتاجُ مدرسة الأئمة من أهل البيت (عليهم السلام) ـ الخلودَ أبد الدهر.

النقطة الثالثة: التمييز بين (المدرسيّة) و(المعايشة) في المُعطى الأخلاقي

ولا بدَّ لنا، ونحن نخوض في العمق من أصول وخصائص المدرسة الصدريّة الأخلاقيّة، من التمييز بين (المدرسيّة) في شكلها التقريري البارد، وبين (المعايشة) ببعدها الحركيّ الحارّ، ونريد بالمدرسيّة استظهار الأخلاق كعلمٍ مسطّر بين دفتي كتاب يمكن أن نحصل في الامتحان النهائي به الدرجات العلى، لكن ذلك لا يزيد في حظّنا من أخلاق تمشي على قدمين بين الناس شيئاً. وتلك هي المفارقة بين من (يدرس) الأخلاق أو (يُدرّسها)، وبين من يعيش (الأخلاق) و(يعاشرها)، لا تمثيلاً ولا تشبهاً ولا تزيّناً، وإنما يجد فيها ذاته وأنسه وإنسانيته ونفحةَ الروح الإلهية المتوّهجة في داخله.

إنّ الفرق بين (الأخلاق المدرسيّة) و(أخلاق المعايشة) هو الفرق بين النظريّة والتطبيق، وبين الشعار والممارسة، وبين التجريد والتجسيد. ومن هنا أمكن القول إن المعطى الأخلاقي قد يشكّل (منظومة التوجيهات) التي تنتجها (الذهنيّة النظريّة) بعيداً عن المعايشة والمعاناة العمليّة، فيكون، على سبيل المثال، إدخالُ السرور على قلبِ المؤمن حالةً من الطرب على لسان المتغنّي بها، في حين تستحيل إلى راحة نفسية غامرة، وبهجةٍ روحيّة عامرةٍ ذاكرة، شاكرة، لدى مُدخِل السرور على هذا القلب، خاصّة وهو يعلم أنّ ذلك لله تعالى ولرسوله (ﷺ) ولأئمة الهدى (عليهم السلام) رضا وسرور، فكأنما يكون قد أدخل السرورَ على قلوب هؤلاء من قبل أن يُدخله على قلب أخيه المؤمن، إنه يستشعر بقوة وجدانية أن صَدَقَته سواءٌ أكانت كلمةً طيّبة أم إحسانا، أم معروفاً، أم هبةً مالية أم انجازاً معرفياً، تقع في يد هؤلاء قبل وقوعها في يد السائل أو الموهوب.

ولذا فإن بالإمكان تصوّر خطورة الصيغة المدرسيّة في التوجيه الأخلاقي المتمثّل بالدروس النظرية، من استشعار الكلفة والمشقّة في نقل النموذج الأخلاقي من حروف في كتاب، إلى حركة تجري في مفاصل الواقع وتفاصيله. إنه الفارق النوعي بين قراءة (السباحة) في كتاب، والنزول إلى النهر أو البحر للسباحة في الماء ومقارعة الموج.

في قبال هذا المعطى الأخلاقي النظري، يغدو المعطى الآخر الذي هو نتاج المعايشة والمعاناة والتجربة الصعبة في شتى حقول الواقع العملي، معطىً غير قابل للقياس والمقارنة مع المعطى الأول، إنه الفارق بين أمر الناس بالبرّ، وبين نسيان النفس في الائتمار به، فإنَّ فاعلاً كهذا سوف ترتطم كلماتهِ بالجدران الصماء ولا يسمع لها في قلوب الناس صدى. ولذا فإن القيمة الكبيرة للمعطى الأخلاقي العملي

تتجلى في هذا الصدى الطيب للكلمة الطيبة، وهذا الانفعال التلقائي بهذا الفعل الصادق، وهذه الحركة الواسعة المباركة بهذا المحرّك النفّاع المخلص.

على هذا المفترق الحيويّ تقف مدرسة الشهيد الصدر (ﷺ) الأخلاقيّة غير متردّدة في اختيار صيغة (المعاناة والتجربة) اختياراً ذاتياً إرادياً محضاً وسعيداً، لأنّه اختيار واعٍ لا للطريقة الفاضلة، بل للطريقة الفضلى أو المُثلى، وأعني طريقة (وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا)[2]. وغني عن البيان، أنَّ البون بينها وبين الدعاء ((واجعلنا من المتقين)) شاسع جداً.

من هذه الأبواب ندخل إلى رحاب البحث في الجانب الأهم من جوانب حياة سيدنا الشهيد محمد باقر الصدر (ﷺ) ألا وهي مدرسته الأخلاقيّة الفذّة، وبذلك يكون الباحث قد وضع نفسه في الموضع الشائك أو الصعب، لكنه وهو يخوض غماره، رجا الله عزَّ وجلّ، وهتف بروح السيد الصدر الشهيد (ﷺ) أن لا تزلّ عصاه وهو ينقّلها على دربٍ يخشى أن تخذله فيه قدماه. ربّنا تقبّل منّا هذا القليل ونمّه وكثّره بطولك الجزيل، إنك أنت السميع العليم.

عادل القاضي

الأول من ربيع الأول 1421 هـ

الثالث من يونيو/حزيران 2000 م

(2) الفرقان: 74.

دواعي البحث

تقوم الحاجة إلى البحث في مدرسة الإمام الشهيد الصدر (ﷺ) الأخلاقيّة على الدواعي والموجبات الآتية:

1. دراسةُ سيرة الشهيد الصدر (ﷺ) دراسةً شاملة تستوعب مفردات حياته وعطائه كلّها، ذلك أننا لا نجد في هذه الحياة وهذا العطاء شيئاً لغير الإسلام، ومن ثَمَّ فإن دراسة شخصيته من جوانبها كلّها سيساعد في فهم منهجه الذي ينبغي أن يكون زاداً موصولاً للأجيال كلّها.

وإذا كانت الأوراق والبحوث والدراسات والتأليفات قد تناولت بشرحٍ ضافٍ وصافٍ جوانب حياته الملأى من زواياها، فإن حصتنا من البحث والتنقيب هو سيرته الأخلاقية التي وجدنا ثمة اضاءات عليها هنا وهناك، وإن لم تنتظم في دراسة موضوعيّة تُلمُّ بمعطياتها أو مجمل تلك المعطيات.

2. إن البعد الأخلاقي والمعطى التربويّ هو خلاصة أبعاد شخصيته (ﷺ) الأخرى: العلمية، والفكريّة، والعقائديّة، والفقهيّة، والعمليّة، يقول الإمام الخميني (ﷺ) مخاطباً طلبة العلوم الدينية: ((إن العلوم التي تدرسونها ليست في الواقع إلا مقدمة للحصول على مستوى خلقي رفيع))[3]، أي أنها كلّها وسائل لبلوغ هذه الغاية.

3. إنّ التدهور الأخلاقي الذي شهدته بعضُ صفوف وصنوف الحوزة العلمية، والذي حرص الشهيد الصدر (ﷺ) على معالجته من خلال تقديم المثال والنموذج، ما زال يعاني العديد من المفارقات التي تستدعي أن يكون النموذج الصدريّ، الحوزوي، الأخلاقي، ماثلاً أمامه أبداً.

4. إنّ حاجة الأمة اليوم، بل والإنسانية جمعاء في كلّ مكان، إلى ما يصلح شأنها وكلّ فاسد من أمورها، أكثر من ماسّة، وقد تعددت الأسباب في ذلك، لكن التشخيص يكاد يكون إجماعياً أن الخلل الأساس هو في البنية التربويّة، وأن أزمة الأزمات هي الأزمة الأخلاقيّة، وسيرة المرجع الصدر (ﷺ) حَريّة بأن تُحتذى في تقديم أحد أمثل النماذج الحضارية المساعدة على انقاذ سفينة الإنسانية الآيلة للغرق في وحل أو مستنقع ماديتها الفاقعة.

5. إن حياة الصدر (ﷺ) الأخلاقية لا تقتصر على جانب أخلاقي معيّن يمتاز به دون سواه من الخصائص والخصال الحميدة، بل هي منظومة أخلاقية متكاملة يشدّ بعضها أزرَ بعض، وهذا هو مكمن

(3) الإمام الخميني: الجهاد الأكبر. ترجمة حسين كوراني. ص20.

القوة في شخصيته التي حازت شرف مكارم الأخلاق كلّها بلا استثناء، مما يقتضي تسليط الضوء كاشفاً ساطعاً على هذه الشخصية الجامعة للشمائل والفضائل الفذة الفريدة.

يقول السيد (فاضل النوري) في سبحاته: ((لقد كانت المحامد الشخصية والفضائل الخلقية لإمامنا الشهيد كأفراس رهان يتنافسن في المضمار، ويتبارين في ساحة المغالبة، كلٌّ تطلب فلجَها[4] وكلٌ تطمح جاهدةً أن تكون هي الظافرة، لكنهنّ بلغن الغاية في وقت واحد، فكانت السبقة لهنّ جميعاً، والجائزة بينهنّ سواء))[5].

6. قد نجد في عالم العلماء ـ كما هو معروف ومألوف ـ عالماً فقيهاً بارعاً في فقاهته، ومرجعاً أعلم من غيره، أمّا أن يجمع عالمٌ فقيه علماً جمّاً وفريداً إلى جانب أخلاق جمّة وفريدة، فتلك صفة من الصفات النادرة التي تستحق الدرس عند الصدر أو عند النوادر. فكما امتاز (ﷺ) علماً فذّاً، تميز أخلاقاً فريدة، والجمع بينهما ليس يسيراً، الأمر الذي يجعلنا نفكّر بالشهيد الصدر على أنه من أشد تلامذة المدرسة الإماميّة بِرّاً بنهجها وبأساتذتها وبتاريخها وبأهدافها.

يقول الشهيد مطهري (ﷺ) في كتابه (الإنسان الكامل): ((إن معرفة الإنسان الكامل أو النموذجي في نظر الإسلام واجبةٌ علينا نحن المسلمين، لأن الإنسان الكامل يكون بحكم المثال والقدوة وما ينبغي أن يحتذى. فنحن إذا شئنا أن نكون مسلمين كاملين، والإسلام يريد صنع الإنسان الكامل، وإذا أردنا أن نصل إلى كمالنا الإنساني بالتربية والتعليم الإسلاميين، علينا أن نعرف من هو الإنسان الكامل؟ وكيف هي ملامحه الروحية والمعنوية وسيماه ومميزاته؟ حتى نستطيع أن نصنع مجتمعنا وأنفسنا على شاكلته))[6،7].

(4) الفلج: من كلّ شيء نصفه، ومن الناس صنفه.

(5) فاضل النوري: سبحات روحية. ص63.

(6) مرتضى مطهري: الإنسان الكامل. ترجمة جعفر الخليلي. ص5ـ6.

(7) الكمال كمالان: (كمال مطلق) وهو حقّ اختصاص لله تعالى منبع الكمالات كلّها، و(كمال نسبي) وهو ما بمكنة الإنسان كسبه وتحصيله بحسب درجات نبله ووعيه واخلاصه وتفانيه ومقامه عند الله.

منهجيّة البحث

سيحاول البحث ـ ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ـ أن لا يعتمد الأسلوب التقليدي في دراسة أخلاقية المرجع الشهيد، والقائم على استقراء سيرته الأخلاقية والتربوية في المفردات التي اعتاد بعض الكتّاب اعتمادها في معرفةِ زهدِ، وتواضعِ، وأخلاقِ، وتسامحِ الشخصية المستهدَفَة أو المدروسة، بل سنعمد ما وسعنا ذلك ـ إلى الدخول إلى شخصيته ـ في جانبها التربوي والأخلاقي من خلال مدخلين:

1. النصّ: ونعني بالنص كلّ ما ورد في مأثور السيد الشهيد (رضي الله عنه) من نقاط إضاءة في الجوانب المشار إليها، والتي سيتضح من خلال البحث أنه لم يكن يطلقها كأفكار معلّقة في الفضاء، وإنما مارسها ممارسة شخصية عملية أثبت من خلالها أن بالإمكان نقل القيم العليا من التحليق في فضاء التنظير والتجريد إلى نطاق التطبيق والتجسيد، بل إلى مدار أرحب، هو أفق المستقبل الذي يغيب فيه (الشخص) وتبقى (الشخصيّة) ماثلةً حيّة تمارس عطائها بلا توقّف.

2. التجربة: كما أعني بالتجربة ما تركه (رضي الله عنه) من سيرة ذاتية عمليّة، لا يجد الدارسُ أية ثغرة أو فاصلة بينها وبين متبنياته الأخلاقية والتربوية، فلقد أرسى دعائمَ نظرية تربوية إسلامية رصينة، وحرّك في موازاتها تجربة عملية ضخمة لا تدع مجالاً للشك أو للطعن في قدرة المنهج الإسلامي على رسم الخط التربوي الشامل الواضح، الذي لا يتمثل في أشخاص معدودين ينتهي برحيلهم، بل يمتد في الزمن لينتج أمثالاً وأمثلة أخرى يتعزّز بها خطُّ سير المسيرة الصالحة.

وسيكون الإعتماد على الشواهد والأمثلة ـ في هذه الدراسة ـ ضمنياً، أي إننا سوف لا نستعرض المواقف الأخلاقية بعملية نقل سرديّ مجردة، إنما نسوقها كدلائل وشواهد، ونلجأ إليها ـ في البرهنة والتحليل ـ على ما يمكن استخلاصه من تجربة أخلاقية إسلامية عملاقة.

هيكلية البحث

ترتكز هذه الدراسة على قطبين أساسيّن هما:

أولاً: أصولُ المدرسة الأخلاقية للشهيد محمد باقر الصدر.

ثانياً: سماتُ وخصائص هذه المدرسة.

على أن منهجيةَ البحث تقتضينا الإشارة إلى ما يلي:

إن الاستعانة بالمنهج التوحيدي، الترابطي، الذي اعتمده السيد الشهيد (رضي الله عنه) في أطروحاته كلّها ضرورةٌ لفهم منهجه الأخلاقي أيضاً، فلو أخذنا أي جانب أخلاقي من جوانب شخصيته (رضي الله عنه) لوجدنا كيف أنه يتنافذ أو يتواشج على الجوانب الأخرى بما يستكملها ويعضدها ويغذيها ويقدّمها كلاً متكاملاً.

فالزهد، والتواضع، والشجاعة قد تبدو مفاهيم أخلاقية منفصلة لا علاقة جدلية واضحة تربط بينها، في حين أن (الزهد) بما هو تعاطٍ حقيقي مع ما في الحياة الدنيا من متع وملذات وجاه ومناصب، يلتقي مع (التواضع) الذي يمثل ـ في جوهره ـ التعاطي الزاهد مع ما يمتلكه الإنسان، مهما بلغ علو شأن ما يملك (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)[8]، (وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلًا)[9]، (بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ)[10]، وهذان المفهومان يلتقيان بالشجاعة من باب أنها زهد في الحياة، فليس فيها ما يخاف عليه، وليس فيها ما يخاف منه، ولا تنافي بين (العزّة) التي تقتضيها الشجاعة وبين (التواضع) أي بين معرفة الإنسان قدَرَ نفسه، وبين معرفته قدَرَ عدوه ـ فلا تضادّ ولا تقاطع بين التواضع كخفض للجناح، وبين الشجاعة كإظهار للقوة من جهة، وبنيها وبين الزهد من جهة أخرى. وعلى ذلك، فإن (الزهد) ـ في حقيقته ـ تواضعٌ في النظر إلى زخارف الحياة ومتعها الزائلة، والتواضع ـ في حقيقته ـ زهدٌ في النظر إلى ما عند الإنسان أو ما تحت يده أنّى بدا عظيماً في قبال ما عند الله مالك الملكِ والملكوت (مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ)[11]. فالتواضع زهدٌ معنوي، كما أن الزهدَ تواضع مادّي ـ إذا جاز التعبير ـ والشجاعة تتكأ على الاثنين في كونها تحرّراً من القيود أو السدود المادّية والمعنوية، خاصة وإن المبارز الشجاع أو الجندي الغيور يعرف جيداً أنه يُقاتل (فيقتلُ) أو (يُقتَلْ)، وكلاهما حُسنيان.

(8) يوسف: 76.

(9) الإسراء: 85.

(10) الحجرات: 17.

(11) النحل: 96.

المحور الأول: أصولُ المدرسةِ الأخلاقيّة الصدريّة

من خلال دراسة مستقصية للنصوص التربوية التي بثّها الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر(ﷺ) هنا وهناك في تراثه الفكري، يمكن تلمّس ثلاثة أنواع من الوعي، أو ثلاثة أصول رئيسة تشكّل المنهج الذي قامت عليه المدرسة الصدرية الأخلاقية، وهي:

أولاً: الوعي الذاتي.

ثانياً: الوعي التاريخي.

ثالثاً: الوعي الميداني.

وحتى نضيء كلَّ أصل من هذه الأصول، لا بدَّ أن ندخل إليها من أبوابها لنتعرف ـ بشيء من التفصيل ـ على طبيعة كلّ وعي، وكيف أسهم في صياغة منهج أخلاقي رائد يمكن أن يخرّج لنا أكثرَ من صدر، أو مَن هم أقرب إليه أو على شاكلته، ذلك أن دعوة القرآن إلى (الاقتداء) حَريّة أن تُفهم على انها دعوة عملية، أي أن الاقتداء والتأسي بالأفذاذ ممكن ولو بدرجات نسبيّة من الرقي، وإلا كيف نُدعى إلى أمر غير مقدور عليه أو هو خارج حدود القدرة والاستطاعة، بمعنى أنه لم تكن دعوة التأسي تشريفيّة أو مثالية لا قِبلَ للإنسان المريد من الوصول إلى بعض منازلها أو مقاماتها أو درجاتها.

وغير خاف أن استخدام مصطلح (وعي) هو للإشارة إلى أن السيد الشهيد (ﷺ) توافر على ذلك كلّه ببصيرة نافذة وإدراك تام لمتطلّبات بناء شخصية إسلامية هادفة وملتزمة ونازعة إلى إمامة المتقين (وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً)[12].

أولاً: الوعيّ الذاتيّ:

وهو ما عبّر عنه السيد الشهيد (ﷺ) في أكثر من موضع بـ(صياغة المحتوى الداخلي للإنسان) ولا شك أن هذا المحتوى هو حصيلة جملة عوامل متظافرة تلعب، بالتعاون بعضها مع بعض، دور إنشاء أو إرساء المحتوى الإيماني الذي تعمر به نفسُ الإنسان المؤمن، والذي يمثّل عمق العبادات لا شكلها الظاهري فقط، أو لنقل؛ إنه روح العبادات لا طقوسها وشعائرها. فالمحتوى الداخلي الإيماني هو الزخم الذي يُنتج إرادة تلوي عنان الضعف والإنهزام، ويحفّز الجوارح للعبادة والطاعة على طريقة:

(12) الفرقان: 74.

وإذا حلّت الهدايةُ قلباً نشطت للعبادةِ الأعضاءُ

ويتجلّى هذا الوعي، عبر المخطط المرسوم ذاتياً، من خلال النقاط أو المحطات التالية:

المحطّة الأولى: الإعداد الروحي

لنأخذ في البداية هذا التعريف المهم للجانب الروحي في الشخصية الإسلامية، فهو: ((الصلةُ الداخلية للمؤمن بالله تعالى، وانشداده النفسي والعاطفي به، من حيث الإيمان، والحب، والإخلاص، وما يرافق هذه المعاني الثلاثة الرئيسة من: خوف ورجاء وتواضع.. إلخ. إن المضمون الداخلي المرتبط بالله تعالى هو الجانب الروحي، وهو الذي يشكّل الأساس الذي يقوم صرحُ الشخصية الإسلامية بالكامل عليه، وتصدر عنه عناصرها الأخرى وسماتها وخصائصها المميزة))[13].

ومن هذا التعريف البنيويّ يمكن أن نستلّ فهمنا للمحتوى الداخلي من أنه (فطرة سليمة) تتعاهدها (تزكية دائمة): (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)[14]، (سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى)[15]، (إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)[16]، الأمر الذي يقودنا إلى فهم السيد الصدر لها، حيث يقول:

((فالنظرة الروحيّة في وجودها عبارة عن إدراك صلة الحياة والكون بالله وانبثاقها عن قدرته وتقديره، وبهذا المعنى يمكن أن نعتبر الكون بصورة عامة روحياً، لأن تلك الصلة بالمبدع الخلّاق، صلة الخلق والإبداع، تشمل (المادةَ) كما تشمل (الروح)، وتنفذ إلى سياستها جميع محتويات الكون وحقائقه. وليست هذه النظرة الروحية ـ التي تتمثل فيها الحقيقة الكبرى للكون ـ نظريّة مجردة، وإنما تتصل بالوجود العملي للإنسان كلَّ الاتصال، وتحدّد له موقفه من عالمه الذي يعيشه، والحياة التي يحياها ويستمد الإنسان منها، أو على ضوئها، اتجاهه العام الذي ينعكس في كل نشاطاته وأفعاله))[17].

من هنا يمكن تفسير حركة الشهيد الصدر(رضي الله عنه) ـ في كل نشاطاته وأفعاله ومواقفه من عالمه وحياته واتجاهه العام ـ على أنها نابعة من نظرة روحية كونية تموّن تلك الحركة بالزخم الذي يجعلها دائماً وعلى طول الخط ربانية، وجذوتها متقدة لا يعروها خمودٌ أو خمول.

(13) حسين معن: الإعداد الروحي. ص45.

(14) الشمس: 9.

(15) الأعلى: 10.

(16) الكهف: 13.

(17) محمد باقر الصدر: رسالتنا. ص42.

المحطّة الثانية: التسامي عن طريق التوحيد

لا ريب أن للاعتقاد بالتوحيد منعكساته الأخلاقية والتربوية التي تدفع الإنسان إلى التسامي بحيث يصبح التوحيد ـ بصفته تعبيراً عن (المثل الأعلى) ـ محطَّ نظره في كل خطوة يخطوها، أو قول يقوله أو عمل يعمله، حتى ليمكن القول: إن التوحيد أو (المثل الأعلى) بحسب اصطلاح السيد الشهيد ينتج لدى الموحِّد منظومة أخلاقية منسجمة مع وحيه وهداه. يقول السيد الشهيد (ﷺ):

((إن فكرةَ التوحيد كلما تجذّرت في النفس تحرّر الإنسان من الشهوات والأغلال التي عليه، كما في الآية الكريمة (وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ)[18] ولأجل ذلك كان مردّ فكرة الحرية في الإسلام إلى عقيدة إيمانية موحدة بالله ويقين ثابت على سيطرته على الكون، وكلما تأصّل هذا اليقين في نفس المسلم وتركزت نظرته التوحيدية إلى الله تسامت نفسه وتعمّق إحساسه بكرامته وحريته، وتصلّبت إرادته في مواجهة الطغيان والبغي واستعباد الآخرين (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ)[19][20].

من هذا النص يمكن قراءة أو تحليل سبب تحرّر السيد الشهيد (ﷺ) من الشهوات الآسرة، وشعوره بالإنعتاق والحرية والعزّة والكرامة. فحينما يحتجّ عليه الحاكم الظالم في مراسلاته مع الإمام الخميني! وتأييده للثورة الإسلامية، أو حينما يزور الإمام في مقرّ اقامته في النجف عندما تقرر السلطة الباغية إبعاده من العراق في ظروف خانقة لا يجرؤ أحد على كسرها، وحينما يقيم مأتماً للشهيد مطهري! في ظروف أمنية وسياسية لا تسمح بذلك، فإنه يتحرك بوحي من هذه العقيدة التي تصلّب إرادته بيقين راسخ أن السيطرة على الكون لله وحده فلا خوف ولا خشية ولاحساب إلا له (أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)[21]؟!.

وقد تدعو بعض الظروف إلى التعامل وفق منطق: أنحني للعاصفة حتى تمرّ، لكن نطاق الخوف العام إذا لم يُخترق أو يُكسر، فإنه يصبح حينئذ أمراً واقعاً يصعب خرقه أو كسره، وبالتالي، فأنّ موقف السيد الشهيد (ﷺ) في تحدي السلطة في الأجواء الخانقة، هو أشبه شيء بموقف الذي يتصدق علناً في أجواء الشحّ والأيادي المغلولة إلى العنق. إن صدقة العلن هنا تصبح خيراً من صَدَقة السرّ لأنها تلعب دور المحفّز على العطاء.

(18) الأعراف: 157.

(19) الشورى: 39.

(20) مجلة الفكر الجديد: العددان (11ـ12). ص61.

(21) الزمر: 36.

ولمّا كان التوحيد رمز الدوران حول القطبية أو المحورية الواحدة الأحدية، فإن الارتقاء بالتخلّق باخلاق (المثل الأعلى) لا يعطي دَفقاً أو زخماً أعلى للسائرين أو للساعين إلى مراقي الكمال، بل هو ذاته يكون محرّكاً أبدياً إلى رقي أرقى على طريقة (اقرأ وأرقَ) فكلّما قطعنا شوطاً إلى الكمال كانت خطانا أقرب إلى منازله العليا (يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ)[22].

المحطّة الثالثة: الجهاد الأكبر

من بوابة هذا المنطلق الواسع والكبير، فإن النظرة التوحيدية الكونية لا تشكّل ركيزة أساسية في المحتوى الداخلي للإنسان المؤمن ما لم تنتقل من دائرة النظرية العقيدية إلى المجال الشعوري الذي يحيلها من مجرد نُظم وقواعد وضوابط، إلى حركة حياة نابضة ملتزمة وهادفة أيضاً، أي إطلاقها من مكمن القوة والإبداع إلى مرحلة الفعل والتمثيل، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال ما اصطلح عليه المربّي الإسلامي بـ (الجهاد الأكبر) وهو جهاد النفس؛ حتى تكون مؤهلةً لاستلام مهمة (الخلافة) في مستوى القاعدة، ومهمة (الشهادة) في مستوى القيادة، وسيتضح ذلك في مطاوي البحث جلياً.

يقول السيد الشهيد (رضي الله عنه): ((وقد استطاع الإسلامُ ـ بعملية التحرير من الداخل وبتحقيق متطلبات الجهاد الاكبر ـ أن ينبّه في النفوس الخيرة كلَّ كوامن الخير والعطاء، ويفجّر فيها طاقات الإبداع على اختلاف انتماءاتها الطبقية في المجتمعات الجاهلية، فكان الغني يقف إلى جانب الفقير على خط المواجهة للظلم والطغيان، وكان مُستغلُّ الأمس يندمج مع المُستَغَل في إطار ثوري واحد بعد أن يحقق الجهاد الأكبر فيه قَيمَه))[23].

من هذا الضوء نفهم أن (الجهاد الأكبر) الذي مارسه السيد الشهيد (رضي الله عنه) مع ميدانه الأول ـ نفسه ـ نبّه في هذه النفس الخيّرة كل كوامن الخير والعطاء، وفجّر فيها طاقات الإبداع، التي لسنا بصدد الإشارة إليها أو الإشادة بها، فهي أوضح من أن تذكر.

لكن السؤال هنا هو: ما هي الوسائل الذاتية التي توسّل بها السيد الصدر (رضي الله عنه) ليحقّق قيم الجهاد الأكبر، أو كيف استطاع ان يستخرج من منجمها كنوزَها الدفينة.

إنّ عبادة السيد الشهيد الصدر (رضي الله عنه) وعبوديته لله تعالى يمكن تلمّسها من خلال بعض ممارساته

(22) الانشقاق: 6.

(23) محمد باقر الصدر: الإسلام يقود الحياة. ص29.

العبادية التي تذكّر هنا وهناك، رغم أن الغاطس منها أكثر من الطافي، غير إننا نستطيع أن نفحص ذلك ونستدلّ عليه من خلال الآثار الظاهرة لتلك العبادة وهذه العبودية، وهي الانقياد التام والاستسلام الكامل لإرادة الله سبحانه وتعالى، وتطويع الإرادة الذاتية لتكون تبعاً وصدى وامتثالاً للإرادة الربّانية. ويتجلّى ذلك بالسمع والطاعة لكلّ ما أراده الله ليس من (الإنسان الخليفة) فحسب، بل من (الإنسان الشاهد) أيضاً. وعلى هذا فأمامنا السبل التالية لاستقراء عبودية السيد الشهيد (ﷺ) لله تعالى:

1. إنّ الحقائق الجوهرية التي تُنتج حتمية العبودية للّه سبحانه، كما بسطها القرآن الكريم: هي (الخَلقُ للّه): (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ)[24]، و(الملك للّه): (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)[25]، و(القهرُ للّه): (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ)[26]، و(الأمر للّه): (إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ)[27]، و(الربوبيّة للّه): (بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنْ الشَّاكِرِينَ)[28]، و(العزّة للّه): (فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا)[29].

فكلّ روافد هذه الحقائق، وهي: (الخلق، والملك، والقهر، والأمر، والربوبيّة، والعزّة) تلتقي لترسم لنا صورة النهر الجاري للعلاقة بين الإنسان وخالقه، وتؤكد دواعي عبودية الإنسان لله وحده[30].

فإذا ما عرضنا هذه الحقائق على شخصية سيدنا الشهيد (ﷺ) رأيناه يؤكّد على أنّ:

((من أساليب استنزال هذه القيم والمُثل إلى مستوى المحسوسات هو (التأثير الذهني) عليها باستمرار، حينما توحي إلى نفسك ـ باستمرار ـ هذه الافكار الرفيعة، وحينما توحي إلى نفسك ـ باستمرار ـ بانك عبدٌ مملوك لله سبحانه وتعالى، وأن الله تبارك وتعالى هو المالك المطلق لأمرك وسلوكك ووجودك، وهو المخطط لوضعك ومستقبلك وحاضرك))[31].

إننا هنا لسنا أمام تنظير أو تفسير للعلاقة مع الله سبحانه وتعالى، وإنما إزاء وصفة مجرّبة تتأكد بتكرار عبارة ((حينما توحي إلى نفسك باستمرار)). ولذلك فـ((حلول الإرادة الربّانية محل الإرادة

(24) الأنعام: 102.
(25) الأعراف: 158.
(26) الأنعام: 8.
(27) آل عمران: 154.
(28) الزمر: 66.
(29) النساء: 139.
(30) مؤسسة البلاغ: في العبادة والعبودية والعلاقة مع الله. ص23 وما بعدها.
(31) الموقف: العدد 55، مفاهيم تربوية من وحي فكر الإمام الشهيد الصدر. محمد الحسيني.

الشخصية بحيث تكون إرادة المسلم وجهازهُ الحاكم في شخصيته، ممتثلاً لإرادة الله تعالى التشريعية، ومنسجماً معها))[32]. تشكل عصب الشخصية الإسلامية ومحورها المركزي وعنوانها الأبرز والأهم. وخير ما يجّسد لنا ذلك النص التالي: فعندما ينقل لنا السيد الصدر (ﷺ) حب الإمام علي (عليه السلام) لله تعالى نراه يتغنّى بهذا الحبّ الذي يمثّل أرقى الدرجات، والذي عاش الصدر شخصياً جلواته الآخذة بمجامع القلب، يقول: ((إني ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت الله معه وقبلَه وبعده وفيه، لأن حبّ الله في هذا القلب العظيم استقطب وجدانَه إلى الدرجة التي منعته من أن يرى شيئاً غير الله، فهذا الربط بالله دائماً وأبداً يتجسّد أمام عينيه، لأنه محبوبه الأوحد، ومعشوقه الأكمل... قبلةُ آماله وطموحاته، لم يسمح له بشريك في النظر، فلم يكن يرى إلّا الله سبحانه وتعالى))[33].

وحينما لا يرى العبد المحبّ إلّا الله سبحانه فإنه يكون قد تعرّف على معالم طريق الكمال في الحياة، إذ لا طريق للكمال سواه: ((فهو يرى أن حبّ الله سبحانه وتعالى أساس كلّ كمال.. حب الله هو الذي يعطي للإنسان الكمال.. العزّة، الشرف.. الاستقامة.. النظافة.. القدرة على مغالبة الضعف في كلّ الحالات))[34].

واللافت للنظر انه لا يحدّثنا عن آثار حبّ علي (عليه السلام) لله عزّ وجل دون أن يقدّم لنا الآثار التي لمسها هو شخصياً من جرّاء هذا الحبّ الذي هو أساس الكمال والعزّة والشرف والاستقامة والطهارة والقوّة، فمتى استقطب حبّ الله وجدانَ الإنسان فإنّه ـ كما يرى السيد الصدر (ﷺ) ـ يشغله عن أيّ شيء، فهو أينما توجّه فإنه سوف يرى محبوبه وقبلته وكعبته[35].

ومرّة أخرى ينقلنا السيد الشهيد (ﷺ) من النظرية إلى الواقع، فيقول اثر ذلك مباشرة:

((ونفوس المؤمنين الصالحين الطاهرين الذين نظّفوا نفوسهم من أوساخ هذه الدنيا الدنيّة تجعل من حبّ الله محوراً لكلّ عواطفهم ومشاعرهم وطموحاتهم وآمالهم))[36].

ولسنا بحاجة إلى أن يقول لنا بنحوٍ مباشر: أنا أفعلُ هذا وقد جرّبته شخصياً، وبامكانكم تذوّق حلاوة القرب من الله تعالى واتخاذه قبلةً كما صنعت، فنحن نقرأ في هذه المرآة الكاشفة وجهَ شخصيته

(32) حسين معن: الاعداد الروحي. ص213.

(33) ميثم الجاسم: هكذا قال الصدر (في المحنة وحبّ الدنيا). ص87.

(34) المرجع السابق. ص82.

(35) ميثم الجاسم: هكذا قال الصدر (في المحنة وحبّ الدنيا). ص77

(36) المرجع السابق. ص77.

الناطق بذلك كلّه، ففي مقابل الشعور الاجمالي بالله تعالى والذي يعيشه بعض المؤمنين، هناك، كما يدلنا السيد الشهيد (رضي الله عنه) ((الشعور التفصيلي بالاتصال بالله تعالى)) والذي عاشه بكلّه وجرّبه منذ نعومة أظفاره، فهو في محاضرة (حبّ الدنيا) لم يكن يقدّم محاضرة أخلاقية بحتة، بل قدّم درساً عملياً تستشعر وأنت تستمع إليه نبضات قلب السيد الشهيد (رضي الله عنه) وهي توقّع وتمضي على كلّ كلمة فيه، لنستمع إليه يقول في هذه المحاضرة ـ التجربة المعاشة:

((حالة الاتصال بالله بالرغم من أنها (كمال للإنسان)، هي بحدّ ذاتها (طاقة للنجاح) في خطّ العمل، لأنّ هذا الاتصال بالله سوف يضع قاعدة لأخلاقية الإنسان العامل لا يمكن أن تتكوّن لديه إلاّ إذا كان يعيش حالة الاتصال بالله سبحانه وتعالى عيشاً تفصيلياً، إضافة إلى ذلك فإن هذا الاتصال بالله يجعل الإنسان قادراً على أن يدعو ويترقّب من الله الاستجابة))[37].

أين نجد هذا في تعبيره عن الخط العملي لشخصية السيد الشهيد (رضي الله عنه)؟

نجده في وصفه الدقيق الحيّ للفقيه (محمد بن عمير) تلميذ (حمران) تلميذ الإمام الصادق (عليه السلام)، فيحنما يرسم لنا صورته، فإنه كمن يحمل كاميراه ذات العدسة فائقة الحسّاسية ويعرض على شاشة صافية عاليّة الدقّة نقلاً مباشراً لما (تعرّض) له هذا الفقيه المجاهد من تعذيب وما (عَرَضه) من صمود. فنحنُ لا نستغرق في صورة (محمد بن عمير) ونغفل عن صورة (السيد محمد باقر) الذي أراد أن يصور لنا ذاته من خلال مثال آخر عاش التجربة ونجح فيها.

2. ومن تجلّيات عبوديته لله سبحانه وتعالى إخلاصه الشديد له[38]، فما من عمل قام به، أو أراد القيام به، إلّا وتبيّن، بل وتثبّت سلفاً، أنّ لله فيه رضا، فإذا ما تيقّن من ذلك أمضاه وذهب راشداً مهدياً. ولنأخذ هذه الشهادة ممن عاش في كنفه، وهي شهادة شاهد من أهله.

يقول (الشيخ النعماني)[39] متسائلًا عن السّر وراء عبقرية السيد الصدر (رضي الله عنه) وخلفيّة العمق العلمي والفكري الذي تميّزت به شخصيته، ويعزو ذلك إلى ((الإخلاص المنقطع النظير لله تعالى في طلب العلم والمعرفة، وتسخير ذلك لخدمة الدين الحنيف، والشريعة المقدّسة بنيّة خالصة لا تشوبها مصالح

(37) المرجع السابق. ص51.

(38) يقول (عبد اللطيف الخفاجي) في كتابه (الشهيد الصدر: ثورة شعب ومصير أمة): ((لم نجد في حدود اطلاعنا رجلًا جسّد الاخلاص من غير المعصومين كالسيد الشهيد (قده) حيث تنازل عن موقعه العلمي والقيادي، وانكر ذاته تماماً، وذاب إلى حدّ الفناء في الثورة الإسلامية المباركة وفي قائدها الإمام الخميني (قده) بل أمر اتباعه ومقلديه داخل العراق وخارجه بالذوبان فيها كذلك)). ص61.

(39) مدير مكتب السيد الشهيد وآخر من فارقه.

شخصية أو منافع ماديّة. وبسبب هذا الإنقطاع والإخلاص كانت الرعاية الربّانية تسدّده))[40].

بيد أن السيد الشهيد (ﷺ) يحدّد لنا الإخلاص في صفاء النية التي يريد بها وجه الله في كل عمل يعمله أو قول يطلقه، حينما يحدّد (ﷺ) معالم العمل الصالح في القرآن:

((فالإسلام يهتم بدوافع العمل لا بمنافعه، ويرى أنه يستمد قيمته من (الدوافع) لا من (المنافع)، فلا عمل إلا بنية، وما لم تتوفر النية الصالحة لا يكون العمل صالحاً، مهما كانت منافعه التي تنشأ عنه.. إن الإسلام يريد أن يصنع الإنسان نفسه صنعاً إسلامياً، فهو يتبنى لأجل ذلك تربية هذا الإنسان ويستهدف قبل كل شيء تكوين محتواه الداخلي والروحي))[41].

فإذا أردنا أن نعرف كيف طبّق الشهيد الصدر (ﷺ) ذلك على نفسه، فإننا نقف على الإجابة من خلال بعض الدلائل التي تشير إلى أنه كان يستحضر النية الخالصة المخلصة في كل عمل يقوم به. وبعبارة أدق فإن النية الخالصة كانت حاضرة لديه في كل حركة وسكنة. فعندما دعا (السيد مير محمد القزويني) أحد علماء البصرة الأجلاء لمرجعية الشهيد الصدر (ﷺ) في البصرة التمسه السيد الشهيد (ﷺ) بعدم الدعوة لذلك. ويوم صدر كتابه القيم (اقتصادنا) غلّفت إحدى دور النشر في بيروت الكتاب بغلاف يحمل صورته ونبذة من حياته، فأمر السيد الشهيد (ﷺ) أحد أقربائه أن يتفق مع الموزّع على نزع الغلاف قبل بيعه.

وعندما كتب (فلسفتنا) أراد طبعه باسم جماعة العلماء في النجف الأشرف، بعد عرضه عليهم متنازلاً عن حقه في وضع اسمه الشريف على هذا الكتاب، إلا أن الذي منعه من ذلك أن جماعة العلماء أرادت إجراء بعض التعديلات في الكتاب المذكور، وكانت تلك التعديلات غير صحيحة في رأي السيد الشهيد (ﷺ) فاضطر إلى أن يطبعه باسمه.

غير أن اللافت في الأمر هو تعليق السيد الشهيد (ﷺ) على هذه الحادثة بعد ذلك، بالقول:

((حينما طبعت هذا الكتاب لم أكن أعرف أنه سيكون له هذا الصيت العظيم في العالم، والدويّ الكبير في المجتمعات البشرية مما يؤدي إلى اشتهار من ينسب إليه الكتاب، وكنت أفكر أحياناً فيما لو كنت مطلعاً على ذلك وعلى مدى تأثيره في إعلاء شأن مؤلفه لدى الناس، فهل كنت مستعداً لطبعه باسم

(40) محمد رضا النعماني: الشهيد الصدر: سنوات المحنة وأيام الحصار. ص73.

(41) مجلة الأضواء: العدد الثالث 1404هـ ـ 1984م، مقال (العمل الصالح في القرآن) السيد محمد باقر الصدر. ص20.

جماعة العلماء وليس باسمي كما كنت مستعداً لذلك أولاً؟ وأكاد أبكي خشية أني لو كنت مطلعاً على ذلك لم أكن مستعداً لطبعه بغير اسمي)).

ويشهد له (الشيخ النعماني) بشهادة مماثة يقول فيها: ((وأتذكّر أن السيد الشهيد (رضي الله عنه) حينما أكمل كتابه (الفتاوى الواضحة) وأردنا إرساله إلى المطبعة، كتبتُ على الدفتر الأول منه عبارة (تأليف سماحة آية الله العظمى السيد محمد باقر الصدر)، فلمّا رأى ذلك شطب على عبارة (سماحة آية الله العظمى)، وقال لي: لا حاجة إلى ذلك، قدّمها إلى الطبع بهذا الشكل))[42]. يضاف إلى ذلك رفضه كتابة ترجمة لحياته أو مذكراته حينما طرح عليه (النعماني) ذلك في أواخر حياته تاركاً الأمر إلى دمائه لتترجم حياته ولمن يقوم بذلك بعده، مثلما رفض كتابة هذه المذكرات في وقت سابق، حينما راعى النظرة الحوزوية لمن يعرّف بنفسه على أنه لون من الهوى وحبّ الشهرة، وهو الهارب من كليهما لا يبغي بما يعمل سوى مرضاة الله سبحانه وتعالى فقط لا غير[43].

ولقد وفق الله تعالى كاتب هذه السطور إلى حضور المؤتمر الدولي الأول للسيد الشهيد الصدر (رضي الله عنه) في طهران عام 2000م، وكان أحد المشاركين في المؤتمر شخصية سعودية من الرياض، ذكر للمؤتمرين أنهم حينما قرروا فتح بنك لا ربوي في الرياض اعترضتهم عدة أسئلة وإشكالات كانوا يبحثون عن الإجابة عنها قبل افتتاح البنك، وقد عرضوها على عدد من علماء السعودية والأزهر فلم يجدوا من يجيب عنها إلاّ أن أخبرهم أحد الكويتيين أن عالماً في العراق اسمه السيد محمد باقر الصدر هو الوحيد القادر على الإجابة عن تلك الأسئلة، لاسيما وأنه قدّم اطروحته في البنك اللاربوي في كتابه الموسوم بهذا العنوان، فلمّا راسلوه، أجاب عن اسئلتهم كلّها، ولما قرروا افتتاح البنك طلبوا إليه حضور حفل الافتتاح ليكون هو من يقصّ الشريط ويبارك المشروع، وكانت تلك فرصته في ابراز وجهه العلمي وقدرته الفقهية ومكانته الفكرية، لكنّه آثر ارسال تلميذه المرحوم السيد محمود الهاشمي بدلاً منه.

هذه الشواهد الملتقطة من سيرة سيدنا الشهيد (رضي الله عنه) تكشف عن سرّ من أسرار عظمة هذا الرجل الذي بلغ شأواً بعيداً من الشهرة، لكنّه آثر أن يبقى في الظلّ طامحاً لأن يراه الله فيقدّر عمله ويشكر سعيه، لا أن يثني الناس على منجزاته الكبرى، والتي لو كان واحداً منها عند غيره لأكسبه شهرة عريضة ولمُلئ زهواً وغروراً. إن عبارته ((وأكاد أبكي خشية أنّي لو كنت مطلعاً على ذلك، لم أكن مستعداً

(42) النعماني: الشهيد الصدر: سنوات المحنة وأيام الحصار. ص73-72.

(43) هذه المصاديق الدالّة على خلوص نية السيد الشهيد (رضي الله عنه)، هي من كتاب (الإمام الشهيد محمد باقر الصدر ـ دراسة في سيرته ومنهجه) لـ(محمد الحسيني). ص 74ـ75. وكتاب (مباحث الأصول). ص45.

لطبعه بغير اسمي)) تكفي كدلالة قاطعة على أنّ همّه كان منصبّاً على غير ذيوع السمعة وانتشار الصيت وحبّ الظهور وما يراد به وجه الناس وحطام الدنيا، وإن قلبه كان مشغولاً بما هو خير وأبقى.

ولكن السؤال الأهم هنا هو: كيف استطاع السيد الشهيد (ﷺ) أن ينكر ذاته لهذه الدرجة من الخلوص؟ وكيف تمكّن من الاندكاك بهدفه ـ مرضاة الله ـ كل هذا الاندكاك؟

إنه يختصر علينا الطريق في الإجابة عن هذا السؤال حينما يقول: ((ليس معنى ذلك أن يُمحى (حب الذات) من الطبيعة الإنسانية، بل إن العمل في سبيل تلك القيم والمثل هو تنفيذ كامل لإرادة حب الذات، فإن القيم بسبب التربية الدينية تصبح محبوبةً للإنسان ويكون تحقيق المحبوب بنفسه معبّراً عن لذة شخصية خاصة، فتفرض طبيعة حب الذات بذاتها السعيَ لأجل القيم الخلقية المحبوبة تحقيقاً للذة خاصة بذلك))[44].

ولنا أن نتصور مدى سعادة السيد الشهيد (ﷺ) وهو يعيش الذوبان التام بمحبوبه، حتى أنه كلما بذل أكثر، عاش السعادة أكثر وعاش القرب أكثر، وتلك لعمري لذة لا يعيشها إلا الخلّص من المؤمنين الذين ذابوا في ذات الله فعظم في أنفسهم وصغر ما دونه في أعينهم.

3. وثمة أصل بالغ الأهمية من أصول عبادة السيد الشهيد (ﷺ) ولعلّه من مختصّاته التي يتفرّد بها، وهو (مسلك حقّ الطاعة) وهو أصل علمي يحكم به العقل ((ومفاده أنّ كلّ تكليف يحتمل وجوده، ولم يثبت إذن الشارع في ترك التحفّظ تجاهه فهو (منجّز)، وتشتغل به ذمّةُ المكلّف، ومردّ ذلك إلى ما تقدّم في أنّ حق الطاعة للمولى يشمل كلّ ما ينكشف من التكاليف ولو انكشافاً ظنّياً أو احتمالياً))[45].

ويفسّر لنا السيد (فاضل النوري) هذا المسلك العرفانيّ بقوله: ((نقصد في هذا المسلك أن المولوية الذاتية الثابتة لله سبحانه وتعالى لا تختص بالتكاليف المقطوعة، بل تشمل مطلق التكاليف الواصلة ولو احتمالاً، وهذا من مدركات العقل العملي، وهي غير مبرهن عليها، فكذلك حدوده سعة وضيقاً))[46].

وبهذا يكون السيد الشهيد (ﷺ) قد وسّع من قاعدة التكاليف لتشتغل ذمّته بـ(الظنّي) منها ولا تكتفي بـ(القطعيّ) الذي تنشغل به ذمة العامّة من المكلّفين، الأمر الذي يعني ـ في وجهه الآخر

(44) محمد باقر الصدر: فلسفتنا. ص43.

(45) محمد باقر الصدر: دروس في علم الأصول. الحلقة الثاني. ص186.

(46) فاضل النوري: سبحات روحية. ص120.

ـ العمل بالاحتياطات والمستحبّات العبادية التي يقرّها العقل، وهذا يرشدنا إلى أن مساحة العبودية التي تحرّك فيها السيد الشهيد (ﷺ) وأراد لنا أن نتحرّك فيها ـ واسعة بسعة التكاليف المحتملة وليس المعلومة فقط، يقول (ﷺ): ((إنّ من حقّ الله على الإنسان أن يطيعه في التكاليف المعلومة والمحتملة، فإذا علم بتكليف كان من حقّ الله عليه أن يمتثله، وإذا احتمل تكليفاً كان من حقّ الله أن يحتاط فيترك ما يحتمل حرمته أو يفعل ما يحتمل وجوبه، والصحيح ـ في رأينا ـ هو أنّ الأصل في كلّ تكليف محتمل هو الاحتياط نتيجة لشمول حقّ الطاعة للتكاليف المحتملة))[47].

فإذا ما أردنا أن نستكشف ذلك في شخصية شهيدنا في صدق طاعته لله من خلال التزامه بالتكاليف قطعيّها وظنيّها، معلومها ومحتملها، فإننا يمكن أن نتثبت منه من خلال ((مهابة البارئ وخيفته، واحترامه لحقّ عظمته ومجده، واجلاله لحقّ سلطانه وجبروته، والتعلّق به لحقّ عزّته وقدرته، ومراقبته لحقّ إحاطته وحضوره، وأداء فرائضه كلّها بقدر حقّ مولويته وسيادته، والأمل لرحمته بمقدار الخوف من سطوته، وحفظ حقوق الأهلية بمقدار ذلّ العبودية بين يديه، واحتياجها إليه، والهرب منه إليه بمقدار التوسّل إليه بطاعاته وقرباته، والحذر من الوقوع في خلافه ومعصيته لجبروته وسطوته، وطلب الحضوة لديه بكمال الإنقطاع إليه، ونشدان ما عنده من كرامة الآجلة بروح التقوى والنحافة (الزهد) في العاجلة، ونصرته بتقواه للانتصار بحوله ورضاه، وإقراضه من عطائه وماله للإستغناء بفضله ونواله))[48].

4. ومن بين ظواهر تلك العبادة ـ العبودية، غرسُ وتنمية الملكات النفسية والروحية والتربوية والأخلاقية وتعهدها بالسقاية والرعاية حتى تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربّها. فمن دلالات بناء المحتوى الداخلي الذي يركّز عليه السيد الشهيد (ﷺ) كمصدر أساس من مصادر تربية الشخصية الإيمانية المخلصة التي محورها المركزي إرادة الله تعالى، هو تحويل الأخلاق والفضائل إلى ملكات تستقطب النفس وتتمكن منها حتى لتغدو جزءاً من الكيان لا يتجزأ، بمعنى أنها لا تظهر في أحايين معينة ثم تختفي، ولا تضمر حينا لتنشط حيناً آخر، فهي ليست آنية أو موسمية أو مقطعيّة بل إنها عند سيّدنا الشهيد تعيش الوهج الدائم، لأنه يغذيها بزيت العبودية كلّ آن، لا عندما يوشك سراجها أن ينضب، فهو لا يدعه أن ينضب البتة!!

(47) محمد باقر الصدر: دروس في علم الأصول. الحلقة الأولى. ص251.

(48) فاضل النوري: سبحات روحية. ص124.

ولو وقفنا عند تواضعه وترابيته التي ذكرنا بعضها سابقاً لاستوقفنا هذا التناسب الطردي بين فخامة علم السيد الصدر (رضي الله عنه) وفخامة فكره، وبين تواضعه الشديد الذي يحفظ في تقديرنا توازن الشخصية بين رفعها في أعين الناس درجة، وبين طلب حطّها في ذاتها درجة حتى تتساوى الكفتان.

إننا لو استعرضنا الأخلاق الفاضلة الكريمة الحميدة في دعاء (مكارم الأخلاق) للإمام علي بن الحسين (عليه السلام) في (الصحيفة السجّادية) كقوله (عليه السلام): ((وبلّغ بإيماني أكمل الإيمان، واجعل يقيني أفضل اليقين، وانته بنيّتي إلى أحسن النيّات، وبعملي إلى أحسن الأعمال))[49]، لرأيناها ماثلة في شخصية السيد الشهيد (رضي الله عنه) ليس على مستوى الرجاء والاشتهاء والتمنّي أن يكون كذلك، فهو يفهم ـ كما نفهم نحن أيضاً من سيرته ـ أن هذا الدعاء ما هو إلّا أخلاق ومكرمات يجب من وجهة نظره أن تحلّ به ويحلّ بها لا أن يتحلّى بها، وأن يسعى إليها لا أن يتمناها على الله، وأن يغرسها في أعماق نفسه لتكون هي نفسه، لا لتكون زينة يخرج بها على الناس. فلا بدَّ ـ وهذا هو قراره الذي نستشفّه من استقراء طروحاته ـ أن يكون إيمانه أكملَ الإيمان، ويقينه أفضلَ اليقين، ونيّته أحسنَ النيات، وعمله أحسنَ الأعمال، حتى يكون للمتقين إماما، وللمسيرة رائداً وقائداً، وللمرجعية رمزاً رشيداً صالحاً، وللأمة أسوةً وقدوة حسنة ومثلاً أعلى.

نقل الأخ الدكتور (محمد علي آذرشب) يوم كان مستشاراً للسيد الخامنئي ـ دام ظلّه ـ لصاحب الكتاب: أن السيد قال ذات مرّة انه قرأ سيرة وصفحات مراجع الشيعة وفقائهم منذ الغيبة الكبرى وليومه، فلم يرى شخصية علمية في قامة ومقام السيد الشهيد. وهذا شبيه بما قاله الراحل (الشيخ محمد جواد مغنية) من أن الغيبة الكبرى لم تشهد شخصية أعلم من السيد الصدر بعد الإمام الحجّة (عليه السلام)!

وينقل الإعلامي الجزائري (يحيى أبو زكريا) انه التقى بـ(السيد كاظم الحائري) و(الشيخ محمد مهدي الآصفي) و(الشيخ الناصري) و(السيد محمد باقر الحكيم) وسألهم عن السيد محمد باقر الصدر (رضي الله عنه)، فأجمعوا انه عبقري من طراز أساطين علماء آل محمد الكبار.

فلو بحثنا لهذه المواصفات عن موصوف، ولهذه المعالم والملامح من وجه، ولهذه الأخلاق عن مثال، لكان الصدر الشهيد(رضي الله عنه) موصوفها، ووجها، ومثالها غير المعصوم. ومثلما اننا نجد لصفات المتقين في الخطبة المعروفة في (نهج البلاغة) مصداقاً حيّاً في سيدنا الصدر (رضي الله عنه) فإننا كذلك نجده(رضي الله عنه) نموذج الإنسان القرآني في صفات المؤمنين التي أشاد بها الكتاب المجيد، وفي التلبية (من لبيك) الدائمة

(49) الصحيفة السجادية: طبعة سفارة الجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق. ص81.

والسبّاقة الملتهفة للانفتاح على النداءات التي يستهلها الذكر الحكيم بـ(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ).

ولم يكن السيد الشهيد (رضي الله عنه) متواضعاً في ذاته فقط، بل كان يريد حتى لزوجته العلوية أم جعفر أن تعيش التواضع في ذاتها، فلقد دخلت عليها ذات يوم زوجة أحد التجّار بملابسها وزينتها الفاخرة، ولما رأت السيدة أم جعفر في لباس متواضع سألتها: أين السيدة؟ تقصد سيدة البيت؟ فأثرت الكلمة في نفسها، وحينما نقلت ذلك إلى السيد أبي جعفر، قال لها: يا أم جعفر، (السيدة) التي كانت تدبرُ وتُدير بيت علي (عليه السلام) ـ ويقصد فاطمة الزهراء (عليها السلام) ـ فطيّب خاطرها بهذه اللفتة البارعة الذكية.

إن الصدر الكبير يقول لنا في ذلك كلّه، إن ما بدا للناس ـ في أوقات الجفاف الروحي ـ متعذراً أو صعب التحقيق والمنال هو ـ ومن خلال تجربة عرفانية معاشة ومثابرة ـ في دائرة الإمكان والتجسيد، وان أخلاق الله، وأخلاق القرآن، وأخلاق الأنبياء (عليهم السلام) وأخلاق المعصومين (عليهم السلام) ليس فيها من التصوّف والرهبنة أو التجمّل المثالي المحض شيء، وإنما هي قواعد ثابتة راسخة، ومنهاج قويم سليم لصناعة الإنسان الخليفة ـ في المستوى العام ـ والإنسان الشاهد ـ في المستوى الخاص ـ وبالتالي فإن تقديمَ نفسه (رضي الله عنه) كبرهان وشاهد ونموذج، يفتح الطريق واسعة أمام بناء شخصيات مماثلة أو قريبة الشبه، ما توافرت على ما توافر عليه سيدنا الشهيد. فالوصفة ليست حكراً على مؤمن دون مؤمن، ولا عالم دون عالم، ولا مجتهد دون مجتهد، ولا على عارف دون عارف، بل لعلّ الغاية المرجوة منها هي أن تتوسع قاعدة النماذج الأسوة التي تربّت على أيدي أساتذة أفذاذاً صنعت تلامذة أفذاذ يُلوّنون الحياة بحدائقَ ذات بهجة، نستروح فيها عبق المكرمات، وأريج الفضائل، وضوعَ الأخلاق.

الصدرُ الكبير (رضي الله عنه) يقول لنا، وبوحي من سيرته الربّانية الحافلة إن (الحظّ) في قوله تعالى: (وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)[50]، حظّ مصنوع ومكتسب ومعد إعداداً تربوياً عالياً، أي تنسجه التربية الواعية العارفة على نول الحبّ الإلهي، وليس حظاً مستنزلاً موهوباً إلّا بقدر ما يكون مصداقاً لقوله تعالى: (وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ)[51]، فالمبادأة والمبادرة من العبد، ثم تتنزل (الرحمة) و(السكينة) و(الملائكة) بالنصرة والإمداد، والتأييد والتسديد والهداية إلى السبل من ولي الإنابة وأهل التوفيق والإحسان (جل جلاله).

(50) فصلت: 35.

(51) البقرة: 282.

ولنا أن نستشف أيضاً أن تعاطي الصدر (رضي الله عنه) مع هذه الوصفات الناجعة ليس ابنَ سنوات معدودات، وإنما هو مما نبت عليه اللحم والعظم والعصب، وقوي عليه الجناح، واستقام عليه العود، واستغلظ عليه الذراع، أي انها ما كانت لتستحيل إلى ملكات ما لم يمكّن هو نفسه منها، على درجة من التسليم المطلق والانقياد التام لكلّ فضيلة، فلكي يكون شخص ما مجمعاً للفضائل فإن ذلك يستبطن ـ بالضرورة ـ جهوداً شاقّة مضنية، ورياضات صعبة طويلة، ويقينا ثابتاً، وصبراً جميلاً، وثقة عميقة. السيد الصدر بهذا التعريف أو التوصيف صناعة ذاتية تكلّلت بتوفيقات وتسديدات ربّانية، حتى ليمكننا القول ان ما من صفة من صفات الأنبياء (عليهم السلام) التي ذكرها القرآن إلا وللسالكين منها نصيب كلٌّ حسب سعيه وسعة إنائه.

ولنا أن نقول باطمئنان ان السيد الشهيد (رضي الله عنه) لم يتعاط مع الحديث الشريف ((الفقهاء أمناء الرسل))[52]، على نحو استيراث الموقع إسما دون أن يخلع عليه الكثير من الخصال الحميدة النابضة التي تحفظ له قداسته وامتداده، بل وعلو شأنه في نظر الأمة التي تمتلك حساسية شديدة إزاء ذلك، حيث المقارنة الضرورية بين (الرسل) وبين (أمنائهم) وبين من جسّد حقيقة (الأمانة) وبين من يفكّر بالتركة كموقع وكعنوان، وربما كغنيمة.

وفي السياق نفسه، فإن صدرنا الشهيد (رضي الله عنه) لم يقف على قول الإمام المنتظر (عج) ((فهم حجّتي عليكم)) عند مجرّد اعتبار رواية الأحاديث والوساطة في النقل، إنما من خلال الشروط الصارمة التي وضعها الإمام لمن لم يتبوأ هذه المكانة ـ المسؤولية العظمى: ((حافظاً لدينه، مخالفاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه))[53].

إن فتىً صغيراً قرّر ـ منذ البدء ـ أن يتحمّل أعباء المهمة الصعبة بنفس راضية بكلّ ما يترتب عليها[54]، وهذّب تلك النفس لتكون كبيرة منذ صغرها، لا يمكن إلّا أن يكون (محمد باقر الصدر) الذي عشنا وسمعنا وقرأنا عنه، بل ودهشنا ـ وإن كانت الدهشة تلقائية ـ لمرأى تلميذ المدرسة الإمامية البارّ كيف يكون إنساناً كاملاً!

إن النص التالي يعرّفنا بحقيقة هذا العبد الصالح المطيع لأمر مولاه. يقول (رضي الله عنه): ((أليس هناك أشخاص من الأولياء والعلماء والصديقين قد استطاعوا أن يبصروا محتوى هذه القيم والمثل بأم أعينهم،

(52) الكليني: أصول الكافي. ج1. ح5. ص46.

(53) باقر المجلسي: بحار الأنوار. ج1. ص90. ب1. ح17.

(54) راجع: (الشهيد الصدر: سنوات المحنة وأيام الحصار) لـ(محمد رضا النعماني). ص44، فلقد أضرب عن الطعام وهو ابن العقد الواحد ليؤكد لأهله أنه مصمم على أن يشقّ طريقه بنفس عصامية.

ولم يستطيعوا أن يبصروها بأم أعينهم إلّا بعد أن عاشوها تفصيلياً مع الالتفات التفصيلي الكائن، وهذه عملية شاقّة جداً))[55].

مرّة أخرى نؤكد أن الصدر (ﷺ) ليس هنا في موقع التقرير النظري، إنما هو في معرض المعايشة الفعلية، فعبارته (وهذه عملية شاقّة جداً) لم ينقلها عن العارفين السالكين الكادحين إلى الله كدحاً، إنه يُشعرنا بما عاناه وكابده وقاساه شخصياً، وانتهى إلى أنّ عملية رؤية القيم والمثل، كما لو كانت أشياء مجسّدة، ليست تمريناً رياضياً سهلاً، نعم هي شاقّة لكنها ممكنة وميسورة وشيّقة أيضاً لمن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا.

المحطّة الرابعة: نفض اليد من الدنيا

ومن بين مصاديق عبوديته المخلصة لله زهده في هذه الحياة الدنيا. ولأجل أن نتعرّف على أثر الزهد في بناء أخلاقية الصدر علينا أن نقف أولاً على هذه الحقائق الخاصّة بالزهد، لنتبيّن من خلالها كيف يكون الزاهد في المفهوم الصحيح للزهد[56]:

1. ((إنّ الزاهد في تفسيره للزمن وعلاقة قضايا الحياة به (أي بالزمن)، من مال وسلطة، وقوة، ومُتع، ولذّات.. الخ، يدرك أن هذه الموجودات بحكم ارتباطها بالزمن، كغيرها من حقائق الوجود الأخرى ـ تخضع لقانون الحدوث والتكوّن والزوال، فهي حركة نحو الفناء، ووجود يتابع خطوات الانتقال على جسر العبور إلى هاوية العدم، وطبيعتها الفانية هذه لا تقنعه بالارتباط المصيري بها، ولا يتعامل معها إلّا بقدر ما يحتاجه وجوده الآني في اللحظة الفاعلة منها، فهي لا تصلح أن تكون جزءاً، أو غاية عنده، ما دام مصيرها الفناء، ووجودها حثيث السير نحو التلاشي والانتهاء. لذا فهو يلغي ارتباطه المصيري بهذه الفانية، ويتجه نحو غاية أسمى، وهي غاية الخلد والبقاء، فيربط مصيره ووجهته بها (يا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ)[57].

2. ((ينطلق الزاهد في فهمه وتقويمه للنزوع، أو الرغبة في موضوعات الحياة، من وعي استبطاني عميق، يضع بين يديه تفسيراً لنوازعه ورغباته فيما يجد نفسه مدفوعاً نحوه، ومستجيباً له، فهو يثمنه، ويعطيه قيمته الحقيقة، ولا يسمح لهذا النزوع أن يقوده إلى التفريط، أو الاستغراق بلا حدود في طغيان هذا العالم الذي خاطب الإنسان بلغة الاغراء، وينصب له شراك الاستحواذ، والاحتواء الكامل).

(55) محمد باقر الصدر: أهل البيت ـ تنوّع أدوار ووحدة هدف. ص53.

(56) هذه الحقائق مقتبسة عن كتاب (في العبادة والعبودية والعلاقة مع الله) الصادر عن (مؤسسة البلاغ) ـ طهران 1418هـ ـ 1997م.

(57) غافر: 39.

من هاتين الحقيقتين يمكن الخلوص إلى أن ((الزهد هو التحرّر الداخلي من قيد الشهوة والهوى، والانعتاق النفسي الحقيقي من الدنيا ومعانيها، وهو بذلك سبب ونتيجة في آن واحد للانقطاع إلى الله، والارتباط بالسماء، أو بالأحرى العبودية الكاملة لله في المشاعر والعواطف والسلوك. وهذا التحرّر الذاتي المتمثّل بالزهد هو وحده الذي يمكّن الإنسان من تذوّق حلاوة الإيمان، والأنس بالله، والتعالي على صغائر الحياة))[58].

من كلّ هذه المداخل المهمة والمعينة على مهمتنا نلج إلى شخصية السيد الشهيد (ﷺ) الزاهد، لنتعرّف عن كثب كيف لعب الزهد في حياته دور التضامن مع عناصر أخلاقه الأخرى ليخلق هذه النفس المطمئنة الكبيرة. هذه أولاً: إضاءات سريعة على زهده: فنحن نراه لم يملك منذ أن لمع نجمه في مدرسة النجف وحتى التقى ربه شهيداً سوى ما يقتات به ليومه. فزواجه من ابنة عمه كان من موقوفة خصّصت لتزويج السادة، وأداؤه فريضة الحج كان بحقوق طباعة كتابه (فلسفتنا). ولعلنا نتلمس خيوط أو خطوط زهده منذ بداياته الأولى، فلقد أضرب في العاشرة من عمره عن الطعام مكتفياً بكسرة خبز ليثبت لأهله أنه قادر على مواصلة حياته كلها على هذه الشاكلة، وهذا المشهد يتكرر ليؤكد أن السيد الشهيد (ﷺ) كان قد اكتفى ـ كأستاذه علي (عليه السلام) ـ من طَعمه بقرصيه.

فخادم السيد (ﷺ) يدخل عليه ـ ذات يوم ـ فيراه يأكل خبزاً يابساً، وكان ذلك في الظروف الاعتيادية. أمّا في ظروف المحنة والحصار فكما ينقل مدير مكتبه (الشيخ النعماني) أنه عندما رآه يتناول الخبز اليابس أسف لذلك، مما دعا السيد الشهيد (ﷺ) أن يقول له: ((إنه أطيب طعام ذقته في حياتي لأن فيه رضا الله))!

هذه المشاهد الثلاثة تعني أن زهد (الصبي) محمد باقر وزهد (المرجع) محمد باقر وزهد (المُحاصر) محمد باقر زهدٌ واحد، وإنما هي نفسُه يروّضها، حتى إذا ضاق الخناق عليها لم تشعر به، بل تستشعر ـ على خلاف ذلك ـ لذة غير متصورة. فهناك من المسرّات الروحية التي كان الإمام الصدر يحياها بجهاده الأكبر ما لا نقدر على توصيفه.

وحينما نراه في أوقات اليُسر يقول لطفلته التي كانت تنظر إلى أموال الحقوق: ((إنّ هذه الأموال ليست لنا وإنما هي أمانة عندنا ترجع إلى المسلمين، ولا يمكننا التصرّف بها كيفما نشاء وأنّى نشاء)). فإننا لا نستغرب ـ في وقت العسرة ـ فترة الحجز، أن يسلّم ما بحوزته من أموال الحقوق إلى أحد العلماء،

(58) حسين معين: الإعداد الروحي. ص187-186.

ويقول: ((أحبُّ أن القى الله تعالى وأنا كذلك لا شي في ذمّتي، أما رزقنا فإن الله يكفينا وهو ولينا)).

بل نجد أن ربّي نفسه على الزهد منذ مطلع العلميّة فلا يأخذ من الحقوق إلّا حاجة يومه، وأنه يرفض الهدايا المقدّمة إليه، بل ويحثّ المُهدِين على انفاق أموالهم فيما ينفع الأمة ويبقى ذخراً لهم، كبناء المدارس والمساجد والمؤسسات الاجتماعية. ويقدّم بعض ما يهدى إليه إلى طلّابه، فلقد عرض عليه المُحسن الراحل (الحاج كاظم عبد الحسين الكويتي) (رحمه الله) داراً من أموال خاصّة، فقال: ((إذا اشتريت هذه الدار فإني سوف أوقفها لسكن الطلّاب، ولن أمتلك داراً حتى يتمكّن كلّ الطلبة من شراء دور لهم، وحينئذ سأكون آخر من يشتري))! ويعلّل رفضه للدار في عرض آخر، فيقول: ((.. أعتذر عن هذا التبرّع لشراء دار، لأني لا أشعر بحاجة إلى الأخذ من هذه الدنيا الّا بمقدار يوفر ليس الاستقرار اللازم لممارسة المسؤوليات الدينية، وهذا ما يحصل في بيت الإيجار المناسب.. إلى أن يقول: وما أصنع بفدك وغير فدك والنفس مضانّها إلى جدث)).

بل إن الأمر تعدّى شراء الدار إلى شراء الفاكهة، فكان يرفض شراءها قائلاً: ((يجب أن ننتظر إلى الوقت الذي يتمكّن جميع الناس من شرائها)).

ناهيك عن بساطة مبلسه وكيف كان يرفو ملابسه المرقّعة بيده، هذا في حين كان يهتم برعاية تلامذته وتلبية احتياجاتهم ويؤثرهم على نفسه، فإذا اهديت له عباءة اهداها لتلميذ فقير الحال متعفّف، بل أن الشيخ (أديب حيدر) ابن اخت (زيد حيدر) عضو القيادة القومية لحزب البعث، نقل لكاتب السطور أيام مؤتمر الشهيد الصدر (رضي الله عنه) انه (رضي الله عنه) كان يوفده إلى خاله لقضاء بعض حوائج الحوزويين، وقال له مرّة خذ هذه عشرة دنانير اشترِ بها عباءة جديدة واذهب إلى لقاء خالك، فهؤلاء أهل الدنيا ينظرون إلى مظهر الإنسان.. والأمثلة بعد ذلك كثيرة ومنشورة ومشهورة، وإنما أردت ان استدلّ بهذا القدر منها لأخلص إلى ما يلي:

لم يكن الزهد عند الشهيد الصدر (رضي الله عنه) شعاراً، أو مفارقة بين واقع داخلي يزهد بالزهد، وبين مظهر متقشّف يشتري به ثمناً قليلاً من إعجاب الناس وثنائهم، بل كان من جنس زهد علي (عليه السلام): ((أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ: أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلاَ أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ، أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ!)، ((أَلاَ وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ.. وَمَا أَصْنَعُ بِفَدَك وَغَيْرِ فَدَك، وَالنَّفْسُ مَظَانُّهَا فِي غَد جَدَثٌ))[59]. إنها تربية باتجاهين:

(59) هذه مقاطع وردت في (نهج البلاغة) من كتاب له (عليه السلام) إلى عامله على البصرة (عثمان بن حنيف الانصاري). ص357. طبعة المستشارية الثقافية الايرانية بدمشق.

الأول: (الذات) لصهرها في بوتقة العشق لرضا الله ولما عند الله من الباقيات الصالحات، والانصراف عن الدنيا ومتعها الزائلة الحقيرة انصراف وعي وتأسٍّ وضرورات يفرضها الواقع الديني والاجتماعي.

الثاني: (الأمة) لاسيما مفاصلها المتحركة: علماء وعاملين ليتأسى بهم ضعفة الناس، فالكثير من طلبة العلوم الدينية ـ يومذاك ـ وهم الشريحة الألصق به، كانوا يعانون شظف العيش، فكان من أبلغ دروس التربية وأوقعها في النفس مواساتهم فيما هم فيه، وهذا ما نلاحظه في مقولاته المتكررة: كيف أصنع هذا وفي الطلبة من لا يملكون قوت يومهم؟!

لقد عبّر (ﷺ) عن هذه المواساة في أكثر من مناسبة تأكيداً وترسيخاً لنهج كان يبذل قصارى جهده من أجل أن يعود ليطبع حياة العلماء به، كما طبعها في سني النشوء والإندكاك والتسامي. وأجلى ما عبّر به عن ذلك قوله: ((يجب عليّ وأنا في هذا الموقع ـ يعني المرجعية ـ أن أكون في مستوى العيش: بمستوى الطلبة الاعتيادي))[60].

ومثله قوله: ((لا أرضى بشراء الفواكه مهما كان المبرر، حتى لو كان ذلك من أجل الضيوف، ويجب علي أن أنتظر إلى الوقت الذي يتمكن جميع الناس من شرائها))[61].

ونحن نعلم أن في الطلبة، فضلا عن أساتذة الحوزة، من كان ميسور الحال منعّمه، لكن صدرنا الشهيد (ﷺ) كان ينطلق من قياسه نفسه بضعفة الطلبة ومعدميهم، وهم يومذاك الأغلبية الساحقة.

ولقد ((كان خادمهم يمضي إلى السوق في حاجاتهم ووصيتهم ترنّ في أذنه اشتر لنا من الأشياءأوساطها))[62]. وكان يرتدي قبائين ((اعتقب عليهما ـ وهو يلبسهما - إثنا عشر عاماً لم يستبدل بهما غيرهما، وأظنه نال الشهادة وهو يرتدي أحدهما، عازفة نفسه عن الألبسة كما عزفت عن تخير الأطعمة))[63]. وكان أن أهديت اليه عباءة ثمينة فطلب أن يقدّر ثمنها بما يساوي ما يلبسه هو شخصياً من عباءة، ثم طلب توزيع الثمن على المحتاجين من الطلّاب.

بل إننا نجده يمازج بين زهده وتواضعه ليعتبر ذلك سمة من سمات طلبة العلوم الدينية ككل، فحينما يأتي الدكتور (محمد شوقي الفنجري) لزيارته في النجف يدهش لسرعة اللقاء بسماحة المرجع

(60) محمد رضا النعماني! الشهيد الصدر: سنوات المحنة وأيام الحصار ص 114.

(61) المرجع السابق. ص 114.

(62) فاضل النوري: سبحات روحية. ص 41.

(63) المرجع السابق. ص43 - 44.

الكبير، فيقول له معبراً عن هذا الإندهاش ((كنت أقول لنفسي كم علي أن أنتظر حتى أحصل على موعد خاص للقائكم، بل هل يمكن أن يتحقق ذلك؟ أما أن آتي إلى النجف وألتقي بكم بهذه البساطة وخلال عشرة دقائق، فهذا ما لم يكن يخطر ببالي))[64].

ولسنا بواجدين أية غرابة في ذلك، لأننا نعرف جيدا تربية السيد الشهيد (ﷺ)، لكننا ندهش حقاً حينما نستمع إلى تعليقه على هذه البساطة فى العيش وفي التقاليد، فلقد حدّث سماحته (الفنجري) عن حياة الطلبة والعلماء في النجف الأشرف، وما تتسم به من بساطة وتواضع وزهد في المظاهر، والزخارف، حيث قال: ((أنا أحد هؤلاء الطلبة، وهذه هي حياتنا))[65].

فهو لم يقل هذه هي حياتي، وهي حياته حصراً، ذلك أنّك يندر أن تجد في الأوساط العلمية والحوزوية يومذاك تواضعاً كتواضعه، وزهداً كزهده، وإن كانا فبنسبٍ متفاوته لا ترقى إلى ما كان الصدر الشهيد عليه منهما.

غير أن تثميننا لزهد السيد الشهيد (ﷺ) ناشئ من أنه لم يكن من موقع (مكرهاً أخوك لا بطل) أي لم يكن زهده وليد فقر مدقع، ولا حياة متقشّفة بطبيعتها، ولا هو زهد بالفتات والترهات، وإنما هو زهد واعٍ بالمغريات والمناصب والجاه والأموال وكل ما يأسر الإنسان ويركعه وينقصُ من قدره أو يذلّه. يقول (النعماني) وهو من خبر زهد الصدر عن كثب ((لم يكن الصدر يتزهّد في حطام الدنيا، لأنه لا يملك شيئاً منها، أو لأنه فقد أسباب الرفاهية في حياته فصار الزهد خياره القهري، ولو كان كذلك لأغفلت الكتابة عن هذا الجانب من حياته، بل زهد في الدنيا وهي مقبلة عليه، وزهد في الرفاه وهو في قبضةيمينه، وكأنه يقول: يا دنيا غري غيري))[66].

فحينما يطلب منه رئيس الجمهورية العراقية الأسبق (أحمد حسن البكر) عبر مندوبه الخاص (فاضل البراك) أن يؤلف كتاباً علمياً قيّماً ويسميه باسم البكر مقابل مبلغ من المال يحدده السيد الشهيد، وأن ذلك سوف يحقّق له موقعاً خاصاً عند (القيادة السياسية آنذاك) نرى السيد الصدر (ﷺ) يرفض ذلك، وهو يعلم أن رفضه طلباً كهذا لرئيس الجمهورية ربما يكلّفه حياته. لكنه في موقفه هذا يزهد باثنتين: بالعرض السخيّ الذي يراه تافهاً لا قيمة له، وبالحياة يراها موقفاً مشرفاً، وأن نهايتها بالموقف المشرف لهي أسعد النهايات على الاطلاق.

(64) محمد رضا النعماني: سنوات المحنة وأيام الحصار. ص 66.

(65) محمد رضا النعماني: سنوات المحنة وأيام الحصار. ص66.

(66) المرجع السابق. ص112.

وعلى ذلك فإن الرفض مدروس من جهته بعناية، وهو محصلة طيبة من محصلات زهده الرائع الذي يقيّمه (النعماني) بقوله: ((أعتقد أنه استهدف بزهده أيضاً ما هو أكبر من مسألة تربية النفس وتطهيرها، إنه أراد أن يجسّد النموذج المثالي للمرجع الرباني، وينشئ مرجعية ترابية زاهدة تجسد مفهوم القيادة العلوية المضحية التي تكتفي كما كان علي (عليه السلام) يفعل، فكانت سيرته وسلوكه أبلغ بطمرين وقرصين، كما كان الإمام علي (عليه السلام) يفعل، فكانت سيرته وسلوكه أبلغ، داع للاسلام، ومبلغ له.

لقد أدرك الشهيد الصدر (رحمه الله) أن المرجعية بما هي كيان قيادي للمسلمين مستهدفة من قبل السلطة الحاكمة، في ظرف كانت تواجه فيه انتقادات خطيرة من بعض قواعدها الشعبية يتعلق ببعض القضايا المادية، فكان لا بدَّ من حمايتها، لأن في ذلك حماية للإسلام، فكان الهدف إذن هو الدفاع عن الإسلام. فهو زهد جمع بين حسنتين: التقرب إلى الله تعالى بذات الفعل، والدفاع عن دينه بتجسيده سلوكياً))[67].

وقبل أن نختم هذا المقطع الذي أفضنا فيه عن زهد صدريّ معهود ومشهود، لا بدّ لنا من أن نشير إلى أنّ برنامجاً في إحدى الفضائيات العراقية تحدّث فيه أحد أيتام وأزلام نظام صدام عن انهم كبسوا بيت السيد الصدر (رضي الله عنه) بعد مقتله فوجدوا فيه (تنكات) من الذهب والعملات الأجنبية المختلفة، الأمر الذي يريد ذلك الوجه من وجوه السلطة القبيحة الإساءة فيه لرجل زهد بالدنيا وكان يكدّس الأموال في بيته، فإذا كانت تلك حقوق الناس، فيكف تركها من غير إيصالها إلى المراجع الآخرين ليتصرّفوا بها وهو على علم بنهايةٍ مقررة من قبله قبل أن تكون قد قُررت من قاتله، وقد ردّ الشيخ النعماني على هذا الافتراء رداً منصفاً مسجّلاً ومصوّراً.

نظرة تأملية في عباداته:

سبقت الإشارة إلى أننا لا نملك اطلاعاً تفصيلياً على عبادات شهيدنا العظيم، والقليل الذي نمتلكه منها ـ على الرغم من قلته ـ موحٍ ومعبّر وذو دلالة واضحة على أن هذه النفس الإسلامية الإيمانية التي تعمر بالقيم هي وليدةُ بناء تربوي غاية في المتانة، ولئلا تسبق النتيجة التحليل والبرهان، نلتقط من عباداته (رضي الله عنه) ما كان ظاهراً منها:

فلقد كان (رضي الله عنه) ((يهتم في هذا الجانب بالكيف دون الكم، فكان يقتصر على الواجبات والمهم من المستحبات، وكانت السمة التي تميّز تلك العبادات هي الانقطاع الكامل لله، والإخلاص والخشوع. قال تعالى (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ).كان (رحمه الله) لا يصلّي، ولا يدعو ولا

(67) محمد رضا النعماني: سنوات المحنة وأيام الحصار. ص112.

يمارس أمثال هذه العبادات إلا إذا حصل له توجه وانقطاع كامل، وكان متكتّماً على أمره هذا، ومتخفياً في عبادته، ولا يعرف أقرب الناس إليه منه شيئاً عن هذا الأمر))[68].

ففي هذا النص الشهادة من لدن مقرّب لسيدنا الشهيد يتجلى واضحاً أنه! حكم عباداته أو تحكّم بها من خلال مبدأين كبيرين وهما: (الإخلاص) حيث الانقطاع الكامل لله تعالى إرادة لوجهه الكريم، والتكتم والتخفي فراراً من الرياء والسمعة. و(الخشوع) حيث لا ممارسة للعبادة إلا مع حصول التوجه والانقطاع، وهو ما سنلمسه في عباداته كلها وليس في الصلاة وحسب.

وهذان المبدءان هما في الحقيقة مبدأ واحد، أو لنقل إنهما سبب ونتيجة، فالخشوع مظهر من مظاهر الإخلاص، والإخلاص هو أسّ من أسس الخشوع، ولذلك فالتلازم أو الترابط الجدلي بينهما قائم محكم حتى لا يمكن الفصل بينهما، إذ كيف إخلاصٌ تام ولا خشوع معه؟ وكيف خشوعٌ حقيقيّ ولا إخلاص معه؟!

يقول (النعماني) الذي شهد صلاة الصدر اليومية طوال المدة التي أقامها معه: ((كنت أتربص الفرص لأصلي خلفه جماعة في البيت، فكان في أحيان كثيرة يجلس في مصلاه، فكنت أجلس خلفه، وقد دخل وقت الصلاة، بل قد يمضي على دخول وقتها أكثر من نصف ساعة والسيد الشهيد جالس مطرق برأسه يفكّر، ثم فجأة ينهض فيؤدي الصلاة)). وعند السؤال عن سبب ذلك يجيب (ﷺ) قائلاً:

((إني آليت على نفسي منذ الصغر أن لا أصلي إلا بحضور قلب وانقطاع، فأضطرّ في بعض الأحيان إلى الانتظار حتى أتمكن من طرد الأفكار التي في ذهني حتى تحصل لي حالة الصفاء والانقطاع، وعندها أقوم إلى الصلاة))[69].

ويعقّب (النعماني) بالقول: ((ولم تكن هذه الحالة خاصة بالصلاة فقط، بل كانت تمتد إلى كل أشكال وصور العبادة الأخرى)). فعن قراءته للقرآن، يقول: ((سمعته يقرأ القرآن في أيام وليالي شهر رمضان بصوت حزين وشجي ودموع جارية يخشع القلب لسماعه، وتسمو النفس لألحانه، وهو في حالة عجيبة من الانقطاع والذوبان مع معاني القرآن)).

ويذكر صورة عن انقطاعه في أداء العمرة في فصل الصيف هي الأغرب والأعجب بين صور عباداته

(68) المرجع السابق. ص112.

(69) محمد رضا النعماني: سنوات المحنة وأيام الحصار. ص121.

الأخرى، فيقول: ((كان في الساعة الثانية ظهراً يذهب إلى المسجد الحرام حيث يقل الزحام بسبب شدة الحر، وكانت أرض المسجد مغطّاة بالمرمر الطبيعي، فكان لا يتمكن أحد ـ من شدة الحر ـ من الطواف في تلك الفترة. فكان (رحمه الله) يذهب في ذلك الوقت إلى المسجد حافي القدمين، وكنت أطوف معه، فوالله ما تمكنت من إكمال شوط واحد حتى قطعت طوافي وذهبت مسرعاً إلى الظل، فقد شعرت أن باطن قدمي قد التهب من شدة الحر، وما طفت في تلك الساعة إلا منتعلاً. وكنت أعجب من حال السيد الشهيد (رحمه الله) وهو يطوف ويصلي، وكأنه في الجو الطبيعي الملائم، فسألته يوماً بعد عودتنا من المسجد الحرام عن هذه القدرة العجيبة من التحمل، فقال: ما دمت في المسجد الحرام لا أشعر بالحرارة. نعم بعد أن أعود إلى الفندق أحس بألم في قدميّ)).

ويعلّق مرافقه قائلاً: ((ولم يكن ذلك إلا بسبب انقطاعه وتوجهه إلى الله تعالى، وإلا فإنه رضوان الله عليه كان يتضايق من الحر في الظروف الطبيعية)) الأمر الذي يزيد في تقدير استعداده للتحمل وهو في حضرة المولى عزّ وجلّ، كيف لا وهو منشغل عن أبر النحل بالشهد؟!

وأمّا عن زيارته للعتبات المقدّسة وأضرحة ومقابر أئمة المسلمين من أهل البيت (عليهم السلام) فيقول (النعماني)، والملاحظ هنا أنها شهادات لشاهد عيان، أي إنه لم يرو عن السيد الشهيد (رضي الله عنه)، وهي رواية عن مقرّب إليه، إننا ازاء وقائع: ((وذهبت معه في المدينة المنوّرة إلى البقيع لزيارة الأئمة الاطهار (عليهم السلام)، فدخل الباب حافي القدمين بخشوع وخضوع، فاقترب من قبور أجداده الأطهار وبدأ بزيارتهم وكأنهم أمامه يراهم ويرونه، والدموع تنهمر من عينيه دون انقطاع، وقد حلّق إلى عالم آخر في مشهد فريد من الولاء والحبّ لأهل البيت (عليهم السلام))[70].

ولكن زياراته للإمام الحسين (عليه السلام) في كربلاء كلّ ليلة جمعة تكتسي أهمية خاصّة، يعبّر عنها أحد تلامذته بالقول: ((وإذا رأيت في حياة الإمام الشهيد (رضوان الله عليه) زيارة الحسين (عليه السلام) رأيت أمراً تعجب به وتعجب له، رأيت وشيجة بين الصدر وجده السبط هي فرع أمها بينه وبين الله، أساسها حبّ الله وخيوطها إعظام آبائه وإكبارهم، وإرادة المشابهة بهم، واقتفاء آثارهم، ومتابعتهم، إن تلك الوشيجة كانت فوق ذلك، كانت عهداً يتجدّد كلّ ليلة جمعة من الصدر لجده على أن ينقل الخطا الصادقة تلو الخطا الدامية الحمر في كربلاء، وأن يقفو أثر الرفض والإباء حتى منحر الفداء، لا يقرّ لضيم، ولا يعطي بيده، ولا يسكت عن باطل، ولا يقعد عن نصرة حقّ))[71].

(70) هذه الشهادات كلّها مأخوذة عن كتاب (النعماني: الشهيد الصدر: سنوات المحنة وأيام الحصار. ص119 وما بعدها.

(71) فاضل النوري: سبحات روحية. ص34 - 35.

ومهما قيل في عباداته الأخرى، فإن أكبر عباداته وأكثرها (التفكر) وهي كما في الأثر أفضل العبادات وأجلها، ولولاه ـ أي لولا التفكر ـ ولولا خُلقه العظيم، لما حظينا بنعمتين كبيرتين: علم جمّ نوّر حياتنا وأثراها، وأخلاق وشمائل فاضلة سمحة أكسبتها عبقاً لا يفنى مع الأيام.

يقول (النعماني) في إحدى شهاداته: ((اتخذ السيد الشهيد منهجاً خاصاً لتربية نفسه من الناحية العلمية، فقد كان ـ وكما سمعنا منه ـ يقتطف أكثر من عشرين ساعة من الليل والنهار للتحصيل العلمي، وكان يقسّمها بين المطالعة والكتابة والتفكير، ولعل التفكير كان يأخذ أكثرها))[72].

من ذلك كله، يمكن لنا أن نتصور عبادة السيد الصدر (ﷺ)بالشكل الافتراضي أو المتخيَّل الآتي:

فصلاته: واحة أنس بالقرب الإلهي، وترانيم مناجاة مع المحبوب، يتحسّس الصدر في كلّ فصل من فصولها، بل وفي كلّ كلمة من كلماتها وحركة من حركاتها أنه يتلقى فيضاً جديداً غامراً من لدن المولى الذي يخلع عليه من آلائه حُللا، وأن الوقوف بين يدي ربّ العزة والجلالة يتنزّل عند السيد الصدر (ﷺ) منزلة الحسّ والشهود والعيان حتى كأنه يراه، وليست تلك مجرّد جلوة من جلوات الانقطاع النادرة والطارئة والعابرة، إنما هي دأبُ دائب ((آليت منذ الصغر أن لا أصلي إلا بحضور قلب وانقطاع))!

وصومه: تطبيع وتطويع للجوارح حتى تصفو أكثر، وترهف أكثر، وترق وتشف وتندى أكثر، فالصوم عنده إزالة لأية عوالق دنيوية - حتى ولو كانت على مستوى دار توهب، أو هدية تهدى، أو موقع يمنح، أو اسم يرفع - وكلّ ذلك من أجل السماح لماء الرضوان أن يتغلغل في المسامات فتهتزّ له الروح العطشى وتربو، كما الأرض الظمأى غبّ المطر.

وحجّه: إحرامٌ وطوافٌ وسعيٌ في مواطن العبودية للمعشوق، تنصهرُ الروح المخلصة في بوتقة عشقه، لدرجة أن أقدام الطائف حول البيت العتيق، والتي تكتوي بلهيب الصيف القائظ يشوي بلاط الحرم، لا تذوق مس الحريق، بل تتذوق حلاوة الحب الذي يفتح مسامع القلب وبصره، ويعمي عن الدنيا والدنايا ويصم، حتى ليستحيل عندها الألم الممض إلى لذة، والحريق إلى انتشاء.

وإنفاقه: مواهبُ من واهب متفضّل منّان، إن هو إلا همزة الوصل في إيصال الأمانات إلى أهلها، لا تخالطه أية منة فيما يتصدق أو ينفق أو يهب، بل يشعر أن الله يمن عليه أن هداه للإنفاق مما جعله مستخلفاً فيه ((يا بُنيتي هذه الأموال ليست لنا، إنما هي أمانة عندنا ترجع إلى المسلمين ولا يمكننا التصرف بها كيفما نشاء وأنى نشاء)).

(72) محمد رضا النعماني: سنوات المحنة وأيام الحصار. ص79.

وقرآنه: إصغاء كلي بآذان الروح والقلب والجوارح لما يقوله الله سبحانه وتعالى فتهفو كلها له، وتتسمع كلها له، وتتصدع كلها له، وتهشّ كلّها له، كما لو كانت كلماته نازلة للتو وعليه وحده: إنه (الاندماج) مع القرآن و(الانصهار) به عميقاً كما يصفه في إحدى حالاته معه، حيث يقول:

((فما تمالكت ان وقفت عند هذه الآية وقطعت قراءتي لعلي انطلق منها في الدرس القرآني))..

يضيف: ((عشت هذه الآية لحظة واستنشقت جوّها الروحي المرتفع وتجاوبت بكل كياني ومشاعري))[73]. وجهاداه (الاكبر والأصغر): احتفال دائم بالبذل أقصى غاية البذل في سبيل الله، لا تحده الكثرة، أو طول العناء، أو ضخامة التحديات، أو جسامة التضحيات أو قساوة الآلام المبرحة.. إنه عرس موصول يشعر أن أسارير قلبه تتهلل كلما دجا الخطب وتأزم الأمر واحتلك الصراع. لنستمع إليه، وهو سعيد بفوزه: ((لنحاسب علياً وهو في آخر لحظة من لحظات حياته (عليه السلام) حينما قال: (فزت ورب الكعبة). هل كان علي أسعد إنسان أو أتعس إنسان؟ هنا مقياسان: فتارة نقيس علياً (عليه السلام) بمقياس الدنيا، وأخرى نقيس علياً بمقاييس الله سبحانه وتعالى. كان أسعد إنسان ولم يكن أشقى إنسان، لأنه كان يعيش لهدفه، ولم يكن يعيش للدنيا، كان يعيش هدفه، ولم يكن يعيش لمكاسبه، ولم يتردد لحظة وهو في قمة هذه المآسي والمحن، في صحة ماضيه وفي صحة حاضرة، وفي أنه أدى دوره الذي كان يجب عليه. هذه هي العبرة التي يجب أن نأخذها. يجب أن لا نجعل مقياس سعادة العامل في عمله هو المكاسب والفوائد التي تنجم عن هذا العمل، وإنما رضا الله سبحانه وتعالى وحقانية العمل، كون العمل حقا وكفى))[74].

إن صدرنا الشهيد (رضي الله عنه) يحاول ـ في عباداته كلها ـ أن يؤسس لحالة عبادية متميزة، كان أجداده (عليهم السلام) مثلها الأعلى ونموذجها الأسمى، حتى ليمكن القول: إنه أعاد لها نضارتها وحيويتها وحقيقتها بعد ما شحبت في عبادات الناس الخالية من نبض الروح، وتوق النفس، وشغف القلب، ولهفة الجوارح.

إنه في (حلبة) العبادة لا يريد إلا تسجيل الانتصارات المتتالية: نصراً على الذات (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)[75]، وآخر على الشيطان (فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً)[76]، وثالثاً على الحياة الدنيا (مَتَاعُ الْغُرُورِ)[77]، ورابعاً على الطاغوت (فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ)[78]. إنها تصارعه كلها فيصرعها كلها ببصيرة نافذة، وبإرادة منه صلبة،

(73) مجلة الاضواء: العدد الأول. السنة الخامسة 1403 هـ /1983 م (دروس من القرآن الكريم). محمد باقر الصدر ص 14 - 15 .

(74) محمد باقر الصدر: أهل البيت ـ تنوّع أدوار ووحدة هدف. ص14.

(75) الشمس: 9.

(76) فاطر: 6.

(77) الحديد: 20.

(78) التوبة: 12.

وتسديد من الله بالهداية إلى سبله (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)[79]. ومقابلة الانتصار للدين بالنصر ينزّله مالك النصر ليثبّت به فؤاده والأقدام (إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)[80].

وإذا كانت الثمرة المجتناة من منظومة العبادات في الإسلام هي (التقوى)، وأن هذه العبادات ليست مطلوبة لذاتها، وإنما لتحقيق هذا الهدف السامي، فإن مردود التقوى ـ أخلاقاً وعملاً ـ مردود مباركٌ مزدوجٌ على الفرد وعلى الأمة فـ ((التقوى تمنح الإنسان أول ما تمنح الحرية الأخلاقية والمعنوية، وتعتقه من ربقة العبودية للرغبة والهوى، وترفع عن رقبته سلاسل الحرص والطمع والحسد والشهوة والغضب))[81]. يضاف إلى ذلك كله أن التقوى بالنسبة للمرجع الحابس على ذات الله نفسه، تمثّل عصب شخصيته وروحها، فبها تنقاد له القلوب، وبها تكسب فتاواه ووصاياه السمع والطاعة، وبها يتعلم الآخرون دروس التقوى العملية.

وبكلمة مقتضبة، فإن مرآة الصدر الشهيد (رضي الله عنه) نقية جداً لدرجة أنها تستقبل ضوء الحب الإلهي كله فلا غبش يمتص شيئاً منه أو يبدّده، كما أن وديان وجدانه تستقبل أمطار الحب الإلهي كلها فلا تدع قطرة منها إلا وتنتهلها انتهالاً.

بعد هذه الجولة في تصوّرنا لعباداته، أو لنقل لعلاقته التفصيلية مع الله تبارك وتعالى، قد يُثار بوجهنا سؤال: ألا ترون أنكم ترفعون من مقام وشأن السيد الشهيد محمد باقر الصدر (رضي الله عنه) في هذا المقطع، بل في هذا الكتاب إلى مصاف المعصومين؟!

الجواب: ربّما تكلّفنا في رسم الصورة بعض الشيء، وجمح الخيال بنا شيئاً ما، إلّا أننا نفهم من الدعوة إلى التأسي بالنبي (صلى الله عليه وآله) وآل بيته (عليهم السلام)، إمكانية أن يتأسّى المُريد بهم، وإلّا لانتفى أصل الدعوة لو كان التأسي متعذراً أو مستحيلاً.

دعونا نستمع إلى السيد الشهيد (رضي الله عنه) ماذا يقول في وصفه للإمام الخميني من أنه أعاد لنا صورة جده الزاهد علياً (عليه السلام) الذي رفض قصر الإمارة وسكن بيتاً عادياً، وإذا بالإمام يسكن بعد انتصار الثورة في (حسينية) مما يجعل من علي مثلاً في الواقع وليس في التاريخ وحسب.

(79) العنكبوت: 69.

(80) محمد: 7.

(81) مرتضى مطهري: التقوى. ص16.

يقول (ﷺ) في (الإسلام يقود الحياة): ((وإذا تجاوزنا تاريخ التجربة إلى واقعها المعاصر، وجدنا ان ذلك العلويّ العظيم ـ يقصد الخميني ـ الذي قاد كفاح شعبه تحت راية الإسلام حتى نصره الله، وسقطت في يده امبراطورية الشاه بكل خزائنها، ورجع إلى بلده رجوع الفاتحين، لم يؤثر على بيته القديم بيتاً، بل عاد إلى نفس البيت الذي نفاه الجبّارون قبل عشرين عاماً تقريباً، ليقدّم الدليل على أن الإمام علياً (عليه السلام) لم يكن شخصاً معيناً وقد انتهى، وإنما هو خطّ الإسلام الذي لا ينتهي))[82].

المحطّة الخامسة: استذكار الموت والإحساس بالآخرة

لنتأمل ـ في البداية ـ الصور والمواقف الآتية:

1 ـ ترددت إشاعة بين أوساط المؤمنين مفادها أن مؤامرة تحاك للقضاء على شخص الإمام الصدر (ﷺ) بشكل لا يثير الشكوك ضد السلطات التي قررت تدبير حادث سيارة له وهو في طريقه إلى كربلاء لزيارة الإمام الحسين (عليه السلام). وإثر ذلك سارع أحد العلماء للتعبير عن قلق المؤمنين لذلك، فأطلع السيد الشهيد على المؤامرة وحذّره من كيد السلطة، فأجابه (ﷺ): ((لا يهمني بأية طريقة أموت، في حادث سيارة، أم بطلقة، أم على الوسادة))[83].

2 ـ لما طلبت السلطة في العراق من السيد الشهيد (ﷺ) إدانة الثورة الإسلامية والتعرض بسوء لشخص قائدها الإمام الخميني (ﷺ)، قال السيد الشهيد (ﷺ) مخاطباً ضابط الأمن الذي نقل له الطلب: ((لقد كان هدفي وأمنيتي في حياتي تأسيس حكومة إسلامية، والآن وقد تأسست في إيران وتحققت أمنيتي، فكيف أقول شيئاً ضدها))؟ فقال له الضابط بأنه سيعدم جرّاء هذا الموقف، فرد السيد الصدر (ﷺ): ((إذا كنت مأموراً بتنفيذ حكم الإعدام فنفّذه الآن وأنا أنتظر الإعدام منذ فترة، والشهادة طريق آبائي وأجدادي)).

3 ـ يروي أحد تلامذته أنه رآه يمشي في أحد شوارع النجف أيام كانت عيون السلطة تراقبه وترصد تحرّكاته قبل إعلان الإقامة الجبرية، فقال له تلميذه: ألا تخشى سيدنا من السير وحدكم من الطريق؟ فردّ السيد عليه بالقول: ((أليس اللهُ بكافٍ عبده))؟!

4 ـ حينما تحدّث عن فناء الدنيا وأن أمدها قصير في محاضرة (حبّ الدنيا) قال إنه لن يعيش أكثر مما عاش أبوه أو أخوه. وحينما بلغه خبر إعدام الشهداء الخمسة، قال: ((والله لو خيّروني بين إعدام

(82) الإسلام يقود الحياة. ص177.

(83) صحيفة الجهاد. العدد 283. 7شعبان 1407هـ. ص9. على لسان السيد حسين الحسيني.

أولادي الخمسة وبين إعدام هؤلاء لاخترت إعدام أولادي وضحيّت بهم، إن الإسلام بحاجة إلى هؤلاء لا إلى أولادي))[84].

5 ـ وإذ يبلغه خبر إعدام المؤمنين العاملين والدعاة إلى الله تعالى، تراه يبكي، ويقول:

((بأبي أنتم وأمي أيّها السعداء.. جزاكم الله عن الإسلام وعن أبيكم.. هنيئاً لكم، لقد سبقتموني ً

هذه وغيرها من الشهادات والمواقف المعبّرة عن الاستعداد للقاء الله تدلّل، في الطليعة من مداليلها، عن الشوق لهذا اللقاء بعد رحلة عامرة بالعبادة وبالعبودية لله، والإيمان به والطاعة المخلصة له، والعمل الدؤوب والكبير في سبيله. فالإستعداد للموت بأية طريقة واللحاق بالسلف الصالح ((ما أولهني إلى أسلافي))[85]. والتخطيط للإستشهاد بالنزول إلى الصحن الشريف ومهاجمة السلطة حتى لا تجد سبيلاً لاسكاته إلاّ قتله. والرغبة في أن يكون سبّاقاً إلى ذلك، واعتبار استشهاد العلماء والعاملين أعظم من موت أولاده وفلذات كبده، لأن الإسلام بحاجة أمسّ إلى أولئك العاملين من أولاده الذي لم يصلوا سنّ التكليف بعد. كلّ ذلك يمكن تفسيره من خلال نظرة الإمام الشهيد (ﷺ) للموت، وهي نظرة الزهد بالحياة من جهة، والرغبة بلقاء الله مضرّجاً بدمه من جهة أخرى.

يقول (ﷺ) إنّ: ((الأئمة (عليهم السلام) علّمونا بأن تذكّر الموت دائماً يكون من العلاجات المفيدة لحب الدنيا، فكل واحد منا يعتقد بأن كل من عليها فانٍ، لكن القضية دائماً وأبداً لا يجسّدها بالنسبة إلى نفسه، هذه العِبَر التي علّمنا الأئمة (عليهم السلام) أن استحضارها دائماً يكسر فينا شره الحياة، ما هي هذه الحياة؟ لعلها أيام فقط.. لعلها أشهر فقط، لعلها سنوات، لماذا نعمل ونحرص دائماً على أساس أنها حياة طويلة؟ لعلنا لا ندافع إلا عن عشرة أيام.. إلا عن شهر.. إلا عن شهرين.. هذه بضاعة رخيصة))[86].

فالإمام الصدر (ﷺ) يتخذ من تذكّر الموت والاستعداد له علاجاً مفيداً لحب الدنيا، ليكسر شره الحياة التي إنْ هي إلا أيام معدودات وبضاعة رخيصة.

يقول الشهيد مطهري في كتابه (الإنسان الكامل): ((إن من المقاييس التي يقاس بها الإنسان الكامل هو ردود فعله عند مواجهة الموت))[87]. ويضيف في موضع آخر ((إذا لم يخش الإنسان الموت فحياته بأسرها تتغير))[88].

(84) هذه الشواهد عن كتاب (الإمام الشهيد محمد باقر الصدر) لـ(محمد الحسيني) ص77.

(85) من كلمة للإمام الحسين (عليه السلام) وهو يستعدّ إلى لقاء الله.

(86) محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية. ص171.

(87) مرتضى مطهري: الإنسان الكامل. ص83.

(88) المرجع السابق. ص107.

وعلى هذا فإن النتيجة التي يمكن استخلاصها من استحضار الموت والاستعداد له عند السيد الشهيد (ﷺ) هي أنه أعطى ـ كما مر معنا ـ الحياة ما تستحق من حجم ومن قيمة، فهي زائلة فانية متاع لعب ولهو، قليلة غرّارة غدّارة. وأنه عمل لما بعد الموت؛ لأنه أبقى وأدوم وخير وأنفع فهو النعيم المقيم والقرب الدائم والرضوان الأكبر والسعادة التي لا سعادة فوقها.

يقول الشهيد (حسين معن): ((لا تنفصل عملية الإحساس بمرحلية الحياة الدنيا وعرضيتها عن الإحساس بالموت واليوم الآخر.. ويمكن أن نعد كل هذه الأحاسيس إحساساً واحداً بنظرة إلى الحياة شاملة تستوعب الحياة الدنيا، ومرحلة الانتقال، والمرحلة الأخيرة الأبديّه))[89].

وعلى هذا أيضاً، فإن استشعار السيد الشهيد (ﷺ) بقصر الحياة ربّما دفعه إلى البذل الاقصى من أجل تعويض المدى القصير للعمر الذي قرر اختتامه بالشهادة. فنحن نعلم ـ كما أشارت سيرته إلى ذلك - أنه كان يستغل وقته كلّه، بل يعتصر دقائقه اعتصاراً ويعمل قرابة العشرين ساعة في اليوم لإيجاد معادل موضوعي لسرعة جريان الحياة التي دخل في سباق معها، فأعطى ما ضرب به رقماً قياسياً في العطاء ضمن مرحلة عمره القصير، لكنه الحافل والمليء والمبارك. كم يا ترى، وبأي مقياس يمكن أن نقيس عمر السيد الشهيد (ﷺ) بالزمن النوعيّ، وبهذا الامتلاء المعرفيّ وهذا الثراء الإنسانيّ؟

لكننا ونحن نزمع مغادرة هذا الجانب المهم والمثير من حياة سيدنا الشهيد (ﷺ) نحب أن نقف ولو وقفة سريعة عند تمني الصدر (ﷺ) في بعض الاحيان، حينما يجد جفاء الحوزة وعنتها إزاءه، أو لنقل إزاء مواقفه. يقول (النعماني) في ذلك: ((إن أهم معاناة كان يعيشها الشهيد الصدر (رحمه الله) هي عدم قدرة الحوزة على استيعابه. وفقدان الفهم الكافي له في مجتمعه. فكان يشعر بغربة قاتلة في ظلّ تلك الأجواء التي جعلته بين الحين والآخر يتمنى الموت))[90].

إن الغربة في الأهل والوسط العلمي الذي ينتمي الصدر (ﷺ) إليه، غربة قاسية وقاتلة، ذلك أن ظلم ذوي القربى أشد مضاضة.. فلقد كان يريد لهم حياةً أكرم، وكانوا يريدون قتله والخلاص منه، وما زاحم ولا نافس في حياته أحدا قط، لكنه شعور الغيرة والحسد والمزاحمة دفع قابيل إلى محو أخيه من ساحة الحياة، وحمل إخوة يوسف على إلقائه في البئر متهمين الذئب في دمه.. (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ)[91].

(89) حسين معن: الاعداد الروحي. ص120.

(90) النعماني: الشهيد الصدر: سنوات المحنة وأيام الحصار. ص175.

(91) الدخان: 40.

يقول (ﷺ) آسفا أسفاً عميقاً، بل يحزّ في الأعماق كالمدى لما بلغه أن بعض أولئك يكتبون التقارير ضده ويرفعونها للقيادة السياسية في العراق مباشرة: ((غفر الله لهم.. أما دروا أنهم لو قتلوني اليوم فسيقتلونهم غداً))!

إن غربة المصلح الغيور المتفاني في خدمة أهل دينه وأهل وطنه وأهل خطه لمن أقسى الغربات على الاطلاق وقد صدق (المتنبي) حيث يقول:

ما مُقامي بِأَرضِ نَخلَةَ إِلّا كَمُقامِ المَسيحِ بَينَ اليَهودِ

أَنا في أُمَّةٍ تَدارَكَها اللَـــهُ غَريبٌ كَصالِحٍ في ثَمودِ

وبهذه النهاية المؤسفة نكون قد انتهينا من الأصل الأول من أصول المدرسة الصدرية الأخلاقية، وهو ما اصطلحنا عليه بـ(الوعي الذاتي).. وبنظرة إجمالية لما أسماه سيدنا الشهيد (ﷺ) ببناء المحتوى الداخلي، نرى أن عمليات: الإعداد الروحي والجهاد الأكبر، وغرس الملكات الأخلاقية والروحية، وتنميتها، والتسامي بالتوحيد من خلال الإيحاء بالعبودية، والشعور التفصيلي بالله بالتعبير عن حبه وحبّ القيم التي أراد سبحانه أن تقود الحياة، واستذكار الموت والاستعداد له في كل حين، وغير ذلك مما فاتنا ذكره أو حصره، اسهمت جميعها في صناعة أو صياغة هذه المدرسة التي إن لم تأت في هذا المضمار بجديد، لأنه نهج نهجه آباؤه وأجداده (عليهم السلام)، فحسبه حينما أوشكت أن تبلى، لما ران عليها من الطارئ الدخيل والشعارات الخاوية الفارغة والممارسات - المفارقات، بل والمخلّ المخدش من المواقف والتصرفات، نهض لإصلاحها وصلاحها، وإعمارها وترميمها وهذا ما كان.. وما لم يكن.. لما استفرغه (ﷺ) من وسع في ذلك، وما لم يكن لأن الوضع ما زال أكثر من مؤسف.

ثانياً: الوعي التاريخي

إن المراد بالوعي التاريخي هنا هو إحساس الإنسان المسلم بمجموعة من القضايا التي تتصل بالنشاط الإنساني التاريخي، والصراع بين الحق والباطل، والهدى والضلال في التاريخ البشري برمّته وفي حقله الرسالي تحديداً[92]. لهذا الوعي ثلاث شعب[93]:

1 ـ الشعور بحركة الأحداث أو تفاعلاتها.

2 ـ الشعور بوحدة المسيرة (إرث الرسالات).

3 ـ الإحساس بحتمية الانتصار (الثقة بوعد الله).

على أن هذا الشعور الثلاثي (بحركة الأحداث، ووحدة المسيرة الرسالية، وحتمية الانتصار) هو في الحقيقة شعور واحد متكامل مترافد متعاضد، ذلك أن الإحساس بحركة الأحداث وحركة التاريخ، والظواهر التاريخية عن طريق توسيع أفق الإنسان المسلم وتكوين العقلية التاريخية لديه، يرتبط بنحو وبآخر بالإحساس بوحدة المسيرة التي قادها الأنبياء والمرسلون والأئمة والصالحون (سلام الله عليهم أجميعن) رغم تعدّد أساليبهم ومراحلهم، فهذا ((الشعور ينتهي من الناحية النفسية إلى أرقى المعاني التي تكون زاد المؤمنين العاملين، ووقودهم في الجهاد، وهي التوحد مع الأنبياء والصالحين، ومحاولة الإنصهار في نهجهم الرباني، وعبادتهم وعبوديتهم لله تعالى، والإعتزاز بالنسب التاريخي العريق والثقة بالنفس والتعزي عند البلاء والمواجهة بمواجهات الموكب الكريم والرهط الكريم، والإستفادة من تجاربهم في العمل والجهاد))[94].

ولعلّنا ـ ونحن نقرأ (زيارة وارث) ـ لا نرتاب في أن الحسين (عليه السلام) هو خيرُ من يمثّل الوراثة الرسالية، حيث ورث المجهود النبويّ المظفّر مع امتداده، ليبقيه كينبوع متدفق في زمن نضوب النفوس وشحّة العقول وجفاف الأخلاق، الأمر الذي يجعلنا ننظر ـ بلا أدنى مغالاة ـ إلى أن الوراثة وراثتان: (وراثة رسالية) في أرقى الدرجات وأعلى المنازل، و(وراثة نَسبية) وهي أن كلّ إنسان رسالي هو، بهذا النحو أو ذاك، وهذه الدرجة أو تلك، وريث الرسالات أيضاً، والاّ فماذا يعني حديثُ قصص القرآن عن تجارب الأنبياء والمرسلين، إن لم تكن تشكّل زيتاً لسراج نفوسنا وعقولنا وحياتنا؟!

(92) حسين معن: الاعداد الروحي. ص125.

(93) هذا التصنيف لشعب الوعي التاريخي مستقى من المرجع الآنف الذكر.

(94) المرجع السابق. ص131.

ترتيباً على ذلك، فإنّ كلاً من الشعورين أو الإحساسين السالفين بـ(حركة الأحداث ووحدة المسيرة) يرتبط بالإحساس بحتمية الانتصار ارتباط المقدمات بالنتيجة، وذلك كله من خلال وجهة النظر الإسلامية القرآنية بالطبع. فحركة الأحداث على طول التاريخ الرسالي وامتداده، والاحساس بالانتماء إلى السلف الصالح عبر خط واحد ممتد في مسالك الزمن، يموّن القائد أو الداعية إلى الله بحقيقة أن النصر حليفه وحليف رسالته التي حملها الأمناء من قبله، فحققوا لها أروع الإنتصارات المادية والمعنوية إن آجلاً أو عاجلاً.

يقول سيدنا الشهيد (رضي الله عنه): ((إن الصعاب التي تواجه الدعوة الإسلامية واجهت كل دعوة انقلابية في التاريخ، فلو أنها كانت صعاباً قاهرة لجمد التاريخ، بل لقد واجهت الصعاب الدعوة الإسلامية في مطلعها، فلو أن أحداً كان يتنبأ لحظة اختفاء الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) في الغار والعيون منتشرة في الصحراء للتفتيش عنه والقضاء عليه، لو أن أحداً تنبّأ في هذه اللحظة أن هذا الطريد الشريد الوحيد سوف يصل في طريقه إلى عواصم القياصرة والأكاسرة ويغزو العالم المتحضّر كله، ويُحدث أعظم انقلاب عرفه التاريخ، لقال المثبّطون عن هذا المتنبئ: إنه مجنون. وما هو بمجنون. إي والله ليس بمجنون إن هو إلا ذكرٌ للعالمين ولتعلمنّ نبأه بعد حين))[95].

هذا الإستلهام الدقيق العامر بالأمل للتاريخ والاستيحاء العميق لأسراره ولسننه، منح السيد الشهيد (رضي الله عنه) وعياً تاريخياً غنياً لا كمؤرخ يتوافر على دراسة علمية منهجية، بل كموظّف رائع لدروسه، وعبره ومحطات التزود والإشراق الكبرى فيه، ولذا تراه يخلص من جولته التاريخية التي سبر أغوارها حتى عاد في قراءته للأمم السابقة وكأنه أحدهم ـ حسب تعبير الإمام علي (عليه السلام) ـ بالمحصّلة التاريخية التربوية الباهرة، أو السنّة التاريخية المطردة الآتية: ((إن الذين حملوا مشعل الدين على مر الزمن كانوا أقوى الناس نفساً وأصلبهم عوداً))[96].

وهذا ما سنستشرفه في حياته (رضي الله عنه) أيضاً، من خلال النصوص تارة، ومن خلال التجربة تارة أخرى. ولذا فإننا سندمج الشعورين الأوليين بـ (حركة الأحداث ووحدة المسيرة) ببعضهما لجهة صعوبة الفصل بينهما في تجربة السيد الشهيد (رضي الله عنه) التي استلهمت التاريخ بحركة أحداثه ووحدة مسيرته في مفاصل تجربته المستحضِرة ذلك كله. فهو، ومن خلال دراسة متأنية ومستقصية أيضاً، انتهى إلى أن القرآن الكريم يوفّر لنا ـ من خلال التعمق في نصوصه الداعية إلى استجلاء التاريخ ـ فهماً واعياً لحركة

(95) مجلة الأضواء: العدد الأول. السنة الخامسة. 1403هـ ـ 1983 . ص18-17.

(96) محمد باقر الصدر: المرسل ـ الرسول ـ الرسالة. ص15.

أحداثه، بمعنى أن معترك الصراع بين الحق والباطل قائم منذ فجر البشرية، وأن لهذا الصراع معادلاته وسننه التي لن تجد لها تبديلاً. فهي جارية (مطردة) في الأمم غابرها وحاضرها، وهي (ربّانية) تتحكّم السماء بها، وهي (مبرمة) في صرامتها ـ حسب التوصيف الصدري لها ـ وبالتالي فإن دخول الشخص أو الأمة في مجرى الصراع الراهن لا يمكن اعتباره ـ بأي حال ـ حركة مبتدئة من الصفر، وإنما هو حلقة في مسلسل متواصل الحلقات يقتضي خوضه أو النجاح فيه إدراكَ أبعاده التي جلّاها الكتاب المجيد في أكثر من سورة وأكثر من آية، الأمر الذي يفتح آفاقاً تاريخية أمام الدعاة إلى الله والقادة إلى سبيله فلا (يصنّمون) المرحلة العابرة ـ حسب تعبير السيد الشهيد ـ ولا ينظرون إلى أوضاع الانحراف كأمر واقع مستقر ينتهي إلى نتائج سلبية عديدة منها: ((فقدان الأمل، وانحسار الاندفاع الرسالي، وتقديم التنازلات العمليّة من أجل الانصهار في التيار الذي لا يؤمّل تغييره، والتنازل الفكري من حيث التشكيك في الموقف المبدئي))[97].

وعلى عكس ذلك، من يشعر بحركة الأحداث التاريخية على أنها سلسلة مترابطة الحلقات، وأنّ خط الإيمان ممتدّ منذ فجر التاريخ، وأنّ حركة الإيمان تهدف دائماً إلى القضاء على كلّ ألوان الانحراف عن الخطّ المستقيم، فيما تسعى حركة الكفر إلى إخراج الناس من النور إلى الظلمات، أو العمل على ابقائهم في دائرة الظلمات المطبّقة إلى الأبد، أو إعادتهم القهقرى إليها كيما يكونوا أتباع الشيطان المضلّ وأعوان السلطان الغاشم (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ)[98].

فكيف ـ يا ترى ـ عاش الإمام الشهيد (رضي الله عنه) حركة الأحداث ووحدة المسيرة في التاريخ كعامل تربوي ضخم أنتج شخصية بهذا المستوى من الإيمان والأخلاق والشجاعة والتضحية والثراء الروحي والمعرفي؟

حينما يتحدث (رضي الله عنه) عن مفهوم الإسلام للخلافة، وعملية الاستخلاف الرباني للجماعة على الأرض، يقول: ((إن هذا الكائن الحر الذي اجتباه للخلافة، قابل للتعليم والتنمية الربانية، وإن الله تعالى قد وضعَ له قانونَ تكامله من خلال خطّ الربانية والتوجيه الرباني على الأرض. الخطة الربانية وضعت خطين جنباً إلى جنب: أحدهما (خط الخلافة) والآخر (خط الشهادة) الذي يجسّده شهيد رباني يحمل إلى الناس هدى الله ويعمل من أجل تحصينهم من الانحراف))[99]. من هذا النص الصدري نستلّ المفهومين التربويين التاليين:

(97) هذه التصوّرات عن ضيق الأفق التاريخي مأخوذة بتصّرف عن كتاب (الاعداد الروحي) لـ(الشهيد حسين معن). ص129.

(98) الزخرف: 54.

(99) الإسلام يقود الحياة. ص139.

أ ـ الإنسان باعتباره خليفة الله في الأرض قابل للتعليم والتنمية الربانية.

ب ـ الإنسان باعتباره قائداً وشاهداً وموجّهاً للمسيرة الربانية قابل للتكامل من أجل أن تكون له القدرة على القيادة الربّانية والريادة والشهادة.

فإن الشهيد الرباني (نبياً كان أو مرسلاً أو مرجعاً) يحمل لون للإنسان الخليفة الهداية من الضلال، ويعمل على تحصينه من الزيغ والانحراف عن الخط المستقيم. ولكي يتأتى له القيام بهذا الدور الجبّار لا بدّ وأن يكون قد توافر على شروط وخصائص تؤهله إلى ممارسة دور الأنبياء والرسل في موقع القيادة والشهادة، وهذا ما يضطرّنا إلى إيراد النص التالي. على الرغم من طوله. لأنّ سيدنا الشهيد (ﷺ) هنا يطرح بصورة تفصيلية آلية البناء التربوي لكلا الخطّين: ((إن الخلافة الربانية للجماعة البشرية وفقا لركائزها المتقدمة تقضي بطبيعتها على كل العوائق المصطنعة والقيود التي تجمد الطاقات البشرية وتهدر إمكانات الإنسان، وبهذا تصبح فرص النمو متوفرة توافراً حقيقياً. والنمو الحقيقي في مفهوم الإسلام هو أن يحقق الإنسان الخليفة على الأرض. في ذاته. تلك القيم التي يؤمن بتوحيدها جميعا في الله عز وجل الذي استخلفه واسترعاه أمر الكون.

فصفات الله تعالى واخلاقه من العدل والعلم والقدرة، والرحمة بالمستضعفين والانتقام من الجبارين والجور الذي لا حد له، هي مؤشرات للسلوك في مجتمع الخلافة وأهداف الإنسان الخليفة. فقد جاء في الحديث ((تشبّهوا باخلاق الله)). وما كانت هذه القيم على المستوى الإلهي مطلقة ولا حد لها، والإنسان الخليفة كائنا محدودا، فمن الطبيعي أن تتجسد عملية تحقيق تلك القيم إنسانيا في حركة مستمرة نحو المطلق وسير حثيث إلى الله.

وكلما استطاع الإنسان من خلال حركته أن يتصاعد في تحقيق تلك المثل، ويجسّد في حياته بصورة أكبر فأكبر عدالة الله، وعلمه، وقدرته، ورحمته، وجوده، ورفضه للظلم والجبروت، سجّل بذلك انتصارا في مقاييس الخلافة الربانية، واقترب نحو الله في مسيرته الطويلة التي لا تنتهي إلا بانتهاء شوط الخلافة على الأرض (يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ)[100].

فالخلافة إذن حركة دائبة نحو قيم الخير والعدل والقوة، وهي حركة لا توقف فيها، لأنها متجهة نحو المطلق، وأي هدف آخر للحركة سوى المطلق. سوى الله سبحانه وتعالى. سوف يكون هدفاً محدوداً، وبالتالي، سوف يجمد الحركة بوقف عملية النمو في خلافة الإنسان.

(100) الانشقاق: 6.

وعلى الجماعة التي تتحمل مسؤولية الخلافة أن توفر لهذه الحركة الدائبة نحو هدفها المطلق الكبير، كل الشروط الموضوعية وتحقق لها مناخها اللازم، وتصوغ العلاقات الاجتماعية على أساس الركائز المتقدمة للخلافة الربانية[101].

ونلجأ الآن إلى استلال المفاهيم التربوية من هذا النص الممتلئ الحافل:

أ. الهدف التربوي الكبير من الخلافة هو القضاء على العوائق والقيود التي تشل أو تجمد طاقات الإنسان وتهدر إمكاناته.

ب. الإنسان، كونه مخلوقاً محدوداً، يتجه ـ في بنائه التربوى التكاملي ـ إلى المطلق، وهو الله سبحانه وتعالى، وذلك باعتبـار أن صفاته وأخلاقه ـ عزَّ وجل ـ معالم على طريق البناء المذكور، يستهدي بها الإنسان الخليفة في سيره الحثيث إلى الله، وهذا يعني أن فرص النمو التربوي وصولاً إلى الكمال مفتوحة أمام الإنسان، وهو الذي اصطلحنا عليه بـ(الكمال النسبي) في ما سبق.

ج. على الخط الثاني ـ خطّ الشهادة ـ تقع مسؤولية توفير الأجواء الموضوعية لسير الإنسان التكامليّ نحو الله تعالى، وهذا يعني أنّ ثمة مجهودين متلازمين يعملان على ترقية الإنسان: جهد ذاتي نصطلح عليه بـ(الجهاد الأكبر)، وجهد موضوعي تُنفقه الرسالات والرسل لاستكمال أشواط التربية وصولاً إلى نقطة (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا)[102]، فتكون مهمة الأنبياء قد استُكملت، ومهمة الإنسان تبقى سارية ما امتد به العمر.

وحتى نتعرف على هذه المسؤولية بشكل تفصيلي أيضاً، نعمد من جديد إلى النص الصدريّ، مع توجيه العناية ـ دائماً ـ إلى أن الحديث هنا عن خط الشهادة هو حديث بالضمن عن الدور الذي اضطلع به سيدنا الشهيد (ﷺ). أي لا بدَّ من التذكير باستمرار بتلازم النص مع التجربة عند السيد الصدر (ﷺ). فهو حينما يبيّن لنا التدخل الرباني في خط الخلافة من خلال خط الشهادة، يذكر أصناف الشهداء الثلاثة (النبيّون، والربانيون، والأحبار) فيقول عن الصنف الثالث: ((والأحبار هم علماء الشريعة، والربانيون هم درجة وسطى بين النبي والعالم، وهي درجة الإمام. ومن هنا أمكن القول بأن

(101) محمد باقر الصدر: الاسلام يقود الحياة. ص 141.

(102) المائدة: 3

خط الشهادة يتمثل في:

أولاً: في الأنبياء.

ثانياً: في الأئمة الذين يعتبرون امتداداً رشيداً للنبي في هذا الخط.

ثالثاً: في المرجعية التي تعتبر امتداداً رشيداً للنبي في خط الشهادة.

والشهادة على العموم يتمثل دورها المشترك بين الأصناف الثلاثة من الشهداء، فيما يلي:

أولاً: استيعاب الرسالة السماوية والحفاظ عليها (بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ)[103].

ثانياً: الإشراف على ممارسة الإنسان لدوره في الخلافة، ومسؤولية إعطاء التوجيه بالقدر الذي يتصل بالرسالة وأحكامها ومفاهيمها.

ثالثاً: التدخل لمقاومة الانحراف واتخاذ كل التدابير الممكنة من أجل سلامة المسيرة))[104].

وما يهمنا ـ في هذا الكتاب بصفته ناطقاً عن أخلاقية السيد الشهيد (رضي الله عنه) ـ شهادة المرجع تحديداً، خاصة وأن حديثنا منصبّ على مرجعية السيد الشهيد (رضي الله عنه) التي زاولت مسؤولياتها في خط الشهادة على الصعد الثلاثة: استيعاب الرسالة والحفاظ عليها، والإشراف على الممارسة بإعطاء التوجيهات في المفاهيم والأحكام، والتدخل لمقاومة الانحراف.

((فالشهيد مرجع فكري وتشريعي من الناحية الأيديولوجية، ويشرف على سير الجماعة وانسجامها أيديولوجياً مع الرسالة الربانية التي يحملها. ومسؤول عن التدخل لتعديل المسيرة أو إعادتها إلى الطريق الصحيح إذا واجهت انحرافاً في مجال التطبيق))[105].

ومن ذلك نستشفّ أن المهمة واحدة بالنسبة للنبيين والربانيين والأحبار، وأن الحديث الشريف ((الفقهاء أمناء الرسل))، ناظر إلى المسألة من هذه الزاوية، وأن الفارق هو في العصمة التي يمكن أن نتلمس مظهر التشبه بها في هذا المجهود التربوي الجهيد (الجهاد الأكبر) الذي يمارسه المرجع كيما يكون

(103) المائدة: 44.

(104) محمد باقر الصدر: الإسلام يقود الحياة. ص144 - 145.

(105) المرجع السابق. ص145.

في الدرجة العليا من التقوى والورع والأخلاق والعمل، لاسيما إذا عرفنا: ((أن الإسلام يتجه إلى توفير جو العصمة بالقدر الممكن دائماً))[106].

يقول سيدنا الشهيد (رضي الله عنه): ((والمرجع هو الإنسان الذي اكتسب من خلال جهد بشري معاناة طويلة الأمد، استيعاباً حياً وشاملاً ومتحركاً للإسلام ومصادره، وربما معمّقاً، يروّض نفسه عليها، حتى يصبح قوة تتحكم في كل وجوده وسلوكه، ووعياً إسلامياً رشيداً، وما يزخر به من ظروف وملابسات ليكون شهيداً عليه. ومن هنا كانت المرجعية مقاماً يمكن اكتسابه بالعمل الجاد المخلص لله. ومن هنا كانت المرجعية كخط قراراً إلهياً، والمرجعية كتجسيد في فرد معين قراراً من الأمة))[107].

إن هذا النص الصدري ـ على وجازته ـ يقدّم تصوراً مغايراً لمواصفات المرجع السائدة، فهناك معاناة طويلة الأمد، وهناك ترويض للنفس عليها حتى تصبح قوة متحكمة بكل وجود المرجع وسلوكه، وهناك وعي إسلامي رشيد، وهناك العمل الجاد المخلص لله سبحانه وتعالى، ولا حاجة لاعادة التكرار لحقيقة أنّ السيد الشهيد (رضي الله عنه) لا يتحدّث عن عموم المرجعية منسلخةً عن خصوصية مرجعية بالذات، فهو إذ يرسم معالم المرجعية الرشيدة يضمّنها من حيث لا يُعلن ولا يشير إلى ذلك دوره الطليعي فيها، وهذا ما يتلمّسه الباحث في مقولات (المعاناة) الشديدة والطويلة التي تتردّد في ثنايا الخطاب الصدريّ.

وفوق هذا وذاك فإن المرجعية بالإضافة إلى كونها قراراً إلهياً ـ حسب التصنيف الثلاثي للشهداء والذي سبقت الإشارة إليه ـ فهي تفويض من الأمة لحامل لواء قيادتها الشرعية. وبهذه المواصفات يمكن القول إن السيد الشهيد (رض) قد أحرج المراجع الذين تنحصر مرجعياتهم في الفتيا فقط، لأنه حدّد بالفعل الصورة التي ينبغي أن يكون المرجع الشاهد عليها. إنه بكلمة واحدة: خليفة الإمام المعصوم (عليه السلام) الذي لا بدَّ له أن يكون صورة ناطقة عنه، بما في ذلك توفره على شرط العصمة بقدرها الممكن!

ثم يخلص السيد الشهيد (رضي الله عنه) من ذلك كله إلى المحصّلة التي تقودنا إلى فهم مرجعيته المتميزة فكراً وعاطفة وسلوكاً، حيث يقول: ((وهكذا نخرج من ذلك بأن الشهيد سواء كان نبياً أو إماماً أو مرجعاً يجب أن يكون عالماً على مستوى استيعاب الرسالة، وعادلاً على مستوى الالتزام بها، والتجرد عن الهوى في مجال حملها، وبصيراً بالواقع المعاصر له، وكفؤاً في ملكاته وصفاته النفسية))[108].

(106) المرجع السابق. ص172.

(107) المرجع السابق. ص145.

(108) محمد باقر الصدر: الإسلام يقود الحياة. ص146.

فأي من تلك الصفات والخصائص لم تنطو عليها شخصية المرجع الشهيد؟ لقد التقت كلها جميعاً فيه وعلى أرقى مستوى وفاقاً لما جاء عن الإمام العسكري (عليه السلام): ((فأما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلّدوه)). وهو هنا لا يضرب لنا مثلاً بنفسه، علماً أنه هو نفسه مثلٌ لكل ما أراده المعصوم من خليفته أو وكيله أو أمينه على الرسالة ممن بعده، لكنه يستشهد بمثل حي آخر وهو الإمام الخميني (رضي الله عنه) الذي يقول عنه، كما سبق وأشرنا إلى ذلك: ((سقطت في يده إمبراطورية الشاه بكل خزائنها، ورجع إلى بلده رجوعَ الفاتحين، فلم يؤثر على بيته القديم بيتاً، بل عاد إلى نفس البيت الذي نفاه الجبارون منه قبل عشرين عاماً تقريباً، ليقدّم الدليل على أن الإمام علياً لم يكن شخصاً معيناً وقد انتهى، وإنما هو خط الإسلام الذي لا ينتهي))[109].

وهنا نمسكُ بخيط متين من الخيوط التي ترشدنا إلى شخصية الصدر الأخلاقية في كل ما قدمته من تجربة غنية ومشعّة في هذا المضمار، فهو، كما وصف الإمام الخميني (رضي الله عنه)، قد قدّم الدليل على أن الإمام علياً (عليه السلام) لم يكن شخصاً معيناً وقد انتهى، وإنما هو خط الإسلام الأصيل الذي لا ينتهي، الأمر الذي يؤكد على ما ذهبنا إليه من أن أحد أهم الأهداف التي توخّاها الشهيد الصدر من سيرته الأخلاقية العلمية هو تأكيد المنهج وترسيخ الخط وإبراز معالم المدرسة، وقد كان حقّاً مثلاً وممثلاً حقيقياً لهما:

((وأي مسلم لا يشعر بالزهو والاعتزاز إذا أحس بعمق أنه يعيد إلى الدنيا من جديد أيام محمد وعلي وأيام أصحاب محمد الميامين الذين ملأوا الدنيا عدلاً ونوراً))[110].

ويتضح الهدف جلياً من مقولة للصدر يركّز فيها (المرجعية ـ الخط) لا (المرجعية ـ الشخص)، وإن كانت هذه ـ بقدر اندكاكها بالخط وتجسيده ـ تمثله كمصداق مشرق، وكلما ازدادت المصاديق الممثلة للخط تأكّد خط الشهادة في المرجعية وترسخ في العمق أكثر.

((المرجعية عهدٌ رباني إلى الخط لا إلى الشخص، أي إنّ المرجع محدّد تحديداً نوعياً لا شخصياً، وليس الشخص هو طرف التعاقد مع الله بل المركز كمواصفات عامة))[111].

وهذا ما أكّده أيضاً في رسالته التي بعثها إلى طلابه بُعيد انتصار الثورة الإسلامية، وفيها يقول:

((وليست المرجعية الصالحة شخصاً، وإنما هي هدف وطريق، وكل مرجعية حققت ذلك الهدف

(109) المرجع السابق. ص188.

(110) محمد باقر الصدر: الإسلام يقود الحياة. ص 198.

(111) من مقدمة (البنك اللاربوي في الإسلام) طبعة دار التعارف. 1400هـ ـ 1980م.

والطريق فهي المرجعية الصالحة التي يجب العمل لها بكل إخلاص))[112].

ونلتقي هنا بشهادة أحد تلامذته لتترجم لنا هذا النص ترجمة حركيّة يتطابق فيها الشعار مع رافعه، فلقد: ((جسّد الصدر مصداق المرجع الذي يريده في مشروعه، فكانت خصال هذا المنقذ خصال العاملين، وكانت سجاياه سجايا الصالحين الذين عرفوا الله وحرمته، وحقّ طاعته، وأداء الأمانة، فكانت نفسه أسيرة ما تعلّم قبل أن يفيض بعلمه إلى أحد، وكانت روحه في غلّ الالتزام قبل أن يدعو غيره إلى أغلاله المحرّرة. كان سيد المتعظين قبل أن ينبس ببنت شفة واعظا، جاهد نفسه فانتصر، ثم دعا غيره إلى المجاهدة والانتصار، وغالب أهواءه فغلب، ثم هتف بسواه إلى مغالبة الأهواء))[113].

عملية الاختزان: هذه هي أحد أهم الأطر النظرية التي استند إليها السيد الشهيد (رضي الله عنه) في رسم معالم المرجعية الرشيدة في خط الشهادة، بل يمكن استعادتها وتوظيفها في بناء الشخصية الرسالية العاملة إن في المحيط المرجعي، وإن في مضمار العمل الحركي، أو الخدميّ، أو الاصلاحي، أو التغييري. فلننتقل الآن إلى استبيانها من خلال الإدراك العميق لوحدة المسيرة والمتمثل في عملية الاقتداء والائتمام بالأنبياء والأئمة (عليهم السلام) فيما أسماه! بمبدأ (الاختزان)، أي اختزان مواقفهم وصبرهم وتضحياتهم وتحمّلهم وثباتهم للإستعانة بذلك كله في وقت الحاجة بمعنى أن (المختزَن) ـ حسب ما يراه السيد الشهيد ـ يقوم بعملية تمثيل واستحضار لتلك المواقف الجليلة والمشرّفة حينما يتعرض لمثل ما تعرّض له سلفه الصالح من رموز خط الشهادة، وبذلك فهو يطرح أسلوباً راقياً من أساليب التربية، ولندعه يشرح لنا فحوى هذه العملية بنفسه، يقول (رضي الله عنه): ((في اللحظات التي تمر على أي واحد منا ويحسّ بأن قلبه منفتح لمحمد (صلى الله عليه وآله) وأن عواطفه ومشاعره كلها متأججة بنور رسالة هذا النبي العظيم (صلى الله عليه وآله).. في تلكم اللحظات يغتنم تلك الفرصة ليختزن. وأنا أؤمن بعملية الاختزان ـ والإقرار للسيد الشهيد ـ بمعنى أن الإنسان في هذه اللحظة إذا استوعب أفكاره، وأكّد على مضمون معين، وخزنه في نفسه، سوف يفتح له هذا الاختزان آفاقاً في لحظات الضعف. وبعد هذا حينما يفارق هذه الجلوة العظيمة، حينما يعود إلى حياته الاعتيادية سوف يتعمق بالتدريج هذا الرصيد، وهذه البذرة التي وضعها لحظة الجلوة، وهي لحظة الانفتاح المطلق على أشرف رسالات السماء.. تلك البذرة سوف تشعره، وسوف تقول له في تلك اللحظة: إياك من المعصية، إياك من أن تنحرف قيد أنملة عن خط محمد(صلى الله عليه وآله))[114].

إن عملية الاختزان ـ كأسلوب تربوي منتج وفعال ـ يعتمد في الأساس التقاط صور القدوة، لاسيما

(112) نزيه الحسن: السيد محمد باقر الصدر ـ دراسة في المنهج. ص146.

(113) فاضل النوري: سبحات روحية. ص139.

(114) محمد باقر الصدر: أهل البيت: تنوّع أدوار ووحدة هدف. ص53.

الباهر منها، وإيداعها في محفظة أو مخزن أو بنك الذاكرة، وهي ليست عملية أرشفة مجردة للمواقف، وإنما هي ـ كما أشرنا ـ عملية استدعاء لتلك المواقف لتفعل فعلها الإيجابي في (المخزِّن) كما فعلت من قبل في المثال أو القدوة، وبمعنى آخر فإن تخزين المواقف الرسالية والبطولية المشرّفة في منطقة اللاشعور، ولا نميل إلى تسميتها كذلك وإنما نصطلح عليها بمنطقة (الوعي المدخر) سيكون له في وقت لاحق أثره الفاعل والكبير في التربية، حينما يستنزل ـ في المواقف المماثلة ـ إلى مناطق الشعور أو الوعي الحاضر ـ وهو وعي استدعائي ـ إباءً وتحدّياً وبذلاً واستجابة وتضحية.. إلخ.

ولا داعي هنا للقول إن مخزون الصدر ـ الذي عرف الإسلام معرفة واسعة وأبدع في حقوله كلها ـ ثرّ غزير، فهو لا يستحضر محمد بن عبدالله (صلى الله عليه وآله) وعلي بن أبي طالب (عليه السلام) والحسين بن علي (عليه السلام) على مستوى الموقف المعصوم فقط، بل حتى الفقيه (محمد بن عمير) والقائد (يوسف بن تاشفين) على المستوى غير المعصوم أيضاً.

وإذن فهو (رضي الله عنه) يقوم بعملية توظيف واعٍ ورائع للتاريخ وللسيرة، ولا أقول عملية استنساخ حرفيّ لها، لأنّ يعرف بالدقّة متى؟ وكيف؟ وأين؟ ينجبس المخزون المذخور. وحسبنا أن نتصوّر ـ مثلاً ـ كم من المواقف المماثلة أو القريبة الشبه انتجتها كلمات الإمام الحسين (عليه السلام) مثل: ((لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أقرّ إقرار العبيد))، أو ((هيهات منّا الذلّة))، أو ((لا أرى الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برما))، ولنا أن نتصوّر ـ ارتكازاً على هذا المفهوم التربوي ـ أنّ استحضار المواقف الحسينية الطافحة بالإباء هو الذي تسبّب في انتاج سلسلة ضخمة من مفاخر العنفوان ومواقف العزّة التي تهزّ الضمير والوجدان.

وبكلمة مختصرة، فإن عملية التغذية أو التخزين تقفز إلى واجهة الوعي الحاضر، أو تشعّ وتسطع، مسجّلة حضورها الحي والفاعل في حالات المحاصرة والإكراه والإخضاع ومعاكسة الإرادة، الأمر الذي يجعل من مخزون المواقف المشرّفة عاملاً محرّضاً ومحرّكاً ومحفّزاً لطاقات روحية مدخرة تنتقل في ساعات العسرة واللحظات الحرجة من (ظلّ القوّة) إلى (ضوء الفعل)، ومن (المستودع) إلى (فضاء الانتشار والاتساع)، كما لو كانت شيئاً نابعاً من صميم الذات لا شيئاً طارئاً أو دخيلاً عليها، أي انّ التخزين ـ في عمق تأثيره التربوي ـ ليس عملية تجميع فقط، وإنّما هو أشبه شيء بعملية (التمثيل الغذائي) الذي تتحرّر فيه الطاقة بأشكال متعدّدة.

ولنأخذ الآن أمثلة من النصوص الصدرية التي تدلّل على ما كان يختزنه الصدر نفسه، وما كان يريد للأمة أن تخزنه لتعيش الإباء والتحدي والممانعة كما عاشها هو. يقول (رضي الله عنه) في تفسير النص

النبوي ((من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية))[115]. ((إن الارتباطَ بالقيادة جزءٌ من التربية الشاملة الكاملة للإنسان))[116].

ولننظر كيف ارتبط سيدنا الشهيد بهذه القيادة؟ يقول في دعوته للتعامل مع النبي (ﷺ) تعاملاً مباشراً وكأنه يتعاطى معه، كما لو كان حياً، فيعاهده على الالتزام والعمل بما جاء به:

(((ليس كل إنسان يعيش محمداً (ﷺ) مائة بالمائة وإلا لكان كل الناس من طلابه الحقيقيين.. فكل إنسان لا يعيش محمداً إلا لحظات معينة تتسع وتضيق بقدر تفاعل هذا الإنسان برسالة محمد (ﷺ).. إذن ففي تلك اللحظات التي تمرّ على أي واحد منا ويحس بأن قلبه متفتح لمحمد (ﷺ) وأن عواطفه ومشاعره كلها متأججة بنور رسالة هذا النبي العظيم (ﷺ) في تلك اللحظات يغتنم تلك الفرصة ليختزن))[117].

فإذا كانت اللحظات التي عناها السيد الشهيد (رضي الله عنه) تمرّ على أي من المؤمنين، فإنها ولا شك مرّت عليه ـ أي السيد الصدر ـ ليعيش النبي (ﷺ) بقدر تفاعله مع رسالته، وما تأجّج من عواطفه وتشرّب من مشاعره كلها بنور رسالة هذا النبي العظيم (ﷺ)، إلا انعكاس للحظات الحية الكثيرة التي عاشها مع جده المصطفى (ﷺ).

وليس بين أيدينا تصور واضح عن الكيفية التي كان الصدر العظيم يعيش بها محمداً العظيم (ﷺ)، لكن ما يمكن استشفافه هنا أنه كان يستحضر روحه العظيمة وخلقه العظيم ومواقفه العظيمة؛ ليستمد من هذه وتلك عظمته التي شغلت الأعداء قبل الأصدقاء، فكان مثالاً للتأسي بالنبي (ﷺ) تأسياً يترسّم فيه الخطى، ويتتبع فيه الأثر، ويستلهم فيه الروح لا استلهاماً شعرياً أو شعورياً مجرّدا.

أما اختزانه لعلي (عليه السلام) فيتجلى من خلال عدة نصوص: يقول في محاضرة (حب الدنيا): ((علي بن أبي طالب كان يعمل لله سبحانه.. لم يكن يعمل لدنياه.. أليس هذا الإمام هو مثلنا الأعلى؟!.. علينا أن نحذر من حب الدنيا))[118].

ويمكن التعرف على مدى الاختزان الصدريّ للتجربة العلويّة من خلال تساؤلاته الحادة الآتية:

(115) المجلسي: بحار الأنوار. ط بيروت. ج8. ب27. ح41. ص368.

(116) صحيفة الموقف: العدد 55. محمد الحسيني. (مفاهيم تربوية من وحي فكر الإمام الشهيد الصدر).

(117) محمد باقر الصدر: أهل البيت ـ تنوّع أدوار ووحدة هدف. ص53.

(118) محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية. ص169.

ـ أليس هذا الإمام هو مثلنا الأعلى؟

ـ أليست حياة الإمام هي سنّة؟ كما هي حياة المصطفى وأهل بيت المصطفى (عليهم السلام).

ـ أليست السنّة هي قول المعصوم وفعله وتقريره؟

إن لهذه الأسئلة أو التساؤلات لجواباً واحداً عند الصدر لا غير.. وهو أن علياً (عليه السلام) هو ذلك كله، وكما أدار عليٌّ (عليه السلام) للدنيا ظهره وطلّقها ثلاثاً لا رجعة له فيها، أرانا الصدر (رضي الله عنه) كيف يمكن أن يزهد بالدنيا من يقتدي بعلي (عليه السلام) وهو في موقع القيادة للأمة.

ونقرأ استحضاره وتمثّله لعلي (عليه السلام) في نص آخر: ((كانت مهمته الكبرى هي أن يحافظ على وجود الأمة على أن تتنازل عن وجودها.. لم يكن يفكّر فقط في الفترة الزمنية التي عاشها.. وإنما كان يفكّر على مستوى آخر أوسع وأعمق.. هذا المستوى يعني أن الإسلام كان بحاجة إلى أن تقدّم له في خضم الانحراف بين يدى الأمة أطروحة واضحة صريحة نقية لا شائبة فيها ولا غموض، لا التواء فيها ولا تعقيد، لا مساومة فيها ولا نفاق ولا تدجيل.. كان يريد أن يقوم المنهاج الإسلامي واضحاً غير ملوث بلوثة الانحراف التي كتبت على تاريخ الإسلام مدة طويلة من الزمن، وكان لا بدَّ لكي يتحقق هذا الهدف من أن يعطي هذه التجربة بهذا النوع من الصفاء والنقاء والوضوح دون أن يعمل بقوانين باب التزاحم))[119][120].

هذا التمازج بين (المثل) و(التمثّل) هو عملية مزدوجة: في وقت ما هي عملية (استبطان) واختزان، وفي وقت الاستدعاء هي عملية إبانة واستظهار واستحضار واستخراج.

واستناداً إلى ذلك فإنه (أي السيد الصدر) سعى المسعى نفسه ليقدّم في خضمّ الانحراف الجارف أطروحة واضحة صريحة نقية من دون أن يعمل بقوانين التزاحم، أي إن سلّم الأولويات كان مبوّباً لديه بما لا يسمح بتقدّم أولوية على أولوية، رغم ما يمكن أن يتذرع به غيره من حجج شرعية تقعده عن هدف إعطاء التجربة هذا النوع من الصفاء القاطع، والوضوح الساطع.

وعودة إلى ما يصطلح عليه السيد الشهيد (رضي الله عنه) ببناء المحتوى الداخلي، نراه يؤكّد أن أولى الخطوات في هذا البناء الهرميّ هي اتخاذ (المثل الأعلى) الذي يمثل الخالق الربّ العظيم حقيقته الكبرى،

(119) محمد باقر الصدر: أهل البيت ـ تنوّع أدوار ووحدة هدف. ص12 ـ 14.

(120) المراد هنا غضّ الطرف عن معاوية في البدء حتى يستّتب الأمر لعلي (عليه السلام) ومن ثم يقوم بتصفية الحساب معه، الأمر الذي لم يقره علي (عليه السلام) لأنه لم يرد إقرار معاوية على وضعه اللاشرعي ولا حتى لحظة واحدة.

وما دونه من أنبياء ورسل وأولياء مُثلاً منبجسة ومتفرعة عنه بمقدار ما تمثله من اندكاك بالسماء وبرسالتها وبما تحمله من مسؤولية الأمانة والاستخلاف والشهادة، فيتساءل:

((ما هي نقطة البدء في بناء هذا المحتوى الداخلي للإنسان؟ وما هو المحور الذي يستقطب عملية بناء المحتوى الداخلي للإنسانية))؟

ثم يجيب: ((المحور الذي يستقطب عملية البناء الداخلي للإنسانية هو المثل الأعلى))[121].

فمن المثل الأعلى كحجر أساس تنطلق عملية البناء التربوي الرصين، والمثل الأعلى عند السيد الصدر (ﷺ) واحد متعدد، بمعنى أنه على تعدده يلتقي في كونه من الله وإلى الله وفي سبيل الله، ولذا أمكن القول: إن مثل الصدر الأعلى هو:

1 ـ الله سبحانه وتعالى، وذلك من خلال الدعوة إلى التشبه بأخلاق الله.

2 ـ النبي (ﷺ) والأئمة من آل بيته (عليهم السلام): (أُولٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ)[122].

3 ـ التلامذة الأبرار من مدرسة الإمامة: (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا)[123].

ولمّا كان الحديث قد تقدّم عن المثلين الأعليين الأوليين، فإن الحديث عن المثل الأعلى الثالث نستوحيه أيضاً من نصوص الصدر الشهيد (ﷺ) ذاته.

المثل الأول للاختزان: محمد بن عمير.. صمود الفقيه وصلابته

يقول بعض من قرأ رواية السيد الصدر عن الفقيه المجاهد (محمد بن عمير): ((فهو عندما يتحدث عن المحدث الثقة محمد بن أبي عمير وعن صبره تحت سياط الجلادين، إنما كان يتحدث عن نفسه في حقيقة الأمر، وحينما كان يتحدث عن التضحية بالمصالح الصغيرة في سبيل المصلحة الكبرى، إنما كان يتحدث عن قناعة في نفسه راسخة))[124].

ولذا فهو يحوّل النص التاريخي إلى حوار حي ينبض بالحركة بين المعتقل والجلاد، وكأنه كان

(121) محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية. ص107.

(122) الأنعام: 90.

(123) الأحزاب: 23.

(124) محمد باقر الصدر: دراسات في تأريخه وفكره. ص612.

يحتفظ في ذهنه بسيناريو دوّنت فيه الحركة مع الكلام مع الصور.. فيعقّب على صمود محمد بن أبي عمير ورفضه الاعتراف بأسماء الصحابة وتحمّله مصادرة أملاكه بصبر واحتساب، فيقول: ((هذا الكيان الذي تمتلكه الحوزة العلمية اليوم، هو الكيان الذي انبثّت فيه آلام محمد بن أبي عمير ومئات من أمثال محمد بن أبي عمير))[125]. إنه يضع نفسه أمام تلاميذه وأمام محبيه ومعتنقي أفكاره قائلًا: إنني سأكون في المحنة كمحمد بن أبي عمير فلتكونوا أنتم كذلك. إن اختزان ابن أبي عمير في وعي الإمام الصدر (ﷺ) اختزانٌ حي فاعل ماثل للعيان نابض بالحركة المحرّكة، ولنتأمل كيف نظر إليه السيد الشهيد (ﷺ): (ماذا قال هذا الفقيه الصالح؟ ماذا قال هذا الإنسان الذي يمثل نتاج مدرسة الإمام جعفر بن محمد الصادق؟.. فهو في قمة المحنة لم يشأ أن ينحرف قيد أنملة حتى عن التعاليم والوصايا الأخلاقية التي ذكرها جعفر بن محمد الصادق(عليه السلام))[126].

ثم يصف رفض محمد أن يبيع زبونٌ مَدينٌ له داره ليوفيه دينه الذي عليه، وعلى الرغم مما كان عليه محمد من أزمة مالية خانقة: ((لا يطلب الحياة إلا لكي يضرب المثل الأعلى للإنسان المسلم في أخلاقه وسلوكه وسيرته))[127]. فماذا نستفيد من تحليل السيد الشهيد (ﷺ) لموقف محمد بن أبي عمير؟

إنه يعتبره فقيهاً صالحاً، ونتاجاً مخلصاً لمدرسة الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) وإنه في كل ما كان يتصرف يحاول أن يكون المثل الأعلى في الأخلاق والسلوك والسيرة، وهكذا هو السيد الشهيد (ﷺ). إن موقف بن عمير هزّ السيد الصدر (ﷺ) هزّة طربٍ وإكبار وإجلال، فامتلأ وانتشى بروحه المتعالية على وقع السياط وصلافة الجلّاد، وكأنه كان يقول لطلابه، غداً عندما أُعتقل وأسجن واعذّب، فسأكون كابن عمير في الصلابة، فلقد وفّى الفقيه (محمد) تلميذ (حمران) دوره كاملاً، ولا بدَّ من تعزيز وترسيخ واحياء لذلك الموقف كلما استعاد الظرف اختناقه.

نحن هنا إذن أمام (وحدة المسيرة) واندغام حلقاتها المشرقة بعضها ببعضها الآخر، وذلك ما رمزنا إليه بـ(وراثة الخط) أو تعاقب حلقات الصلاح، كما في (دعاء الإمام علي بن الحسين (عليه السلام)) المشهور بدعاء (أبي حمزة الثمالي): ((اَللّـهُمَّ اَلْحِقْني بِصالِحِ مَنْ مَضى، وَاجْعَلْني مِنْ صالِحِ مَنْ بَقي وَخُذْ بي سَبيلَ الصّالِحينَ، وَاَعِنّي عَلى نَفْسي بِما تُعينُ بِهِ الصّالِحينَ عَلى اَنْفُسِهِمْ، وَاخْتِمْ عَمَلي بِاَحْسَنِهِ، وَاجْعَلْ ثَوابي مِنْهُ

(125) محمد باقر الصدر: دراسات في تأريخه وفكره. ص640-173.

(126) هكذا قال الصدر. ص27.

(127) المرجع السابق. ص28.

الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِكَ، وَاَعِنّي عَلى صالِحِ ما اَعْطَيْتَني، وَثَبِّتْني يا رَبِّ)).

والحوزة العلمية اليوم هي كيان قيادي تقف رموزه الريادية من (محمد بن أبي عمير) إلى (الإمام الخميني) و(محمد باقر الصدر) وإلى من تبعهم بإحسان، كحصون واقية من الانحراف. فهي ـ أي الحوزة ـ لم تنبتّ فيها آلام هؤلاء فقط، بل رفعت رأسها عالياً بمواقفهم وإنجازاتهم الفريدة التي حفظت لكيان الحوزة ألقه وحضوره في قيادة الأمة، وتحصينها من الانحراف بتقديم قيادتها الرشيدة المثل الأعلى. فهي تستسقي من مَثلٍ أعلى سابق وأسبق منه، وتموّن بالقوة موقع المرجعية القائدة من يلحقوا بها ويسيروا على أثرها.

وثمة ملاحظة جديرة بالتأمل، وهي أن الموقف الرسالي المشرّف ـ كما في مثال بن أبي عمير ـ هو ولّاد مواقف ـ إذا صح التعبير ـ فهو كما هزّ في نفس السيد الشهيد (ﷺ) أوتاراً حساسة، قادر دائماً على أن يهزّ في نفس كل مؤمن ومؤمنة أمثالها حسب درجة التلقي، على الطريقة القرآنية (أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا)[128]، الأمر الذي يعني أن الموقف الرسالي ليس موقفاً آنياً ولا شخصياً، فآنيّته تخرج من إطارها الزمني المحدود لتمتد مع حركة الزمن كله، وشخصانيته تخرج من محورها الذاتي المحدود لتكون معيناً لا ينضب ـ للأجيال المقتفية الأثر ـ وهذا هو الأثر الساري والممتد للمثل الأعلى إنه أثر لا يندثر باندثار الأيام.

المثل الثاني للاختزان: يوسف بن تاشفين.. حسن الظنّ والثقة بالله

وكما (محمد بن أبي عمير) كذلك هو (يوسف بن تاشفين) أمير المغرب الذي نزل البحر مع أسطوله وجيشه لينقذ المسلمين في إسبانيا من الغزو المسيحي، فلقد دعا الله أن يسكن البحر وتهدأ العاصفة بقوله: ((اللّهم إن كنت تعلمُ أني حسنُ النية فأسكن عنا هذه العاصفة))[129]، وهكذا قدّر لابن تاشفين أن ينقذ المسلمين في إسبانيا ويؤخر ـ كما يقول السيد الشهيد ـ مأساتهم أربعة قرون.

ونترك للسيد الصدر (ﷺ) أن يستلّ لنا الدرس التربوي من قصة يوسف بن تاشفين حيث يقول:

((لا بدَّ من أن يعيش الإنسان خطه الطويل متصلاً بالله تعالى، حتى يمكنه أن يترقب من الله الاستجابة لدعائه.. الإمداد والمعونة والمساندة والمعاضدة له في عمله))[130].

(128) الرعد: 17.

(129) هكذا قال الصدر. ص52.

(130) هكذا قال الصدر. ص55.

وننتهي من هذا التطلع إلى المثل الأعلى، اقتداءً وتجسيداً، إلى محصّلة يخلص إليها السيد الشهيد (رضي الله عنه) وهي أن الانشداد إلى المثل الأعلى الحقيقي أو الأكبر وهو الله تعالى والمثل العليا التي تنتمي إليه (نبوة وإمامة ومرجعية) يؤدي إلى صفاء الشخصية الإسلامية ونجاتها من شرك الإزدواجية والتناقض. يقول سيدنا الشهيد أعلى الله مقامه:

((الجدل الإنساني قائم بين (حفنة التراب) التي تشدّ الإنسان إلى السفح، وبين (أشواق الروح) التي تحلّق به نحو القمة، حيث المثل الأعلى الحقيقي نحو الله.. وما لم ينتصر أفضل النقيضين في ذلك الجدل الإنساني فسوف يظل هذا الإنسان يفرز التناقض تلو التناقض))[131]. وأفضل النقيضين ـ كما هو واضح ـ هو الانشداد إلى الله لا إلى الدنيا.

هذا المبدأ التربويّ فائق التأثير يستدعينا أن نقف عند دلالاته التي تدعو إلى (التأسيّ العملي) بكل نموذج رسالي اندكّ بمبدأه حدّ الثبات والجدارة والتألّق، فمن الواضح أن اغتنام لحظات الجلوة[132] للاختزان والتخزين لا تشمل (المواقف) فقط بل (الأفكار) و(المفاهيم) و(العلاقات) و(العواطف) و(الأعمال الصالحة)، وسائر تجليات الأصالة في شخصية (المختَزن) بغية استدعائها من قبل (الخازن) أو (المُختزِن) وقت الضعف، وتزلزل الأرض، وانسداد الأفاق، لتفتح هي بدورها آفاقاً ما كانت لتفتح لولا هذا الخزين الثرّ الذي يتدفق ساعة الحاجة اليه تدفقَ الينبوع مُنبجساً من بين تلافيف الحجارة وطبقات الصخور.

واذن فـ(الاختزان) عملية (آنية) (استبطانية) واعية – في وقت الإيداع- تقوم على الادخار بوعيٍ كامل لقيمة ما يراد له أن يُختزن، وعملية أخرى (مستقبلية) (استدعائية) هي عملية (تفجير المخزون) أو السحب من رصيده، وهذا الذي نلمسه في استرجاع قضية الحسين (عليه السلام) في نهضته ضد الظلم والطغيان، ليكون حاضراً بقوّة يقود الثائرين إلى زلزلة عروش الجور والبغي والإفساد في الأرض في شتى الأزمنة.

غير أن الاختزان، لا يحدث لمرة واحدة ثم يتوقف، بل هو قابل للتنمية في كل لحظة من لحظات الجلوة المتتابعة، وهو هنا بمثابة ضخّ روحي جديد إلى أصل الرصيد المودع، يهدف في ما يهدف إلى تحسين الذات،ورفع زخم الكفاءة، وإيقاد جذوة العزم والحماسة والممانعة، وتحريض المثابرة والمصابرة

(131) محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية. ص138.

(132) (الجلوة) هي الانكشاف، والوضوح، والتجلّي، وهي لفظة صوفية تعني اشراق قلوب المريدين بنور الله، ويرى (محي الدين بن عربي) أنها تبتدئ بالخلوة (محادثة السرّ) والخروج منها بالنعوت الالهية، فيما يرى (الفيض الكاشاني) أن الخلوة تتضمن الصمت إلا عن ذكر المحبوب والإعراض عن غيره، وإنها أم الرياضة فإذا زوّجت بالذِكر ولدت (حسن المشاهدة).

والإباء، من خلال وعي نامٍ للتاريخ التحريضي إلى درجة مثوله واقعاً يعاش، وكأن الذي يقاتل العدوان الجديد يقاتله باسلحة العصر، لكنه يحمل في جنبيه روحَ الحسين (عليه السلام) الباسلة الباذلة المقاتلة، ونبل وشهامة وشجاعة أنصاره، هو في عمق اختزانه على خط الثورة الحسينية لكنه يُرابط في جبهة أخرى من جبهاتها، وهذا هو الذي يجعل من (الثائر الحسيني) ليس وريثاً لخط النبوات فقط، بل وريثاً للخط الحسيني أيضا بصفته مُصهِرا لكل ذلك التراث الربّانيّ القيم في بوتقة نهضته الولاّدة لنهضات ونهضات، وانتفاضات وانتفاضات، وثورات وثورات... الخ.

خصائص الاختزان: واذا اتضحت قيمة الاختزان وفعله، كان لا بدّ من تبيّن خصائصها في كونها اسلوباً للتربية الذاتية، بمعنى أن (الخازن) هو الذي يُقبل عليها بمحض ارادته، وأنها قناة تفاعلية مع النموذج المَصدر، وباعتبارها محاكاةً إيجابية تستدعي جلال الموقف وامتلاءه، وإن كان ذلك ضمن معطيات زمنية مختلفة، وبمعنى آخر أن الإختزان ليس (استنساخاً) مجرداً، بل هو (تمثّل) شبيه إلى حدٍ ما بـ(التمثيل الضوئي) الذي يهب النبات خضرته وديمومته ونمائه، وسرَّ عطائه، فلا يكفي اختزان من غير (تعزيز) و (تغذية) و(شحن موصول) لتكون حصيلة التفاعل (قناعة + تعزيز للقناعة) و(إرادة + تعبير وانفاذ للإرادة) وفي كل الأحوال (الاختزان) وسيلة للإيقاظ والشحذ الفكري والروحي والسلوكي معاً.

أنواع الاختزان: (الاختزان الإيجابي) في عموم توصيفه ليس اختزانا واحداً هو (أرشفة) لكل صور الابداع الإيماني، والثوري، والفكري، والابداعي، والتفاعلي مع معصومٍ على درجةٍ عاليةٍ من العصمة، أو بارٍّ على درجة ممكنة من درجات الطهارة والجدارة والبراعة والأهلية.

كما يمكن تصنيفه ـ من حيث النوعية ـ على أنه (اختزان مفهومي) كمفاهيم السُنن التاريخية، والمفاهيم القرآنية، والروائية، والاخلاقية، والحكميّة، و(اختزان نموذجي) في استلهام أية شخصية حائزة على موفور من مؤهلات التأسي بها في هذا المنحى أو ذاك .وكلما كان النموذج أرقى أدى إلى مخرجات أروع ومنتجات أكمل.

وبإمكاننا تصنيف الاختزان من حيث (الدافعيّة) الى اختزان (خامل) غير فعّال، ما هو إلا (شحم ثقافي) يصيبُ بالترهل ولا يموّن بقوة دفع، واختزان آخر (فاعل) أو فعّال، أو متفاعل، قويٌّ بنفسه ومقوٍّ لغيره، أي يتحول هو الاخر إلى قوة دافعة ومحمّسة لغيرها، وهذا ما نطالعه في سير القادة الاستشهادين الذين موّنوا أرواحهم بطاقات حسينية مختزنة، وتدفقوا في الميدان عطاءً أريحياً محرّضاً، وعلى ذلك فاختزان قصص الاريحية والبطولة والفداء والمروءة والسخاء والنبل، يجعل البطولة متعددة، والخط موصولا، والجذوة متقدة، والرصيد غير قابل للنفاد.

كيف يعمل مبدأ الاختزان؟ جواب هذا السؤال يمكن اختصاره بأن الاختزان يعمل باتجاهين :(عملية تحميل) وقت الاختزان (وقت الجلوة والتفاعل الوجداني) تتحول في وقت الاستدعاء و الحاجة والاستحضار الحيّ الى (عملية تشغيل أو تفعيل) أي إنها حاضرة وجاهزة لكي تنتقل من (القوة) إلى (الفعل) بدافع حركي قائم ينقلها من (رصيد حركي مجمّد) إلى (سيولة حركية) أو من (شحن مذخور) إلى (تحرير للطاقة). فما يقوم به (المُختزِن) ـ عند الاستدعاء ـ هو أنه يفعّل غير المفعّل، بأن يستخرجه من (منجمة) أو (مَقلَعه) إلى (منصة التعدين). إنّ بطارية (الاختزان) - إذا جاز تصوير وظيفتها الأدائية - تعمل بالخطوات الآتية:

أولاً: الإستحسان، والإشادة، والانبهار، ثم التقاط الصور الذهنية والوجدانية الباهرة، لتقوم ذات المخزِّن الواعية بما يشبه الأرشفة الوثائقية، أو تخزين البيانات، وتودع ذلك كله لا في خزانة الذاكرة أو ترقده على رفّها فقط، بل تدفع به إلى حواضن الروح والعقل أيضا.

ويمكن تصويرها على أنها استخراج (للمخزون الاحتياطي) في جلوة الموقف الجديد ،ليدعم دوافعا حاليّة أو واقعيّة تتطلب استنفاراً عالياً للمخزون، بحيثيات الظرف الموجب للاستثمار. وإذا كان بطل القصة الأول محرّضا وباعثا ومحرّكا وشاحذاً للعزائم، فإن الرصيد المخزَّن أو المختزن لن يأتي عليه يوم ينفد لكثرة السحوبات أو الاستدعاءات، ولن تنتهي صلاحيته في وقت ما، بل هو قادر على أن يجدّد نفسه، ما دامت هناك (جلوات)مستحدثة تتبعها (جلوات)، فالموقف الأول الإنساني النبيل والهاز للمشاعر (ولاّد مواقف) أخرى ولو بنسب مختلفة أو متباينة بحسب القدرة الاختزانية لهذا المخزّن أو ذاك ،ويبقى السؤال المهم: لماذا لا يعمل مبدأ الاختزان على وتيرة واحدة في جميع الظروف والأحوال؟

أو لنضع السؤال بهذه الصيغة: لماذا يفعل فعله مع بعضنا ولا يفعله مع بعضنا الآخر؟ في الإجابة نتحرى الاحتمالات الآتية:

1. ذلك يعتمد على (الفهم المَدرسيّ للمُختَزَن) فقد تبقى صور الاختزان لامعةً مشعة بارقة امام النظر، متراقصة عند السطح ولا تتغلغل إلى الاعماق، شأنها شأن الماء الذي إذا وجد منافذ مُستقبِلة اندس في جوف الأرض، وإذا عاندته ساح ليجف ويذهب سُدى.

2. والسؤال الملحق أو المعاكس :ما الذي يجعلها تتغلغل أو تنفذ إلى العمق؟ إنه الشعور التفصيلي بالله، كما عبّر عنه السيد الصدر، إنه الاختزان الفاعل لدرجة وكأن (الخازن) هو الذي يستحدث (المخزون) ولا يستدعيه فقط! اي يسكب عليه من حرارة وجدانه، لا كمن يستخرج (ذكرى باردة)

.فإذا كان الاختزان اشبه بـ (البذرة) فهو بحاجة دائمة إلى ريّ وتعهد وتعزيز وتناغم وجداني حار، سواء بالمحاورة الداخلية أو مزيد من القراءة أو بالاصغاء إلى سيرة المختزن بأذن داخلية.

3. وربما أمكننا القول بأن لدينا احيانا (اختزان أبتر) فأهل الكوفة اختزنوا الحسين (عليه السلام) وريثا شرعياً للنبوة، وقيادة ربانية مؤهلة للثورة ضد الطغيان الأموي، لكنهم لم يختزنوا مبدأ التضحية والفداء في سبيل المبدأ و(الرسالة)، وبعبارة أخرى، فإن إيمانهم بـ(ببطل الخط) لم ينتقل إلى مرحلة إيمانهم بـ(خط البطل) .

ويبقى السؤال المحوري مَحكّاً للاختبار الدائم كما أثاره السيد الصدر في محاضرة (حب الدنيا): هل هذا المخزون الثقافي والروحي والوجداني والنهضوي كشعار وكفكرة محلقة في فضاء الوجدان هو بمستوى المواجهة والتحدي عندما تُعرض علينا دنيا هارون الرشيد، فلا نسجن موسى بن جعفر (عليه السلام)؟! وعلى ذلك امكن القول إن الاختزان ليس (محفوظة وجدانية) بل هو (طاقة إيمانية).

الشعور بحتمية الانتصار:

إن الشعور الإيماني الواثق أن مآل الجهاد في سبيل الله إحدى الحسنيين، هو في جوهره لون من ألوان الوعي التاريخي للمسيرة الإسلامية، فالدعاة إلى الله ـ وعلى الرغم من كلّ العقبات التي تصطفّ في طريقهم وتنشب أظفارها في قلوبهم ـ لا يتجمدون عند اللحظة الراهنة التي قد تعصف فيها المحن، وتشتدّ المصائب، وتزداد المصاعب، وتتراكم الابتلاءات، وتتعاظم التحدّيات، وربما الهزائم والخسائر والتضحيات الجسيمة بحيث لا يبدو في الأفق أي بصيص للأمل (حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ)[133]. فالمؤمن حق المؤمن لا يرى في معاناته إلا بارقة أمل في أن شمس الفرج قائمة مستبطنة بين تلافيف الغيوم (إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)[134]. أي إن للمؤمن عيناً ترى ما لا يراه غيره، فهو لا يرى في المصائب التي تلمّ به إلا جميلاً، وفي الابتلاءات إلا ألطافاً خفية لا يشعر بها من لم يذق قلبه حلاوة الإيمان. فالمؤمن الحقّ هو كعلي (عليه السلام) في أيما محنة يمرّ يهتف عالياً: ((فزت ورب الكعبة))! ولنطلّ على شخصية السيد الشهيد (رضي الله عنه) التاريخية من خلال نافذة هذا النص الذي ينبئ عن شعور عميق بالانتصار: ((إن المحتوى الداخلي للإنسان هو الأساس لحركة التاريخ التي تتميز عن كل الحركات بأنها حركة غائية لا سببية فقط، غائية متطلعة إلى المستقبل. فالمستقبل هو المحرك لأي نشاط من النشاطات التاريخية. والمستقبل معدوم فعلاً، وإنما يُحرِّك من خلال الوجود الذهني الذي هو الحافز والمحرك والمدار لحركة التاريخ. وهذا الوجود الذهني يعبّر بجانب منه عن (الفكر)، وفي جانب آخر

(133) البقرة: 214.

(134) الانشراح: 6.

منه عن (الإرادة)، وبالامتزاج بين الفكر والإرادة تتحقق فاعلية المستقبل ومحركيته للنشاط التاريخي على الساحة الاجتماعية. والمحتوى الداخلي الشعوري للإنسان يتمثل في هذين الركنين الأساسيين، وهما الفكر والإرادة))[135].

إلى ماذا يرشدنا السيد الشهيد (ﷺ) في نصه هذا؟ إنه يُلفت عنايتنا إلى أنّ التاريخ بما هو حاضر في اللحظة التي يُصنَع فيها، وبما هو ماض بالنسبة للحظة التي نحن فيها، يتجه بنظره وبخطواته أو سيرورته إلى الغد، ولذا فإن المستقبل هو مدار حركة التاريخ، وهو ـ أي المستقبل ـ يستند إلى ركيزتين أساسيتين: (الفكر) على مستوى النظرية والرؤية والبصيرة. و(الإرادة) على مستوى الفعل والتنفيذ والممارسة، وبغير هذين الجناحين أو القدمين لا يمكن للفعل التاريخي أن يسير نحو المستقبل.

وعلى هذا الاعتبار، فإن انطواء حركة السيد الشهيد (ﷺ) على فكر خلّاق وإرادة صلبة، يفتح أمامنا مستقبلاً مشرقاً يخرجنا من دائرة حاضرٍ يُطبق عليه الظلم والظلام من كل صوب إلى فضاءات النور الرحبة. فهو يقول لنا بلسان حال حركته: إن فكراً كهذا، وإرادةً كهذه قادران على أن يصنعا مستقبلا مشرقاً، كما صنعا من قبل، وكما هما الآن يفعلان، وكما سيصنعان في المستقبل. فالمحتوى الداخلي للإنسان هو الأساس المتين لحركة التاريخ، وهو قائم على فكر وعلى إرادة صلبة متينة، وهذا ليس مرهوناً بإنسانٍ بعينه ولا زمانٍ بذاته ولا مكان معين.

ويمكن أن نستوحي هذا الإحساس بالمستقبل وضرورة البناء والتمهيد له من خلال نظرة السيد الشهيد (ﷺ) لتجربة الإمام علي (عليه السلام) حينما يقول عنه: ((كان يعيش لهدفه ولم يكن يعيش لمكاسبه، ولم يتردد لحظة وهو في قمة هذه المآسي والمحن في صحة ماضيه وفي صحة حاضره، وفي أنه أدى دوره الذي كان يجب عليه، هذه هي العبرة التي يجب أن نأخذها))[136].

العيش للهدف إذن هو حركة باتجاه المستقبل، وقد يموت الإنسان حتفَ هدفه، وقد يقطع شوطاً أو أشواطاً إليه ويخفق في الأخرى، لكن السيد الشهيد (رض) يرى أن أية مرحلة يصلها أو يقطعها السائر إلى الله فإنها توصله إليه، فالرحلة إلى الله ليست كالرحلة الجغرافية بين نقطتين لا بدَّ أن تبلغ بها المقصد وهو نقطة الهدف، فكلّ شوط منها هدفٌ بذاته. وهذا هو الذي رمى إليه الإمام زين العابدين (عليه السلام) في تصويره الحيّ للمسألة، بقوله: ((إن الراحل إليك قريب المسافة))[137]. وحيثما يدرك الموتُ

(135) محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية. ص105.

(136) هذا النص والنصوص التي تليه قالها السيد الصدر (ﷺ) في تقييمه لتجربة الإمام علي (عليه السلام) وهي مأخوذة من كتاب (أهل البيت تنوّع أدوار ووحدة هدف). ص14 - 30.

(137) من دعاء (أبي حمزة الثمالي).

الإنسانَ المهاجرَ إلى الله أو السالك إليه فقد وقع أجره على الله.

ومن هنا فإن تعليق الآمال على الأرباح الحاضرة والمكاسب الآنية قد يكون عقبة في طريق الإنسان العامل، أو صارفاً له عن الهدف الأكبر، أو مقلّلاً من قيمة الإخلاص، وربما ينسفه نسفاً. وهذا هو ما يؤكده السيد الشهيد (ﷺ) لاحقاً حيث يقول: ((يجب أن لا يُجعل مقياسُ سعادةِ العامل في عمله هو المكاسب، بل كون العمل حقاً وكفى، وحينئذ سوف نكون سعداء سواء أثّر عملنا أو لم يؤثّر.. سواء قدّر الناسُ عملنا أم لم يقدّروا.. سواء رمونا باللعن أو بالحجارة. وعلى أية حال، سوف نستقبل الله ونحن سعداء لأننا أدّينا حقنا وواجبنا، وهناك من (لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا)[138])).

وهذا المقطع من النص يؤكد أهمية استشعار المُستقبَل كمحرّك أو دافع حركيّ لنشاط الإنسان المؤمن، وحتمية الانتصار في النهاية، حيث نقف فيه على حقيقة أن (مقياس السعادة) هو (رضا الله سبحانه وتعالى): (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)[139]، (وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ)[140]، (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)[141]، و(الرضا) أو (الرضوان) هدف أقصى وهو في نيل غايته مستقبلٌ، وقد يتلمس الإنسان المؤمن بعض مصاديق الرضوان في الحياة الدنيا، لكن الرضوان الأكبر هو ما ينتظره في اليوم الآخر وفي الدار الآخرة. ثم إنه (ﷺ) يقدّم منظوراً آخر للمستقبل وللانتصار حينما يضيف: ((وحقانية العمل هي كون العمل حقاً وكفى)).

فحقانية العمل تكتب له الدوامَ كخط لا يمحى (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ)[142]، رغم جولات الباطل وبطشه وتجبّره وانتصاراته الآنية، فمجرد كون العمل حقاً هو انتصار حتى ولو لم يحقق العامل الانتصار[143]. وقوله (ﷺ): ((سوف نستقبل الله ونحن سعداء لأننا

(138) الكهف: 18.

(139) المائدة: 119.

(140) التوبة: 72.

(141) الضحى: 5.

(142) الرعد: 17.

(143) ترد هنا مقولة علي الأكبر (عليه السلام) إلى أبيه الإمام الحسين (عليه السلام) يوم عاشوراء: أبه! أولسنا على الحق؟ فيجيبه: بلى. فيردّ الأكبر: فوالله لا نبالي وقعنا على الموت أم وقع الموت علينا! مستوحياً ما قاله جدّه أمير المؤمنين (عليه السلام) عندما سمع النبي (صلى الله عليه وآله) يخاطبه في نهاية خطبته باستقبال شهر رمضان: وفي مثل هذا الشهر يخرج اشقى الآخرين ليخضب هذه (اللحية) من هذا (الرأس)، فيقول له الإمام علي (عليه السلام): أو في سلامة من ديني يا رسول الله! فيقول له: بلى! فيردّ بكامل اليقين: لا أبالي إذن خرجت إلى الموت أم خرج الموت إليّ.. ان انتصار الحقّ هو سلامة الدين بانتخاب طريق الحقّ والدفاع المستميت عن الحقّ.

أدّينا حقنا وواجبنا، وهناك من (لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا)[144])).

يعني أن الإيمان باليوم الآخر والعمل لذلك اليوم الحق هو تفكير دائب بالمستقبل المضمون ضمانةٌ أكيدة، فلا شيء يضيع هناك البتة. وأقرب تشبيه مادي للعمل للآخرة هو (الايداع في الرصيد) مع الفوائد الربّانية المترتبة على ذلك، ذلك ان (الصدقات) وخيرها (الباقيات الصالحات) تربو عند الله وتنمو وتزداد أضعافاً مضاعفة. فالمهم أن تؤدي حقك وواجبك ومسؤوليتك الشرعية ولا عليك بعد ذلك إن هُزمت أو خسرت أو انكسرت أو لم تجن ثمار عملك في الحاضر، أو جنيت بدلاً عن ذلك انعدام الاستجابة، أو عدم التقدير، أو الرمي باللعن أو بالحجارة أو بالجنون (دعوة نوح (950) (عليه السلام) سنة في ساحة مجتمعية جدباء، نموذجاً).

الأعمال ـ كما في الحديث ـ بخواتيمها. يقول عيسى (عليه السلام) مخاطباً الحواريين: ((يقولون لكم البناء بأساسه، واقول لكم: البناء هو آخر حجر يضعه البناؤون))! ولا تنافي بين (أساس التقوى) و(حصاد التقوى)!

ثالثاً: الوعي الميداني

غني عن البيان، أن المراد هنا بـ(الوعي الميداني) ليس هو العلم بالمكان والزمان والإنسان في المدة أو البقعة التي يعيش فيها (الشاهد) المصلح أو المغيّر أو العامل الرسالي عموماً، مع الأهمية الفائقة لذلك. فـ(العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس). ولكن ما نحن بصدده ليس هو العلم المحيطُ بحقائق المكان ومتطلباته، ولا بطبيعة الزمان ومقتضياته، ولا بالإنسان المعاصر من حيث حاجاته أو اهتماماته الأساسية فقط، إنما المراد من الوعي بالمكان والزمان والإنسان أخلاقياً أن تأتي مواقف وتصرفات وأفعال العامل الرباني (الشاهد) متوافقة مع ما يتطلبة الواقع والمرحلة وأبناء الجيل من أخلاق عملية تنتشل المجتمع من وهدة التخلف الأخلاقي، مما يمكن أن يصاب به من أمراض أخلاقية فاسدة مزمنة أو طارئة ودخيلة تبعده ـ كثيراً أو قليلاً ـ عن هويته وطابعه الإسلامي، فتصبح الأمة بحسب تعبير السيد الصدر (رضي الله عنه) ـ (الأمة الشبح) التي لا كيانية حقيقية لها.

وهذا الوعي ـ الذي هو في حصيلته نتاج الوعيين السابقين: الذاتي والتاريخي ـ هو مما كان قد ركّز عليه سيدنا الشهيد (رضي الله عنه) بالنصوص المقترنة بالتجربة تارة، وبالتجربة المؤيَّدة بالنصوص الإسلامية المستنبطة من كتاب الله تعالى وسنة نبيه (صلى الله عليه وآله) وسيرة الأئمة المعصومين من أهل بيته (عليهم السلام) وسيرة المراجع الراشدين، ممن مثّلوا خط الشهادة أصدق وأوفى وأنبل تمثيل تارة أخرى. ولذا فبوسعنا أن

(144) الكهف: 18.

نستقرأ مصاديق أو مفردات هذا الوعي من خلال الدائرتين التاليتين:

الدائرة الأولى: أخلاقية الإنسان العامل

الدائرة الثانية: أخلاقية العلم

الدائرة الأولى: أخلاقية الإنسان العامل

لنقرأ هذه النصوص الصدرية أولاً:

أ ـ ((إننا ندرس العلمَ للعمل، ولا ندرس العلمَ كي نجمّده في رؤوسنا. ونحن ورثة الأنبياء بحسب زعمنا. والأنبياء عاملون قبل أن يكونوا علماء.. هم علماء لكي يكونوا عاملين، وليسوا عالمين من دون عمل))[145].

ب ـ وفي محاضرة (حبّ الدنيا): ((مطالبُ الفقه والأصول تملأ عقلَ الإنسان، ولكنها لا تملأ ضميَره.. لا تملأ وجدانه، فسوف يمتلئ عقله علماً، لكن من الجائز أن ضميره ووجدانه سوف يبقى فارغاً كما كان فارغاً حينما كان ابن القرية، أو ابن المدرسة أو ابن المعمل الذي جاء منه إلى هذه الحوزة، هذا الفراغ في الضمير والوجدان يعيشه الإنسان حتى إذا أصبح ثرياً من الناحية العقلية.

وهذا الفراغ سوف يُميّعُ بالتدريج شعورَه بالارتباط بالله، لأن هذا الشعور لن يجد ما ينمّيه وما يغذّيه لا نظرياً ولا عملياً؛ أما نظرياً فلأنه لا يأخذ من النظريات إلا ما يرتبط باستنباط الأحكام الشرعية والنظريات التي يستنبط على أساسها الحكم الشرعي غذاءً للعقل لا للوجدان والضمير.

وعملياً، فلأنه لا يعيش تجربة الاتصال بالله تعالى، لا يعيش (حياةً عملية)، وإنما يعيش (حياةً مدرسية) خالصة. وهذه الحياة المدرسية الخالصة التي يعيشها كثيراً ما تكون مشوبة أيضاً بالمبعّدات عن الله تعالى، قد تكون أحياناً مشوبة بكثير من الذنوب التي تبعّد الإنسان عن الله تعالى وتميّع صلته به.

وبعد أن يكون هذا الطالب قد قضى مرحلة طويلة من حياته العلمية، بعد أن يكون قد أصبح مهيئاً من الناحية العملية لكي يجسّد ذلك الشعور في عمله، في جهاده، في تطبيقه، بعد أن يكون قد وصل إلى المرحلة التي يكون مدعوّاً فيها إلى المساهمة في خدمة الدين، يكون قد فرغ وجدانُه وضميرهُ نهائياً من ذلك الشعور الذي عاشه وهو في طريقه من القرية إلى النجف.. وهو في طريقه من المدينة

(145) هكذا قال الصدر. ص64-63.

إلى النجف.. تلك الأحلام والآمال.. تلك التصورات الكبيرة الفخمة الروحية التي كان يعيشها وهو في طريقه إلى مهجره العظيم.. . تلك التصورات تعود كلها خواء.. تعود كلها فراغاً.. لأنها بعد أن جُمّدت وأصبحت شعوراً إجمالياً، بعد هذا فقدت أي غذاء وإمداد متصل حتى تمزقت. وهذا هو معنى نسيان الله تعالى.. وأنتم كلكم تعرفون أن من ينسى الله ينساه الله، من ينقطع عن الله ينقطع عنه الله. ألم يقل الله: صانع وجهاً واحداً يكفيك الوجوه كلها[146]))[147]؟

ج ـ وفي نقده لحال الحوزة ولخطيّ العمل الحركي أو التربوي بالضمن: ((الأخلاقية التي كنا نعيشها ليست أخلاقية الإنسان العامل، بل هي أخلاقية إنسان آخر لا يصلح للعمل الحقيقي))[148].

في النصوص السابقة خطابٌ لطلبة الحوزة العلمية (وكلّ من يصله خطاب السيد الشهيد (ﷺ) من العاملين والحركيين والمبلّغين والناشطين في مجال من مجالات الحياة) لاستنهاض هممهم من أجل أن يكونوا (عاملين) لا مجرد (علماء) ونقدٌ للواقع الذي هم عليه، وهو واقع أخلاقية الإنسان اللاعامل، الإنسان الثري عقلياً، الفقير أخلاقياً. وكما في جميع معالجاته الأخلاقية فإنه! لا يكتفي بالتنبيه إلى المرض وتشخيص الداء، بل يعمد إلى علاجه بطريقة تقديم المثال، كما يتضح من الشواهد التالية:

يقول النعماني: ((إن السيد لم يكن يؤمن بالسائد من المفاهيم في إطار العملين الإسلامي والمرجعي، فهو لا يرى للكيان الأسري أي اعتبار، هذا ما نلمسه على الصعيد النظري في أهداف مشروع المرجعية الموضوعية الذي كتبه بنفسه. وأما على الصعيد العملي فقد سارع الشهيد الصدر لتطبيق ذلك في دائرة عمله وتحركه، فاختار كافة أعضاء جهازه المرجعي من غير أرحامه وأقاربه، في الوقت الذي كان بأمسّ الحاجة إليهم ببعض الأعمال الضرورية ومنها المناسبات الاجتماعية التي تقتضي مشاركة من يمثّل السيد الشهيد (ﷺ) من أرحامه وأقاربه.. وحتى هذا المقدار البسيط كان يحرجه نفسياً في بعض لأحيان))[149].

وهذا الشاهد يضعنا مباشرة أمام النص الناطق والتجربة الحية، حينما يقول عن عدم اعتبار السيد الشهيد (ﷺ) للكيان الأسري إن هذا ما نلمسه على الصعيد النظري في أهداف المرجعية الموضوعية. وأما عن معطيات التجربة فإنه استبعد أرحامه وأقاربه عن جهازها مع الحاجة إليهم في إدارة شؤونها. ويضرب لذلك مثلاً: ((وأتذكر أن السيد الشهيد حينما كان يؤمّ المصلين في الحسينية الشوشترية تخلّف

(146) حديث قدسي: كنز العمال ـ 5260.

(147) هكذا قال الصدر. ص47.

(148) هكذا قال الصدر. ص47.

(149) سنوات المحنة وأيام الحصار. ص23.

يوماً عن الحضور، فطلب المصلون من أحد أرحامه ـ وهو معروف بالفضل والتقوى[150] ـ أن يتقدمهم للصلاة جماعة، فصلى بهم الظهر والعصر بعد إصرار وإلحاح شديد من قبلهم، ولما بلغ السيد الشهيد ذلك تأثّر تأثراً بالغاً، فأرسل إليه أن يحضر، وعندها عاتبه وطلب منه أن لا يكرر ذلك في المستقبل مهما كانت الأسباب)) ويعقّب (النعماني) على هذه الحادثة بالقول:

((ومن المؤكد أن هذا اللون من التفكير والسلوك كان يستهدف حماية المرجعية باعتبارها الممثل الحقيقي لخط الأئمة(الذي يقوم على أساس المقاييس الربانية، وليس على أساس العواطف والرغبات الخاصة.. أضف إلى ذلك الأجواء الحساسة جداً من تلك الأمور، فكان رضوان الله عليه يقول: يجب على المرجعية أن ترسّخ وجودها في القواعد الشعبية في النجف قبل أن تمتد إلى المدن الأخرى، لأن النجف هي المدينة التي تحتضن المرجعية، فإذا ما ربحتها كان امتدادها إلى غيرها أسهل))[151].

وإذا كان التفسير الأول مقبولاً لجهة قناعة السيد الشهيد (رضي الله عنه) الفكرية والعملية أن أخلاقية الإنسان العامل ـ وهو هنا موقع المرجعية ـ لا بدَّ أن تكون ممثلة تمثيلاً حقيقياً لخط الأئمة (عليهم السلام)، وأن تقوم على أساس المقاييس الربانية، فإن التفسير الثاني لا يمكن قبوله بحسب ظاهره، وذلك من جهة النظر إليه على أنه مراعاة للأجواء النجفية الحساسة. لأننا نتساءل: لو أن السيد الشهيد (رضي الله عنه) لم يعش في النجف الأشرف، هل كان يفسح المجال في جهازه المرجعي للأرحام والأقارب؟ خاصة وأن الشيخ النعماني نفسه يقول ـ كما مر قبل قليل ـ : إن السيد الصدر لا يرى للكيان الأسري أي اعتبار، وهذا ما نلمسه على الصعيد النظري في أهداف مشروع المرجعية الموضوعية الذي كتبه بنفسه. نعم، قد تكون مراعاته هذه قد التقت عرضاً مع طبيعة الأجواء التي لا تسمح بذلك.

غير إننا نفهم المسألة من زاوية ثانية، وهي أن السيد الصدر (رضي الله عنه) وتقديراً منه إلى أن حواشي المرجعيات وبطاناتها تلعب دوراً في التأثير على المرجعية القائدة وعلى قراراتها إلا ما رحم الله، أراد أن ينأى بها عن أية تأثيرات جانبية حتى تكون حرة مستقلة تتعاطى مع الشأن المرجعي بعيداً عن حسابات البيت والأسرة والعشيرة، حتى ولو كان ذلك على صعيد استثمار أفراد هذا البيت أو هذه الأسرة والعشيرة لموقعها القريب من المرجع[152]. مما يؤكد هذا المعنى أنه (رض) كان ((يعتزّ بكل أحد

(150) هو المرجع الشهيد السيد محمد محمد صادق الصدر (رضي الله عنه).

(151) سنوات المحنة وأيام الحصار. ص23.

(152) لقد تنبّه الإمام الخميني (رضي الله عنه) أيضاً إلى هذه النقطة الحسّاسة فلم يقبل بالعروض التي قدّمت لنجله المرحوم السيد أحمد في اشغال هذا المنصب أو ذاك، ولم يعرف عنه أنه تأثر بشكل أو بآخر بآراء وتدخّلات المحيطين به خلال فترة إرشاده الروحي القياديّ للجمهورية الإسلامية.

بمقدار صلته بالإسلام وتفانيه فيه، وحبه وتمسكه به، سواء كان من أسرة آل الصدر أو من عامة الناس من أبناء الإسلام))[153]. وهذا ما ورد في أحد بياناته السياسية الموجهة إلى الشعب العراقي حيث يقول:

((فأنا معك يا أخي وولدي السني بقدر ما أنا معك يا أخي وولدي الشيعي، أنا معكما بقدر ما أنتما مع الإسلام وبقدر ما تحملون من هذا المشعل العظيم لإنقاذ العراق))[154].

ولنأت الآن إلى نماذج من تعامله أو أخلاقيته على المستويات الآتية:

أ ـ اختياره لوكلائه.

ب ـ المشاركة الوجدانية.

ج ـ مع مُستَخدَمه.

د ـ مع أهله وذويه.

هـ ـ تعامله مع أعدائه والمناوئين له.

وسأرجئ الحديث عن تعامله مع طلابه إلى النقطة التالية: (أخلاق العلم) لأن موقعها هناك أنسب لسياق البحث.

أ ـ اختيار الوكلاء:

فلقد حرص السيد الشهيد (ﷺ) على ((إرسال خيرة العلماء والفضلاء هدياً وأخلاقاً وتقوى وإحاطة بما تتطلبه الحياة والمجتمع، وتجنّب إرسال العناصر المتسمة بالجفاف والانزواء، أو التي لا تعرف مقتضيات العصر ومتطلباته. وكان يشترط امتناع الوكيل عن قبول الهدايا والهبات التي تقدّم له من قبل أهالي المنطقة.

وكمثل ـ من بين أمثلة عديدة ـ فإن الشيخ الشهيد (عبد الأمير محسن الساعدي) كان وكيلاً عن السيد الشهيد في منطقة (ديالى) وكان يشارك أهالي المنطقة في زراعة حقولهم وجني الثمار في بساتينهم، رغم إصرار أهل المنطقة على منعه من ذلك. ولمّا انهى موسم التبليغ ـ وكان شهر رمضان ـ وأراد مغادرة

(153) سنوات المحنة وأيام الحصار. ص25.

(154) المرجع السابق. ص305.

المنطقة إلى النجف، قدّم له الأهالي مبلغاً قدره مائة وخمسون ديناراً كهدية، فأبى قبولها، وقال لهم: إنّ السيد الصدر يتحمّل كافة نفقاتي، وإنّ وظيفتي التبليغ والارشاد وليس جمع المال. وألحّ أهل المنطقة على دفع المال إليه، فاضطرّ إلى أخذه، ثم قدّمه كهدية إلى الحسينية مما أثار إعجابهم. فهذا العفاف والترفّع ـ والتعليق للنعماني ـ لم يكن معهوداً في السابق. وكان لكلّ عالم بعثه السيد الشهيد (رضي الله عنه) أثر من قصة من هذا القبيل، هزّت المشاعر، وحرّكت القلوب، وأعطت العالم مكانة خاصّة في القلوب والنفوس))[155].

ويمكن أن يضاف إلى ذلك أن اختيار السيد الشهيد (رضي الله عنه) لوكلائه أو نوابه بعناية، بحيث يكونون نسخاً طبق الأصل عنه أو قريبة الشبه به، يعني أنه كان يرى فيهم وجوهه وسفراءه إلى المناطق، وكما يتعين على الجهة التي تريد أن تبعث سفيراً أن تراعي أفضل المواصفات التي تبرزه كوجه مشرّف لدولته، كذلك كان يفعل السيد الشهيد (رضي الله عنه) مع ممثليه في المناطق، فهم وجههُ وواجهته، وهم الناطقون باسم مرجعيته، وهم النوافذ التي يطل منها على الناس ويطل الناس منها عليه، فلا بدَّ من توافرهم على أخلاقية الإنسان العامل القريبة من مواصفات الموكِّل، حتى إذا رأى الناسُ الوكيل فكأنما يرون فيه الأصيل. وهذا ـ لعمري ـ وعيٌ حركي دقيق لانتقاء العالم الممثل للمرجعية خير وأصدق تمثيل، فالوكلاء أذرع المرجعية المتحركة، وهم واجهتها المتحرّكة، ولقاء بعض الناس لهم أكثر من لقائهم بالمرجع نفسه، وكلّما كانوا على درجة من الوعي والورع والتقوى والشجاعة والسماحة، كان تعاطيهم مع الناس لا مجرد تمثيل، بل وكأن المرجع ذاته حاضر مع مقلديه يتفاعل معهم ويتفاعلون معه، وهم الذين يتبنون ليس إيصال فتاواه إلى مقلديه وإيصال حقوق هؤلاء إليه فقط، إنما هم الرسل الأمناء الذين يقدّمون صورة نابضة عن معالم مرجعيته الصالحة، الرشيدة، الموضوعية، المغيّرة.

وكمثل آخر على الدقّة في اختيار الوكيل الذي يمثّل المرجع بكلّ جدارة، فإنه (رضي الله عنه) حينما دعا (السيد فاضل النوري) ليكون وكيله في إحدى المناطق، أوصاه بما يلي:

((لا تلتقي بأحد من المسؤولين، ولا تقصده أبداً مهما كنت تشعر بالحاجة إلى ذلك، لا تستقبل أحداً منهم مهما صغر أو كبر، ولا تقبل منهم هدية، ولا تأخذ من أيديهم شيئاً، لا تتهيب أن تدعو الناس إلى المحور، وأن تُظهر لهم أنّك وكيل لي جئت تهدي الناس بأمري، ولا تتستر باسم أحد غيري.. لا .. لا .. لا))[156].

(155) سنوات المحنة وأيام الحصار.

(156) حسن النوري. سبحات روحية. ص81.

هذه المجموعة من اللاءات الحاسمة هي التعبير الرافض والساخط الذي كان يعيشه الصدر نفسه لواقع مُهللٍ، مترهّلٍ، مُزرٍ، كانت تعيشه بعض فصائل الأمة الخائفة المتردّدة المتخاذلة. ولذا فنحن إزاء نصّ (الوصية) لا نعرف تاريخه بالضبط لكنّنا يمكن أن نستوحي مقطعه الزمنيّ على وجه التقريب من خلال هذه اللاءات المتفجّرة التي تأبى المساومة أو أنصاف الحلول، فيمكن القول إنّ التكليف بالوكالة جاء في مرحلة متقدّمة من مراحل الصراع التي قطع فيها السيد الشهيد (ﷺ) كلّ خطوط التفاهم مع السلطة الباغية التي كانت تحاول من جانبها إخضاع وكلاء السيد الصدر لتتّم محاصرته أولاً، ولتستوحد وتستفرد به لاحقاً.

على أنّ هذه الوصايا القاطعة، وهذه اللاءات الحادّة لا ينظر إليها على أنّها خاصّة بشخص المرجع أو بشخص الوكيل، ولا على انها صدرية بحتة، فهي ـ في الجانب الآخر ـ إيحاء تربويّ للأمة لكيفية التعامل مع نظام قمعي استبدادي لا يفهم لغة الحوار والتفاهم، لذا كانت اللاءات اغلاقاً لأيّ منفذ يمكن للسلطة الجائرة أن تلج منه. كما أنّها تعليمات صارمة وخطوط حمراء للوكيل من أن يتساهل أو يتنازل أو يتخوّف أو يتراجع، بل إننا نقرأ في روح الوصايا بلوغها درجة الحرمة، فهي ليست موضع اجتهاد يمكن للوكيل أن يتعامل معها من موقع التسامح بمرونه ميدانية حسب الظروف والحالة. ولعلّ هذا من أصدق مصاديق انطباق خصال الوكيل على صفات الموكّل.

ب ـ المشاركة الوجدانية:

لنستمع أولاً إلى هاتين الشهادتين الموحيتين، ومنهما نأتي إلى المراد من هذه الخصلة، أو المَعلَم البارز من معالم شخصية السيد الشهيد (ﷺ) الأخلاقية. يقول الشيخ النعماني: ((إن من سمات شخصية المرجع الشهيد) تلك العاطفة الحارة، والأحاسيس الصادقة، والشعور الأبوي تجاه كل أبناء الأمة. تراه يلتقيك بوجه طلق، تعلوه ابتسامة تشعرك بحب كبير وحنان عظيم، حتى يحسب الزائر أن السيد الشهيد لا يحب غيره، وإن تحدّث معه أصغى إليه باهتمام كبير ورعاية كاملة، وإن سأله أجابه بمقدار استيعابه وتحمله، فتحصل حالة يحس الزائر من خلالها بحب وعاطفة تملك قلبه))[157].

ويقول أحد تلامذته (السيد نور الدين الأشكوري) (رحمه الله): ((كان الإنسان الذي يحظى بلقائه لا يخرج من عنده إلا وهو مليء بالأمل.. ففي الشدائد حينما كنا نلتقي سيدنا الشهيد كنا نلتقيه ونحن في منتهى العبوس واليأس، وما أن يحدّثنا حتى يزول كل هم وغم من قلوبنا. وكنا لا نخرج من عنده إلا وقد ملئنا بالأمل))[158].

(157) حسن النوري: سبحات روحية. ص96.

(158) صحيفة الجهاد. العدد 283. 20جمادي الثاني 1403هـ ـ 4 نيسان 1983م.

هاتان الشهادتان ـ وغيرهما مما لا يسع الدراسة حصرها أو تعجز عن وضع يدها عليه ـ ترجمهما السيد الشهيد (ﷺ) بمشاركات وجدانية فيها الكثير من التعاطف والمواساة والتفاعل الاجتماعي المعبّر عن الارتباط النفسي والروحي بينه وبين من يشملهم بأبوّته، الأمر الذي يعطي لحركته الاجتماعية كمرجع وكداعية وكشاهد زخماً ودفقاً كبيرين.

فلقد جاءه شاب فُجع ـ في لحظة واحدة ـ بجميع أهله بحادث سيارة فأجلسه السيد الصدر (ﷺ) إلى جانبه، وخفّف عليه مصيبته، وشرح له حقيقة الموت، وأنه بداية الطريق لحياة أسعد. وقرأ له بعض الآيات والروايات، ثم قال: ((إذا كنت فقدت أباك فأنا أبوك، وإن كنت فقدت إخوتك فهذا ولدي جعفر أخوك، بل جميع هؤلاء إخوتك))[159].

إن هذا الموقف الإنساني النبيل لا يمكن تقييم أثره إلّا بالمقارنة بين الوضع النفسي الذي كان عليه الشاب المفجوع قبل لقائه المرجع الشهيد، وبين وضعه بعد لقائه به. ففي الحالة الأولى: كان في غاية التأثر، يكاد قلبه يتقطّع من هول المصيبة التي حلّت به، يبكي بلا انقطاع، بزفرات تُبكي الصخر الأصمّ.. يقول (النعماني): ((كنتُ أظنّ أن أحداً لا يستطيع أن يخفّف من هول الصدمة التي يعاني منها، وكنت أحسب أنه سوف يخرج بنفس الحالة التي جاء بها. وفي الحالة الثانية: كان هذا الشاب يصغي للسيد الشهيد وقد أخذت هذه الكلمات الموشّحة بأرقّ العواطف، المشرّبة بأعذب المشاعر، مأخذاً من قلبه، وبدأت ابتسامة راضية ترتسم على وجهه، فأحسّ بالراحة والاطمئنان والسكينة والأمان. ثم أمر (ﷺ) باحضار العشاء، وأظنّ أنه اشترك معنا، وبعد ذلك خرج الشاب وقد اطمأنت روحه وسكنت نفسه، وكأنه لم ينكب بمصيبة كبيرة))[160].

فمن مظاهر أخلاقية الإنسان العامل ـ وهو هنا نموذج المرجع الشهيد (ﷺ) ـ هو هذا التعامل الراقي مع الناس وفق انتماءاتهم الاجتماعية وأعرافهم وتقاليدهم المتّبعة، ومخاطبتهم على قدر عقولهم، فلقد نقل له بعض تلامذته عن ((شخص مسيحي دخل الإسلام بجهود الدعاة إلى الله، وطلبوا من السيد الشهيد (ﷺ) أن يلتقيه ويقدّم له بعض النصائح والتوجيهات التي تعينه في شق طريق حياته الجديد.

فقال (ﷺ): إن المسيحين اعتادوا في أعياد ميلادهم على ايقاد الشموع وصناعة كعكة الميلاد، فيا حبّذا لو جعلنا من مناسبة دخول أخينا في الإسلام عيداً، وهكذا كان، حيث بارك السيد الشهيد (ﷺ)

(159) سنوات المحنة وأيام الحصار. ص109.

(160) المرجع السابق. ص109 - 110.

للمحتفى به دخوله في الدين الجديد معتبراً ذلك بمثابة عيد ميلاد له، الأمر الذي فتح أسارير وقلب ونفس هذا الشاب للإسلام ولمن يمثّل الإسلام))[161].

هذه اللقطات الحيّة والمفصحة عن عاطفة حبّ قوية لا خجولة ولا بخيلة ولا ناقصة، تنطوي على دلالة أنّ السيد الصدر (رضي الله عنه) لم يكن يدع فرصة إلّا ويوظفها في خدمة رسالته، وبما يربّي الآخرين ويعزّز ثقتهم بإسلامهم. لقد كان (رضي الله عنه) يتخذ من كلّ مادة أو مكان أو مناسبة مدرسة للتوعية ونادياً للتربية وفرصة للارتقاء بإسلام الإنسان المسلم، وبإيمان الإنسان المؤمن، وبعمل الإنسان العامل. انه بذلك يطرح نموذج الشخصية الإسلامية الهادفة الأرقى.

لم يكن السيد الصدر (رضي الله عنه) يتصنّع عاطفة المواساة، كانت تلك سجيته وتلكم هي شمائله، بكى للشهداء الخمسة بحرقة ولوعة، وبكى لطلابه الذين هجّرهم النظام العفلقي بحجة انهم من أصول ايرانية، كان سخي الدمعة يتعاطف مع ألم الإنسان إينما كان، فكان يشعر بالألم لما يعانيه اخوه المسلم في افغانستان وفي فلسطين وفي كلّ مكان.

ج ـ مع مستخدمه:

وقد يكون تعامل السيد الشهيد (رضي الله عنه) مع أقرانه من المراجع، أو أبنائه الطلبة أو زواره، بهذا المستوى من الأخلاق النبوية مبرراً في أنه يريد أن يعطي لمرجعيته صورة المرجعية ـ الأبوة ـ لكن أخلاقية العمل والتعامل حينما تكون كلاً متكاملاً، بحيث يصل اللطف والرعاية والإحسان حتى إلى خادمه، فذلك مما يكشف عن روح كبيرة تنظر إلى النظير في الإنسانية والأخ في الدين بقطع النظر عن موقعه الاجتماعي: ((ينقل عنه خادمه أنه في يوم زفافه حضر الإمام الشهيد (رضي الله عنه) ومعه تلاميذه فتكلم بالمدعوين قائلاً: أنا مبتهج بهذا الزواج وكأنه زواج ابني. ولم يقتصر على تلبية الدعوة بل أطال الجلوس ليشعر الخادم الحنان والعطف الذي تعوّده منه وعرف عنه)). وقدّر لخادمه هذا أن يهاجر من العراق ويبتعد عن مخدومه بل حبيبه، فلم تنفصل علاقتهما، بل واصل السيد الشهيد رعايته له بين الحين والآخر. وقد كتب له رسالة في مهجره، جاء فيها: ((جناب الوفي الزكيّ الصفيّ المؤمن المهذّب النقيّ محمد علي، حرسه الله بعينه التي لا تنام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

وبعد: فقد تسلّمت رسالتكم الكريمة وكنت في تلهّف للاطلاع على أحوالكم واستقراركم، ففرحت بالرسالة كثيراً، وحمدت الله المولى سبحانه وتعالى على وصولكم وسائر أفراد العائلة صحيحين سالمين،

(161) صحيفة (الموقف). العدد 55. 16 شوال 1413هـ ـ 8 نيسان 1993م. من مقال للكاتب نفسه.

وعلم الله أنّ ذكرَك وصورتَك في قلبي، والبرّاني[162] بكل ما فيه يُذكّر بك وبنبلك وأمانتك. فأنت لم تكن خادماً للبرّاني، وإنّما كنت إبنا من ابنائه البارّين، وولداً من أولاده المخلصين، أعادك الله إليه على أفضل حال بجاه محمد وآله الاطهار. واني على أي حال ـ وفي جميع الأحوال ـ حاضر لما أقدر عليه من عونك ومساعدتك، وان ولدنا آقاي (أبو أحمد) ـ حفظه الله ـ يمكنك أن تلجأ إليه كلّما احتجت إليّ.

إن الرفقاء والعائلة جميعا يذكرونك بأفضل الذكر وأعطره ويشعرون بالوحشة لسفرك. وولدنا محمد جعفر حينما اطّلع على أنّ الرسالة منك أهوى عليها بفمه وأخذ يقبلها وهو يناديك وقلبه الصغير ممتلئ حباً ووفاء لك وثناء عليك)).

الى أن يقول: ((وفي الحقيقة أن ما تذكرونه - أيها الأوفياء من الشكر لا موجب له، لأنا لم نقم إلا بما يجب.. وفقنا الله تعالى لخدمتكم جميعا وأسبغ عليكم من نعمه وآلائه وبركاته ما هو أهل لذلك، وهو أرحم الراحمين))[163].

في هذه الرسالة - المقطوعة الأديبة والأدبية والمؤدبة الخضلة بمشاعر أبوة وأخوّة فياضة - أكثر من دليل على أخلاقية فذة كان هذا العالم الرباني الجليل يتمتع بها:

1. إنها رسالة عفوية نابعة من قلب نابض بالحب لخادمه، وبالتالي، فلا داعي للتزلف له أو كسب عواطفه وهو - أي الخادم إنسان لا يطمع عنده السيد الشهيد (ﷺ) بشئ حتى الثناء، فهو في الرسالة ينفي أن يكون ما اسداه اليه والى اخوانه شيئا يستحق الشكر فضلا عن الثناء.

2. إنها رسالة لو حذفت عنوان المرسل إليه وقلت إنها لأحد طلبته الأوفياء أو أحبته المقربين لما جانبت الصواب، مما يشير الى أن سيدنا الشهيد (ﷺ) كان يسبغ عواطفه على مقام هذا الشخص كما لو كان ((ابناً من ابنائه البارين، وولداً من أولاده المخلصين)) حسب تعبيره الوارد في نصّ الرسالة.

3. إن عاطفة الإمام الصدر في الرسالة مما يتمناه أي ممن عرف السيد الشهيد (ﷺ) خاصة حينما يقول: ((وعلم الله ان ذكرك وصورتك في قلبي، والبراني بكل مافيه يذكرك بنبلك وأمانتك، فأنت لم تكن خادماً للبراني وانما كنت ابنا من ابنائه البارين)) ولنا أن نتصور تلك الكلمة المفعمة بالطيبة المترعة بالصدق والوفاء على نفس (محمد علي) مستخدم السيد الشهيد، وهو يتلو الرسالة: ((فانت لم تكن خادماً للبراني)) إنه يشعره انه (ابن) له وانه (ولد) له وأنه موضع محبته واحترامه لا كما يعامل المخدوم

(162) البراني: هو المكان الذي يستقبل فيه زوّاره، وهو ما يسمّى بـ(قاعة الاستقبال) ويكون ملحقاً ببيت السكن الذي يسمى في المصطلح النجفي بـ(الدخلاني).

(163) سنوات المحنة وأيام الحصار ص80 وص 339 - 340.

خادمه أو السيد عبده.

4. إنه لا يقدم في الرسالة عاطفة مجردة وكلمات معسولة، بل يرشده إلى من يعينه كلما احتاج إلى السيد الشهيد.. وهذا برهان محبّة ودليل وفاء، والتفاتة إنسانية نبيلة، فكرم أخلاق الراعي لا يتجزأ أو يختلف في التعاطي سواءً في الحلّ أو الترحال.

5. إن البيت الصدريّ كلّه تربى على هذه الاخلاق، فليس الصدر الكبير وحده من يحب الخادم ويحترمه: ((إن الرفقاء والعائلة جميعاً يذكرونك بأفضل الذكر وأعطره ويشعرون بالوحشة لسفرك، وولدنا (محمد جعفر) حينما اطلع على أن الرسالة منك أهوى عليها بفمه وأخذ يقبلها وهو يناديك وقلبه الصغير ممتلئ حبا ووفاء لك وثناء عليك)). إن موقف السيد جعفر هنا هو موقف (تلميذ) إزاء (معلمه) و(مربيه) وليس موقف طفل أنس بقرب إنسان ألفه، وما هذا النبل الصغير إلّا من ذاك النبل الكبير، ومن شابه أباه فما ظلم. ثم انه يعبر له عن رد الجميل بجميل أجمل منه، فيقول: ((إن ما تذكرونه - أيها الأوفياء - من الشكر لا موجب له لأنا لم نقم الا بما يجب)). فلا شكر على واجب، وهو ليس بواجب لكنه في منظور الصدر الاخلاقي واجب يتعين عليه القيام على رأي إنسان يشعر بفضله عليه لا بتفضّله هو عليه!

د ـ تعامله مع أهله وذويه:

هذه اللفتات واللقطات المستوحاة من حياة السيد الصدر الداخلية العائلية، والتي وردت في كتاب (وجع الصدر) الحاكي عن ذكريات رفيقة درب السيد الشهيد وحرمه المصون (العلوية الفاضلة السيدة أم جعفر) تكشف عن تعامل أخلاقي راقٍ مع أقرب الناس إلى السيد الشهيد، وهم أهله وذووه، وإنما آثرنا اضافتها من أجل استكمال حلقات تعاطيه الأخلاقي مع مقربيه. تقول السيدة الفاضلة فيما رسخ في وجدانها من ذكريات:

((عوّضنا الشهيد عن السعة واليسر المادي الذي يراه الكثيرون سبباً وحيداً للسعادة والهناء، عوّضنا عنه بغنى نفسه، وكبر روحه، وكرم سجاياه الثرّة.. ثم من جهتي كنت مقتنعة مؤمنة بأن مجرد اقتراني بشخصٍ مثل الشهيد هو الثروة الحقيقية.. كانت القناعة بما رزقنا الله زاداً عظيما عَمَر وجودنا وصان علاقتنا عن أي شائبة.

وكان يبدي تعجّبه من حدوث بعض المشاكل الزوجية والأزمات العائلية لدى الأسر كافة، باعتبار أن هناك الحب وهناك انصهار كل من الطرفين في الآخر.. مما يمكن معهما أن تذوب أي مشكلة وتختفي أي أزمة. وفي تصوره ينبغي أن تكون جميع الأزمات العائلية والأسرية التي نسمع عنها مجرد افتراضات!

لقد كان رجلاً مثالياً بحق. إني أتمكن أن أقول ـ غير مُبالِغة ـ بأنه لم يغاضبني ولو مرة بحسب ما أتذكر طوال تلك السنين التسعة عشرة في رفقته... وكذلك حرصت ألا أغضبه أو اختلف معه في كلّ تلك الفترة، غير أني ـ كي لا أجافي الحقيقة ـ أذكر حادثة لم يتكرّر مثلها بحمد الله في حياتنا تلك)).

تقواه الماليّة: ((كنت يوما حاملةً مقربا في أواخر شهري التاسع، فطلبت منه ديناراً واحداً - يوم كان الدينار عزيزاً لأشتري مواد غذائية خاصة، لأصنع منها (لوزية)، وهي حلوى خاصة يقدمها العراقيون لأضيافهم في مناسبة تقديم التهاني والتبريكات عند الولادة خاصة. فأحببت أن أهيئ هذه الحلوى قبل أن يفجأني المخاض، فاعتذر عن إعطائي الدينار لشراء اللوز والاحتياجات الأخرى لتلك الحلوى، فتجادلنا سويعة، هو يعتذر بأن مخصصاته من الحقوق الشرعية لا تكفيه لذلك. وأنا أبدي له ضرورة الموضوع ووجوب استجابته: (لأنك تعلم أني راضية قانعة بطريقتك في الحياة، وها أنت ترى أني لم أشق عليك يوماً ولم أكلفك ما لا تطيق. ولكن هذا أمر لا نستطيع التخلف عنه، أسوة بغيرنا من المحيطين..).

وبعد تلك المجادلة أخرج ديناراً ووضعه أمامي كالمكره وهو يبدي أنه غير راض ظاهراً. فما كان مني إلا أن أخذت الدينار ومزقته مزقاً خفيفا حتى لا أتلفه. وافترقنا على ذلك. ولكنه سرعان ما عاد وهو طافح حباً وتحنناً وأصلح الموقف، وأنا أصلحت الدينار واشتريت ما أريد.

كان دائماً يكرر: (إن مرجع التقليد الذي تقاد إليه رقاب الأموال الشرعية، باعتباره خير أمين مستأمن عليها، يجب أن يكون آخر منْ ينعمُ بمأكل ومشرب أو بملبس ومفرش، وأشباه ذلك. ألم يقل نبي الهدى (ﷺ): (ليشرب ساقي القوم آخرهم)؟ فهكذا يجب أن يعيش المرجع كسائر طلبة الحوزة ولا يتميز عنهم بشيء).

لذلك فإن السيد الشهيد لم يدخر لنفسه إلا ثوباً واحداً وقباء واحداً، يديم ويكرر غسلهما ولبسهما، ليس غير. وتبريره في ذلك إذا سئل: ليس لي إلا جسد واحد. فعلام الإكثار منها؟!

وأتذكر هنا أنني سألته في الأيام الأولى من اقترانا بعيد الزواج، قلت له: أين ملابسك؟ فأجاب بتلقائية: (لقد ارتديتها)! ولم يجبني بأكثر من ذلك. أي لم يكن عنده غير ذلك.

ولقد كلمته يوماً عن هذا الموضوع، قلت: حسناً تلك حالة استثنائية، وقد مضت ببؤسها وحقرها وفقرها. فما الداعي الآن والأموال تنكب بين يديك أن تقتصر على اقتناء ثوب واحد وقباء واحد؟! فأجاب: إني أريد أن أواسي أفقر إخواني وأبنائي الطلبة، وأعزيهم عما هم فيه، من ضيق الحال، ((ليحبرني الله حلة خضراء في يوم القيامة)).

ولقد أهدى إليه يوماً شخص من (آل عطية)، سيارة جديدة فاخرة، فتقبلها وشكر لمهديها صنيعه. وما شاهد من تلك السيارة إلا مفاتيحها، لأنه سرعان ما أمر ببيعها وصرف ثمنها في شؤون طلاب العلم المستحقين.

وفي مرة أخرى، كان قد عُرض للبيع بيتٌ في الجوار، قريباً من الدار التي كنا نسكنها. فسمع بذلك أحد المحبين من المؤمنين، وعرض على السيد الشهيد أن يشتري له تلك الدار ويملّكه إياها، لأنه كان يعلم أن دارنا قديمة ومستأجرة. فلم يقبل ذلك السيد الشهيد. وقال: إني مكتف لست بحاجة إلى دار ولكن في الطلبة من هو أحوج إلى مثله. ثم إن الشهيد أخذ بيد ذلك الشخص المحب الطيب وطلب منه أن يرافقه إلى شارع قريب هو شارع الإمام زين العابدين (عليه السلام) المنتهي إلى الحرم العلوي الشريف، وأوقفه هناك على قطعة من الأرض جرداء، معروضة للبيع. وقال له: إن كان لديك من مال، ورغبة في الثواب والأجر، فاشتر هذه الأرض وأوقفها، ولسوف نبنيها شققا سكنية، تخصص لطلاب العلم في الحوزة.

ولقد كان على رأس كل شهر، يأمرني أن أجلس بجانبه بالقرب من خزانةٍ مفاتحها بيده. كانت في الغرفة العلوية من البيت. فكان هو يحسب مقداراً معيناً لكل طالب علم، ويأمرني، أن أضعها بدوري في ظرفه الخاص فأكتب اسماً معيناً، بحسب السجل الذي كان عنده. ليقوم هو بأخذها إلى مسؤول توزيع الشهريات، على طلاب العلوم الدينية، وكنت أرى مئات الألوف من الدنانير تسيل بين يديه، وأنا أعينه على توزيعها وأداء الأمانة إلى أهلها. فلم يكن ليزيد لنفسه أو لأهله شيئا منها ولو ديناراً واحداً، أكثر مما كان يقسّمه بين طلابه أو المحتاجين. وقد يتفق أحيانا أن يصله ريع بعض ما يقدم للطبع والنشر من نتاجه الفكري، ومتى ما وصله شيء من ذلك، كان يمتنع عن أخذ سهمه المعتاد الخاص به من الحقوق الشرعية تلك، وذلك حتى يوفره لغيره.

وفي أحد المواسم كثر بيع الموز في ذلك الحانوت المدرسي: ستون فلساً للموزة الواحدة - فاشتكت البنات لأبيهن، قصور (يوميتهن) عن ثمن موزة لكل واحدة منهن. وحرمانهن من التمتع والتلذذ بأكل الموز وطالبنه بإضافة عشرة فلوس لكل واحدة منهن حتى يستطعن ذلك.

فأجاب الشهيد: إنه من الممكن أن أضيف لكنّ ذلك. ولكني أسألكن: هل كل الفتيات في المدرسة، يقدرن على شراء الموز؟ فأجبنه بالنفي، فقال: فما الفريق الأكثر منهن: اللاتي يقدرن عليه، أم اللاتي يعجزن عنه. فلما أجبن: بأن الأكثرية منهن لا يشترينه!

قال: فلتكن إذن من الأكثرية اللاتي لا يستطعن شراء الموز، ولا تتميزن عنهن. فلجأت البنات إلى

حيلة، وهي أن يجمعن (يومياتهن) مع بعضها بما يكفي لشراء موزتين يقتسمنهما بالتناوب!

حبّه وحدبه على عياله:

ولقد كان الشهيد شديد التعلق بعياله وأطفاله، محباً لهم، رقيقاً في معاملتهم، جياش العاطفة تجاههم. إن مرض منهم أحد يوماً، فإنه يصير شغلَ الشهيد الشاغل. صحيح أنه لم يكن ذلك ليصرفه عن أداء مهامه العظيمة والكثيرة، إلا أنه يبقى مهتماً لأجله، إلى أن يبرؤ. فكان مثلاً، بمجرد أن يدخل البيت، يسارع إلى ذلك المريض من العيال أو المريضة ليطمئن عليه، قبل أن يضع عنه شيئاً من ملابسه: يجسّ نبضه ويتحسس حرارة بدنه، واضعاً يده على المريض. وعادة ما كان يفعل ذلك وهو مشتغل بقراءة سورة الفاتحة بقصد الاستشفاء. يا الله.. كم كان ذلك المنظر الأبوي المهيب والرائع، يسري به الدفء والرحمة والحب في أوصال ذلك البيت.

إنني أتذكر هنا أن الكبرى من البنات في صغرها كانت محمومة يوماً ما. ولما دخل الشهيد البيت توجه مباشرة في لهفة وحنّ إليها، فاندفع جميع أفراد البيت بقلوبهم وحواسهم معه بشكل لافت إلى الفتاة المريضة. هناك التفتت أختها التي تصغرها إلى ذلك الاهتمام وتلك العناية، فلما رأت ذلك القدر من حنوّه إليها وعطف أبيها وكلّ الأهل معه، تحرّكت مشاعرها وأشواقها.. وتمنت أن تكون هي المريضة بدل أختها. وما كان منها إلا أن انتظرت فترة حتى خرج أبوها من البيت، وبقيت ترصد دخوله، وما أن أحسّت بمقدمه، حتى ألقت بنفسها على الفراش، تتمارض وتتأوه وتئن في حركة تمثيلية بريئة حلوة، تستدرّ بذلك عطفه الغالي.

ففهم الشهيد رأسا وتوجه إليها في الحال، فاحتضنها وأخذ يلاطفها ويقبلها وهو يقول: حبوبتي.. أين يؤلمك يا نور عيني؟ فردّت في براءة: آه إن شعري يؤلمني يا أبتِ!! فانفجر الجميع بالضحك.

وأذكر أيضاً أن احدى البنات اشتكت يوما من صعوبة المادة الدراسية التي كانت تراجعها لأجل الامتحان النهائي في السنة، وكان ذلك على ما أتذكر في مادة الرياضيات. فتفرغ السيد الشهيد يومها للبنت، وشرع يشرح لها قواعد تلك الدروس. وما قام عنها حتى تيقن بأنها استوعبت المطالب كلها. ورغم أن بناته كن في أعمار صغيرة، إلّا أنه. يشعرهن باحترام كبير، ويحسسهن بأنه أفضل صديق يمكن أن يلجأن إليه. وكثيراً ما كان يعاملهن معاملة الكبار.

رحلة إلى الديار المقدسة:

وكان قد وصلني شيء من إرثي من والدي قدس الله نفسه، وكان قدر المبلغ سبعة الاف تومان، فاذخرتها لاداء فريضة الحج، حيث يمكن أن يتحقق الحلم. ثم اني صارحت الشهيد برغبتي في أداء ذلك الفرض الإلهي العظيم. واعتذر الشهيد كما توقعت. ولكن قلت له: إنني أدعوك للحج معي بهذا المبلغ المدخر عندي، فهو كاف لكلينا، خاصة وأن زوج أخيك المرحوم إسماعيل هي راغبة في الحج، وهي تملك أيضاً قسطاً من المال، من إرث لها كذلك، ولسوف يكفي مجموع المبلغين بعد ضمهما إلى بعضهما لنا نحن الثلاثة في رحلة إلى بيت الله. فوافق الشهيد على شرط اشترطه على كلتينا، وهو أن يكون السفر للحج فقط، وتكون رحلتنا عبادية محضة، نؤدي فيها فرض ربنا لا غير. وألا نذكر في هذا السفر السوق ولا التسوق فقبلنا وهكذا كان.

وقبيل اليوم الأخير، دعي السيد الشهيد من قبل الإمام السيد الحكيم لحضور مأدبة غداء، كان قد رتبها على أثر مؤتمر كبير أقامه الإمام، حضره جمع من أعلام المسلمين من مختلف الطوائف الذين أتوا حجاجا في تلك السنة وعندما حضر السيد الشهيد، وجدها مأدبة عظيمة، عامرة بألوان الطيبات، وذلك مراعاة لوزن الضيوف الذين أتوا من كل فج عميق. لكن السيد الشهيد مع ذلك، تشاغل ببعض ما وجد أمامه من الخضرة أو الماء، عن تناول أي شيء مما تطيب له النفس، وتلذ له العين. دون أن يلحظ ذلك منه أحد وفي النهاية رجع إلى منزلنا، وبادر قائلاً: ابنة عمي، هاتِ ما عندك، إن كان عندك ما يؤكل. فاستغربت كلامه: ألم ترجع للتو من مأدبة الأكابر تلك؟؟

أجاب: نعم ولكني ما كنت لأنعم بشيء من لذاتها، وأنت قد رضيت لنفسك بقطعة من الخبز، وشيء من الإدام الخفيف!. وكنا حقا قد حزمنا أمتعتنا، بعد أن اتفقنا على أن نكتفي في يومنا الأخير من إقامتنا بقوت المسافرين العجلين، ولم يكن بين يدي حينها بالفعل، إلا شيء من الخبز والقليل من الجبن والخيار مع الشاي. فتناولنا غداءنا شاكرين.

شورى العائلة: وعندما كان يريد أن يتخذ قراراً مصيرياً يهم العائلة ككل، كان يجمع جميع أفراد العائلة من أمه وأخته رحمهما الله، حتى أصغر طفل في البيت. ويطلعهم جميعاً على قراره، ويجعل الجميع يشارك في مسؤولية وتبعات هذا القرار، حتى لو كان ذلك القرار من قبيل مواجهة السلطة، أو الذهاب إلى دائرة الأمن.

كان واسع الصدر لطلباتهم ومشاكلهم وضجيجهم. ورغم أنه كان دائم الاشتغال بالكتابة والتحضير والتفكير، والمطالعة أحيانا. ورغم مساحة البيت، إلا أني لم أره يوما قد تضجر أو تأفف من صراخهم أو لعبهم. كان كل من الطرفين يشتغل بشأنه. وكأن الشهيد في عالم منفصل عما يجري حوله، ساعة انشغاله

بالتدوين والكتابة))[164].

هـ ـ تعامله مع أعدائه والمناوئين له:

أخلاقية التعامل الصدري ـ كما أكّدنا مراراً ـ لا تتجزأ وغير قابلة للقسمة، فهو نبيل تفيض إنسانيته حتى مع أعدائه والذين يكيدون له، وهذا خلق لا يتمتع به إلا نفر قليل ممن سار على نهج الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين. فلنعرض الصورة أولاً، ثم يكون لنا تعليق عليها[165]:

ففي فترة الحجز كانت قوات الأمن تطوّق منزل السيد الشهيد (ﷺ) تطويقاً تاماً وكأنهم ذئاب يتربصون بفريسة لينقضّوا عليها. فكانت هذه العاطفة الصدرية تمتدّ حتى إلى هؤلاء. ففي ظهر أحد أيام الاحتجاز كان النعماني نائماً في غرفة المكتبة فاستيقظ على صوت السيد الشهيد رضوان الله عليه وهو يقول: ((لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وظن أن حدثاً ما قد وقع، فسأله: هل حدث شيء؟ فقال: كلّا، بل كنت أنظر إلى هؤلاء ـ ويقصد قوات الأمن ـ من خلال فتحة في الكسر الصغير في زجاجة النافذة فرأيتهم عطاشى يتصبب العرق من وجوههم في هذا اليوم من أيام الصيف الحار.

فقال النعماني: سيدي أليس هؤلاء هم الذين يطوّقون منزلكم، ويعتقلون المؤمنين الأطهار من محبيكم وأنصاركم؟ هؤلاء هم الذين روّعوا أطفالكم وحرموهم من أبسط ما يتمتع به الأطفال ممن هم في أعمارهم؟ فقال: ولدي، صحيح ما تقول، ولكن يجب أن نعطف حتى على هؤلاء، إن هؤلاء انحرفوا لأنهم لم يعيشوا في بيئة إسلامية صالحة، ولم تتوفر لهم الأجواء المناسبة للتربية الإيمانية، وكم من أمثال هؤلاء شملهم الله تعالى بهدايته ورحمته، فصلحوا وأصبحوا من المؤمنين.

ثم نزل إلى الطابق الأرضي وايقظ خادمه (الحاج عباس) وأمره أن يسقيهم الماء وشهد الله ـ والرواية للنعماني ـ لم أتماسك نفسي وأنا أراه يرقّ حتى لهؤلاء. وتذكّرت جدّه الحسين (عليه السلام) يوم سقى (الحرّ بن يزيد الرياحي) وعسكره في طريق كربلاء، ويوم جلس يبكي في نهار عاشوراء وهو ينظر إلى الألوف المؤلّفة، فيُسأل: ممّ بكاؤك يابن رسول الله؟ فيجيبهم بأنّ بكائي لهؤلاء الذين سيدخلون النار بسببي، فما أشبه اليوم بالبارحة، وما أشبهك بأجدادك الطاهرين يا أبا جعفر، فلقد أحييت بمواقفك مواقف أجدادك الطاهرين وجعلتنا نعيشها حيّة ماثلة في شخصك، فسلام عليك حيّاً وميّتاً.

(164) كلّ هذه الذكريات العائلية الحميمة عن الكتاب المشار إليه سابقاً (وجع الصدر) لـ(أمل البقشي).

(165) هذه الروايات عن الشيخ (النعماني) في سنوات المحنة وأيام الحصار. ص104 - 105.

ومن العجيب ـ والتعليق ما زال للنعماني ـ انّ هذه المشاعر الحيّة، والعواطف الصادقة أثّرت حتى على هؤلاء الذين كانوا يطوّقون منزل السيد الشهيد من قوات الأمن، واتذكّر أن أحدهم وكان (ضابط أمن) وكان يرأس هذه القوات، بعث برسالة شفهية إلى السيد الشهيد، قال فيها: سيدي لا تتنازل لهؤلاء الجبناء ـ يقصد حكّام البعث ـ إنهم يرتجفون خوفاً منك، إنّ حذاءك اشرف منهم جميعاً، وقد قام هذا الضابط بخدمات كبيرة خلال فترة الحجز.

وقد رزق نتيجة تعاونه المخلص مع السيد الشهيد بالشهادة، وحينما بلغ خبر إعدامه مع عدد من قوات أمن السلطة الذين كانوا معه، قال السيد الشهيد (رضي الله عنه) لي ـ للنعماني ـ انظر كيف اهتدى هؤلاء، يجب أن تسع قلوبنا حتى هؤلاء)).

من ذلك كلّه نخلص إلى أن عاطفة الشفقة والرفق واللطف، حتى مع المناوئين والمناهضين والأعداء والخصوم، هي عاطفة إسلامية سامية ومتميزة، وقد أرادها المربي الإسلامي مدخلاً واسعاً لقلوب هؤلاء التي لم تبصر نور الهداية، حيث يجدون منهجاً سلمياً مغايراً للتعامل السائد والقائم على الاقتصاص (واحدة بواحدة) أو (المقابلة بالمثل). وإن كان هذا من المنهج الإسلامي أيضاً، لكنه يمثل منزلة أدنى من منزلة الإحسان، أي انه يمثل مستوى: (فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ)[166]. لكن المنزلة الأخرى أرفع وأسمى وهي منزلة: (وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِيَن)[167].

وغني عن البيان أن العدو هنا ليس هو العدو الذي نعادي في الله - أي عدو الله ورسوله والمؤمنين - إنما هو الذي تشير إليه الآية الكريمة (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)[168]. ذلك أن السيد الشهيد (رضي الله عنه) لا يمكن إطلاقا أن يوادّ من حاد الله ورسوله. وهذا الانقلاب في الموقف من (عدواة) إلى (ولاية حميمة) مما نهجه النبي (صلى الله عليه وآله) والأئمة الهداة من آل بيته (عليهم السلام) وهو بالغ الأثر قلّما يُواجه به إنسان مهما كان صعباً وعنيداً وجافيا، ولم يترك عليه اثره الذي يصل في بعض المواقف إلى درجة الانقلاب من المعاناة إلى المصافاة، حيث أننا نلاحظ أن أوج هذا الانقلاب في شهادة تعدو الغافل أو المستغفل، هي هذه الثمرة الطيّبة من قوله: (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)[169]. وفي تحوله من موقف العداء السلبي إلى موقف التوبة والاعتذار وطلب الصفح والمغفرة.

إنّ الشفقة على الأعداء عاطفة راقية لا تفكر بما يمس الذات من إهانة أو إساءة أو تجريح، فلو

(166) البقرة: 194.

(167) البقرة: 195.

(168) فصلت: 34.

(169) الأنعام: 124.

كان الرضا رضا النفس فإن النفس لا تحسب الإساءة في ميزان الربح والخسارة، ولكن لمّا كان الرضا رضا الله تبارك وتعالى فكل شيء يهون في سبيل هذا الهدف (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)[170].

إن التفسير المناسب لمثل هذه العاطفة أنها متخلّقة باخلاق الله واخلاق أوليائه، وانها منطلقة من القدرة على العفو والمغفرة والحلم والاحسان والتسامح والتجاوز، ولا يقلل من أثرها أو شأنها إساءة الآخرين فهمها على أنها تعبير عن حالة جبن أو ضعف، فهي أخلاق الله تعالى التي يتخلّق بها النادرون الفضلاء المحسنون من عباده.

الرسالة المجسّدة أخلاقياً:

ويطيب لنا أن نختم هذه النقطة من الوعي الميداني والتي أسميتها بـ(أخلاقية الانسان العامل) بما استفتى به شاب جامعيّ السيد الشهيد (رضي الله عنه) في عمل الداعية الى الله في الاوساط الجامعية والشبابية. فلنقرأ الاستفتاء والفتوى ثم نستوحي ظلالها:

<u>الاستفتاء:</u>

بسم الله الرحمن الرحيم. سماحة آية الله العظمى المرجع الديني السيد محمد باقر الصدر (دام ظله):

س: ما هو الأسلوب الذي يجب ان يمارسه الشاب الجامعي أو الموظف الاداري لنشر تعاليم الدين الحنيف وبث مفاهيم الاسلام؟ وما هي المتطلبات التي ينبغي للمسلم المعاصر أن يتوفر عليها في طريق الدعوة الى الاسلام؟

<u>الفتوى:</u>

بسم الله الرحمن الرحيم

ج: لا بدَّ له إضافة الى تجسيد الرسالة الإسلامية في سلوكه وأخلاقه وعلاقاته، أن يستعمل في العمل لأجل رسالته لغة العصر، ومنها الفكر الحديث، ويصب المحتوى الاسلامي في إطار هذه اللغة والمنهج مقارنا بأفكار العصر ومعطيات الحضارة السائدة. ويقوم في نفس الوقت بدور الوسيط بين (الجامع

(170) آل عمران: 134.

الرشيد) الذي يحمل رسالة الاسلام والوسط الذي يعيش فيه، لأن كثيرا من الأوساط لا صلة لها بالجوامع فلا بدَّ من همزات وصل تحمل الاشعاع، وتمارس عمل الجامع الرشيد في قطاعاتها المختلفة، وتعيد الى الناس الأمل في قدرة دينهم على تلبية حاجاتهم، ومسايرة طموحهم المشروع، وحل مشاكلهم بالطريقة الفضلى.

(محمد باقر الصدر)[171].

ما يهمنا من هذه الفتوى النصيحة، أو الوصفة التي تمثّل على وجازتها منهاج عمل للشبان المسلمين في كل مكان، هو إشارته (ﷺ) إلى تجسيد الرسالة الاسلامية في السلوك والاخلاق والعلاقات... الخ. وضرورة وجود همزات وصل تحمل الاشعاع، وتمارس (عمل الجامع الرشيد) في قطاعاتها المختلفة، وتعيد الى الناس الأمل في قدرة دينهم على تلبية حاجاتهم.

ولذلك كان همّ واهتمام الشهيد الصدر ـ كما أخبر بذلك الراحل الكبير عميد المنبر الحسيني الشيخ د. أحمد الوائلي (رحمه الله) ـ منصبّاً على اعداد النماذج المجتمعية الصالحة، لتكون رموزاً حيّة متحرّكة، فلم يكن يفكّر في إصدار كتاب (مجتمعنا) بقدر شعوره بالمسؤولية، وقد مجتمعنا بعناصر فاعلة ومتفاعلة ومتفانية في خدمة المجتمع واصلاحه والسعي لاخراجه من محنته، بل والعمل على بناء مشروع نهضته.

الدائرة الثانية: أخلاقية العلم

لقد تبين من خلال تشخيص ميداني حركي أن مطالب الفقه والأصول ـ كما يرى السيد الشهيد (ﷺ) ـ قد تملأ عقل الإنسان، ولكنها، لا تملأ ضميره ووجدانه، وأن الثراء العقلي قد يقابله أحياناً فقر في الشعور بالارتباط بالله تعالى، لأن تغذيته الشخصية تتم بالصورة النظرية فحسب، وهذا التفريق بين ما هو نظري بحت، وبين ما هو مفارقة سلوكية أو اخلاقية أو روحية، ليس مجرد تنظير للحالة أو الظاهرة، إنما يتحدّث السيد الصدر أو يحدثنا بلغة (وشهد شاهد من أهلها) فهو لا يطرق موضوعاً هو طارئ عليه، بل يعيش في القلب والصميم معاً.

وفي خصوص السيد الشهيد (ﷺ) فإن المتتبع لسيرته ومنهجه الأخلاقي في التعامل يرى أنه اختطّ خطاً واضحاً، يمكن أن نصطلح عليه بـ (أخلاق العلم) والذي يعني ردم الفاصلة القائمة بين العلم النظري المجرد وبين العلم الذي تجلله الأخلاق ويزيّنه حسن السيرة. ولذا فإننا سنتناول هذه الأخلاق

(171) سنوات المحنة وأيام الحصار ص 341.

من أبعاد ثلاثة:

البعد الأول- أخلاقه مع تلامذته.

البعد الثاني- أخلاقه مع نظرائه من المراجع والمجتهدين.

البعد الثالث- أخلاقه مع العلماء والمفكرين غير الإسلاميين.

البعد الأول- أخلاقه مع تلامذته (الخُلق الأبوي):

فعلى صعيد تعامله مع طلابه وتلاميذه نلاحظ تواضعاً فريداً، وعطفاً شديداً، وتفقّداً دؤوباً، وتهذيباً دائماً، وإحساناً إلى المسيئين منهم، وهذا ما تصدّقه الأمثلة الآتية:

((فما يروى عن تواضعه الجمّ أنه سأل أحد تلامذته مسألة فلكية، فقال له ـ بتواضع وتهذيب ـ: اعتبروني تلميذكم واشرحوها لي))[172]!

وكان (رضي الله عنه) قد القى في (جامع الهاشمي) محاضرة عن اضرار الخمر، وكان بين الحضور طالب شاب في كلية الصيدلة أو الطب البديل لديه اطلاع عن المواد الكيمياوية المضرّة، فبعد أن انهى السيد الشهيد محاضرته، خاطب الحضور بالقول والآن نستمع إلى رأي الأخ الاستاذ فلان ليحدّثنا أكثر عن هذا الموضوع.

ومما يروى عن عطفه ورأفته أن ((أبوّته لطلابه كانت ذات طابع خاص لم يسبق لها مثيل في تاريخ الحوزات، حيث شمل طلابه وتلاميذه بعناية خاصة. ففي أيام التسفير[173] التي دامت ستة أيام كان يودّع طلبة الحوزة وهو يبكي بكاءً شديداً، حتى أنه كان يودّع الطلبة من الذين يعادونه ويسبّونه وهو يعلم بذلك، ولكنه حينما ودعهم كان يبكي بكاءً شديداً لفراقهم))[174].

وعن تفقده ورعايته لطلابه ((نقل أحد المقربين منه أنه أخبره أن في المدرسة الشبّرية أحد الطلبة لم يذق طعاماً منذ يومين، فاعتلت وجه السيد الشهيد (رضي الله عنه) كآبة، وقال: هل في النجف من الطلبة من هو جائع لم يذق الطعام منذ يومين وأنا شبعان؟ ماذا أقول للإمام الحجة؟! ماذا أجيب ربي يوم القيامة؟

(172) صحيفة (الجهاد). العدد 232. 27 رجب 1406 هـ. ص5 عن الشيخ إبراهيم الانصاري. أحد تلامذة السيد الشهيد وهو المعنيّ بالرواية المذكورة.

(173) قام النظام العفلقي الذي حكم العراق بالحديد والنار بعمليات تهجير فظيعة بعد عامين من تسلّمه السلطة، حيث شملت حملات التسفير إلى ايران طلبة العلوم الدينية إلى جانب شرائح أخرى.

(174) محمد الحسيني. الإمام الشهيد محمد باقر الصدر ـ دراسة في سيرته ومنهجه. ص79.

ثم ناول الشخص المذكور خمسة دنانير وأمره أن يسرع ويعتذر إلى الطالب ويطلب منه أن يستغفر للسيد الشهيد لأنه لم يكن على علم بحاله))[175].

ونقل عنه الخطيب المرحوم السيد (عبد الرحيم الشوكي) هذه الرواية: ((بعثت أحد الاشخاص إلى السيد الشهيد عندما كنت وكيله واعطيته بعضاً من المال ليدفعه إلى السيد (ﷺ)، ففعل، غير أنّ السيد الشهيد أرجعها إليه ثانية بعد أن أخذ منها ديناراً واحداً فقط، فتعجّب الوسيط وسأله عن عدم قبوله المال، فأجابه (ﷺ): وزّعوه على من تعرفون من الطلاب المعوزين))[176].

ومن الأمثلة على إيثاره طلابه على نفسه أنه حينما عرض عليه أحدهم داراً قال له: ((إذا اشتريت هذه الدار فإني سوف أوقفها لسكنى الطلاب ولن أسكنها أبداً)).

وقال لمتبرع آخر: ((أنا لن أمتلك داراً حتى يتمكن كل الطلبة من شراء دور لهم، وحينئذ سأكون آخر من يشتري))!!

وقد سبقت الإشارة في الحديث عن زهده، كيف أنه كان لا يرضى بشراء مكيفة هواء أو فاكهة أو ما شاكل من المباحات ما دام في الطلبة من لا يتمكن من شراء ما يشتريه عامة الناس، فهو الساعي أبدا لأن يقدم من نفسه المثل الأعلى في مواساة طلابه، والمثل الأعلى للمرجعية كيف ينبغي أن تكون.

ولم يكن السيد الشهيد (ﷺ) يرعى تلامذته في القرب فقط، بل كان يصلهم وهم على البعد أيضا: ففي رسالة صوتية بعثها لأحد تلامذته المسفّرين يخاطب من خلالها بقية طلابه:

((يا من بنيتهم ذرةً فذرة، وواكبت نموّهَم الطاهر قطرة فقطرة، وعشت معهم السراء والضراء واليسر والبلاء، ولم ينفصلوا عني في أية لحظة من لحظات الليل العبوس أو النهار المشرق، يا من أجدهم رغم ابتعادهم، وأجدهم في كلّ ما حولي رغم خلوّ الديار منهم))[177].

هنا نحن ازاء أخٍ واخيه الحميم، واب وابنه الحبيب، ومحب وحبيبه القريب، وليس قبالة استاذ وتلميذه، نحن امام (جو أسريّ) وليس في (جو مدرسي) صارم، وحتى في المدرسيّة نراه يراعي حقّ التلميذ على الاستاذية في العطف والعناية والرعاية والولاية. وحينما انتصرت الثورة الاسلامية المباركة بقيادة

(175) المرجع السابق. ص79 - 80.

(176) المرجع السابق. ص73.

(177) نخبة من الباحثين: محمد باقر الصدر. ص636.

الإمام الخميني (ﷺ) خاطب طلبته الذين في إيران بالقول: ((إن الواجب على كلّ واحد منكم، وعلى كل فرد قدر له حظه السعيد أن يعيش في كنف هذه التجربة الاسلامية الرائدة، أن يبذل كل طاقاته وكل ما لديه من إمكانات وخدمات، ويضع ذلك كله في خدمة التجربة، فلا توقّف في البذل والبناء يُشادُ لأجل الاسلام، ولا حدَّ للبذل والقضية ترتفع رايتها بقوة الاسلام، وعملية البناء الجديد بحاجة الى طاقات كل فرد مهما كانت ضئيلة. ويجب ان يكون واضحا ايضا أن مرجعية السيد الخميني التي جسّدت آمال الاسلام في ايران اليوم لا بدَّ من الالتفاف حولها، والاخلاص لها، وحماية مصالحها، والذوبان في وجودها العظيم بقدر ذوبانها في هدفها العظيم))[178].

وما محاضراته الأخلاقية في أواخر حياته الشريفة خاصة في (المحنة وحب الدنيا) الّا محاولة مخلصة من لدنه لكي يربي تلامذته على ما تربى هو عليه، وليضع بين أيديهم خلاصة تجربة رائدة في جهاد النفس، وعصارة عمر كان حافلا على قصره.

إنّ تواصل السيد الشهيد (ﷺ) مع تلامذته لم يكن في القرب وحده، ولا في البعد وحده، بل يمتد إلى ما بعد الممات أيضاً، وخير دليل على ذلك أنه لما توفي تلميذه (السيد عبد الغني الأردبيلي) في حادث سيارة تأثر (رحمه الله) تأثراً بالغاً، وكان في تلك الفترة مشغولاً بتأليف كتابه (دروس في علم الأصول) فأهدى ثواب كتابه اليه.

وحسب علمي (أي علم الشيخ النعماني صاحب الرواية) لم أر أستاذاً وهو بهذه المكانة والمنزلة قد فعل مثل ذلك، فكتب في مقدمة الحلقة الأولى

((..إني أتوسل إليك يا من دعاه داع، وأفضل من رجاه راج، أن توصل ثواب ذلك هديةً مني إلى ولدي البار وابني العزيز السيد (عبد الغني الاردبيلي) الذي فجعت به، وأنا على وشك الانتهاء من كتابة هنه الحلقات وإخراجها في أسرع وقت، وكانت نفسه الكبيرة وشبابه الطاهر الذي لم يعرف مللاً ولا كللاً في خدمة الله والحق، الطاقة التي أمدتني - وأنا في شبه شيخوخة متهدمة الجوانب - بالعزيمة على أن أنجز هذه الحلقات في شهرين من الزمن..)).

إلى أن يقول: ((أي ربِ، إني إذا كنت قد عجزت عن مكافأة هذا الولد البار، الذي كان بالنسبة لي وبالنسبة إلى أبيه مثالاً للولد المخلص الذي لا يتردد في الطاعة والتضحية والفداء... وإذا كان القدر الذي لا رادَّ له قد أطفأ أملي في أن أمتد بعد وفاتي، وأعيش في قلوب بارّة كقلبه، وفي حياة نابضة بالخير

(178) سنوات المحنة وأيام الحصار. ص348.

كحياته، فإني أتوسل اليك يا ربي بعد حمدك في كل يسر وعسر أن تتلقاه بعظيم لطفك، وتحشره مع الصديقين من عبادك الصالحين، وحسن أولئك رفيقا، وأن لا تحرمه من قربي ولا تحرمني من رؤيته بعد وفاته ووفاتي بعد أن حرمت من ذلك في حياته. وأرجو أن لا يكون انتظاري طويلاً للاجتماع به في مستقر رحمتك..))[179].

وما كانت اخلاقية السيد الشهيد لتقف عند تعامله الأبويّ الحميم مع تلامذته من طلبة الحوزة العلمية، بل كان يفيضها حتى على الطلبة الأكاديميين من الأبرار المخلصين الملتزمين بأهداب دينهم، فلقد زاره في سبعينات القرن الماضي وفد من جامعة البصرة، وكان الشيخ المرحوم (محمد جواد مغنية) عنده، فقال له يعرّفه بهم: ((هؤلاء كإبراهيم في النارِ ولا يحترقون)).

وأما عن صفحات صفحه وتسامحه وحلمه مع طلبته الذين أساءوا إليه، فنقف أمام بعض الشواهد والشهادات لنأتي - في خطوة لاحقة - إلى دراسة ذلك كله:

- ينقل سماحة (السيد كاظم الحائري) أنه ((انفصل أحد طلابه عن درسه وعن خطه الفكري الإسلامي، ثم بدأ يشتمه وينال منه في غيابه أمام الناس. وكان الكثير من كلماته يصل إلى مسامع استاذنا العظيم. وكنت ذات يوم جالساً بحضرته الشريفة، فجرى الكلام عن هذا الطالب الذي ذكرناه، فقال (ﷺ): ((أنا مازلت أعتقد بعدالة هذا لشخص، وأن ما يصدر منه ناتج عن خطأ في اعتقاده وليس ناتجاً عن عدم مبالاته بالدين))!

- وتحدث ذات يوم مشكلةٌ يبعث أثرها أحدُ الطلاب رسالةً الى الإمام الصدر (ﷺ) فيها من الإساءة مالا يمكن الإعراض عنه، وهو ينال من شخصه ويتعرض لكرامته، فيقرأ السيد الصدر الرسالة في مجلس بحثه دون أن يذكر اسم هذا الطالب، ويعلّق عليها محاولاً أن يشعر كاتبها الحب والمودة والإجلال، وأنه موضع احترام السيد الصدر رغم ما صدر منه، مما دعا الطالب الى أن يتعرّف على الإمام الصدر ويكتشف عظمته، فيصبح فيما بعد من أبرز طلبته))[180].

وينقل الشيخ (النعماني) أن أحدهم شتمه واتهمه بأقذع التهم فضلّ صامتاً يستمع إليه، وأراد (النعماني) أن يعنّفه لكن السيد الشهيد (ﷺ) منعه، قائلاً: ((لا بأس عليك. إنني أسمع أكثر وأقسى مما سمعت، عليك أن ترتفع بأخلاقك وصبرك إلى مستوى المسؤولية، فإني بالرغم مما سمعت من هذا الرجل

(179) سنوات المحنة وايام الحصار ص110 - 111.

(180) هاتان الشهادتان عن كتاب (مقدمة في مباحث الاصول) للسيد كاظم الحائري ص226.

من تهم وشتائم، فإني لا أحمل عليه حقدا ولا كرها، لأنه لو اطلع على أوضاعي لما صدر منه ما صدر، وسوف يأتي اليوم الذي يندم فيه، ويصلح خطأه))[181].

بعد هذه الجولة المشحونة بأبوة نادرة، وعواطف غاية في الرقة والنبل، ونفحات نفس في منتهى السخاء والجود والنكران والإيثار، وهي غنية في ذاتها ودلالاتها ولا تحتاج إلى التعليق، نستلّ بعض اللمحات الجديرة بالدرس والتأمل، ففيها أكثر من عبرة في أخلاق العلم وأخلاق العالم مع من يلوذون به من تلامذة ومريدين:

1. فهو (أعلى مقامه) يُشعر طلابه بالندية والتكافؤ والوقوف على قدم المساواة معه، بل يطرح في أنفسهم الثقة العالية ليأخذ بأيديهم إلى الدرجات العلى: ((إفرضوا أني تلميذكم فاشرحوها لي))، ((ليتفضّل الاستاذ الشاب الجامعي وليشرحها لنا)).

2. إنه يبكي لفراق طلابه الأعزاء النجباء الأوفياء ويحنّ إليهم حنين محب لاحبته، ولما كنا قد أفردنا لعاطفة السيد الشهيد (رضي الله عنه) بحثا مستقلا، فإننا سنترك ذلك الى محله.

3. يعتبر(رضي الله عنه) نفسه مسؤولا مسؤولية شرعية أمام الله وأمام وليه الإمام المهدي المنتظر(عج) عن أية حالة إنسانية مؤسفة يعيشها طلابه المعوزون، فكيف يهنأ له العيش ويطيب له الطعام وهناك في تلامذته من لا عهد له بالشبع، بل لم يذق الطعام منذ أيام.. إنه يستحضر عليا (عليه السلام) معلمه ومرشده ومربيه ومثله الأعلى الذي يختزنه، ليعيد لمواقفه سطوعها في مثل هذه الحالات.

4. الروايات الآنفة تشعرنا أنه كان وصولا مع طلبته في القرب والبعد يراسلهم رسالة عمل ومذكرات ووصايا وتوجيهات وإشعار بالحبّ الذي لا يتردد ولا يتحرج في الإفصاح عنه كاملا غير منقوص.

5. وتصل صلته بهم مداها إلى ما بعد الموت، فهو لا يهدي المرحوم السيد الاردبيلي، ثواب السورة المباركة الفاتحة، وهو ثواب عظيم، لكنه أمر في مكنة كل أحد، لكنه يهديه ثواب حلقات بحث علمي فريد، فأية أبوة بارة بأبنائها؟! وأية هدية لا تقدر بثمن؟!

6. ومن دلائل عظمة قلبه الكبير وروحه الأكبر، اعتقاده بعدالة المسيئين إليه من تلامذته، وأن ما يصدر عنهم ناتج عن خطأ في الاعتقاد، أو عن عدم تقدير لظروفه، لا عن عدم المبالاة في الدين، وأنهم سيثوبون لرشدهم إن عاجلاً أم آجلاً، وأنه لا يحمل ضد من أساء إليه أو اقترف ذنباً بحقه حقداً أو كرها.

(181) سنوات المحنة وأيام الحصار ص 127.

وهذه شهادة لأحد طلابه يعبر فيها عن لسان حال زملائه الذين حفرت أخلاق الصدر (ﷺ) في نفوسهم آثارا عميقة لدرجة التسليم له، فيقول: ((لقد أبصرنا فيه مخايل الصديقين فأحببناه وأطعناه، ورأيناه بحال الأتقياء فأعجبنا به، وخضعنا له، ورأيناه يهاب ربه ويخافه فهبناه وخفناه، ورأيناه قد أسلم زمام قلبه لخالقه، فوهبناه أزمّة قلوبنا لا نخشى مغبّة ذلك الانقياد، ولا غائلة ذلك التسليم، ولا عقب تلك الطاعة، لأن من يخاف الله لا يهدينا إلى سواه، ولا يدلّنا على غير طاعته ورضاه))[182].

7. وتتعدّى أبوّته العلمية والاخلاقية حدود الحوزة العلمية ليشمل العاملين للإسلام من طلبة الجامعات حتى لينعتهم بابلغ الأوصاف ويوسّمهم بأرقى الأوسمة.

البعد الثاني: أخلاقه مع نظرائه من المراجع والمجتهدين

ويمكن تناول ذلك من خلال الدوائر التالية:

أ ـ الدعوة إلى حماية المرجعية من الداخل:

لنتعرف، قبل كل شيء، على رؤية السيد الشهيد (ﷺ) لموقع المرجعية في الأمة، لأن ذلك يعدّ مدخلاً لفهم دعواته المتكررة إلى ضرورة حماية المرجعية من الداخل. فهو يرى أن: ((المرجعية عهدٌ ربانيّ إلى الخط لا إلى الشخص، أي إن المرجع محدد تحديداً نوعياً لا شخصياً، وليس الشخص هو الطرف المتعاقد مع الله، بل المركز كمواصفات عامة))[183].

ويرى أيضاً أن: ((المرجعية الدينية الرشيدة والقيادة الروحية هي الحصن الواقي من كثير من ألوان الضياع والانحراف. ومن تلك الحقائق أن القيادات الروحية كانت تقوم بدورها هذا وتنجزه إنجازاً جيداً)).

ويرى مع هذا وذلك: ((أن أهم ما يميز المرجعية الصالحة تبنّيها للأهداف الحقيقية التي يجب أن تسير المرجعية في سبيل تحقيقها، فهي مرجعيةٌ هادفةٌ بوضوح ووعي، وتتصرف دائماً على أساس من تلك الأهداف، بدلاً من أن تمارس تصرفات عشوائية، وبروح تجزيئية، وبدافع من ضغط الحاجات الجزئية المتجددة)).

ومن هنا فإن المرجعية كتحديد نوعي، وكمواصفات عامّة، متعاقدة مع الله. وكحصن واق من

(182) فاضل النوري: سبحات روحية. ص25.

(183) هذا النص وما يليه من النصوص الخاصة بالنظرة إلى المرجعية عن: مباحث الأصول: ص92.

ألوان الضياع والانحراف، وكموقع هادف لا يتصرف بعشوائية، أو روح تجزيئية، أو بوحي من ضغوط الحاجة، لا بدَّ من حمايتها من الداخل لتحافظ على ذلك كله، وإلا فأي تصدع أو أي خلل في أي من مواصفاتها السالفة الذكر هو تحطيم لكيان الشهادة في الأمة.

هذه الرؤية يترجمها مرافقه الشيخ النعماني بصيغة أخرى، حيث يقول: ((لقد أدرك الشهيد الصدر (رضي الله عنه) أن المرجعية ـ بما هي كيان قيادي للمسلمين ـ مستهدفة من قبل السلطة الحاكمة في ظرف كانت تواجه فيه انتقادات خطيرة من بعض قواعدها الشعبية يتعلق ببعض القضايا المادية، فكان لا بدَّ من حمايتها، لأن في ذلك حماية الإسلام، فكان الهدف إذن هو الدفاع عن الإسلام))[184].

وبناء على ذلك، فإن تلمّس مفردات أخلاق السيد الشهيد (رضي الله عنه) في تعامله مع أساتذته وأقرانه من المجتهدين أو مراهقي الاجتهاد، لا ينحصر في تعبير كلمة (أستاذنا) التي يشير بها إلى المرجع الديني الذي تتلمذ على يديه، وإنما في هذه الروح التي لا تجد فيها، وأنت تقرأها جيداً، أية نزعة للتنافس أو الحسد أو التعالي، وبالتالي، فإن نظرة مقارنة بين مرجعية السيد الشهيد (رضي الله عنه) التي تجعل همّها الدائم (الكيان) لا (الشخص) وبين مرجعيات أخرى تقدّم الثاني على الأول، تفضي إلى أن من بين سبل حماية المرجعية من الداخل هو هذا النَفَس الإيماني المتسامي الذي لا يترك للمتصيدين في الماء العكر أي شيء يصطادونه، حتى ولو كان ديداناً متحركة تشبه السمك، وما هي من السمك في شيء.

إننا نرى ذلك ونلمسه في أكثر من موقع يخاطب فيه السيد الشهيد (رضي الله عنه) مدير أعماله الشيخ النعماني في أنه محسوب على مرجعيته، وأنه ينبغي أن لا يتصرف بأي نحو يمسّ تلك المرجعية بأدنى سوء، بل لم يسمح له أن يمارس بعض المباحات، لأنه كان يرى أن موقع المرجعية الحساس في الأمة، والذي صمّم على تمثيله أفضل تمثيل لا يسمح حتى بذلك.

ب ـ اتهام الذات (نقد المرجعية):

ومن بين أهم مظاهر (أخلاق العلم) التي نتحدث عنها هو أن يتهم العالم ذاته بالتقصير، إن كان ثمة تقصير، وأن لا يلقي تبعة ذلك على هذا العامل أو ذاك مجنّباً نفسه أو موقعه المسؤولية في ذلك. وهذا هو شأن رجالات التاريخ العظماء الذين كانوا لا يعفون أنفسهم من التقصير، بل كانوا على استعداد دائم لتحمّل المسؤولية كاملة.

(184) سنوات المحنة وأيام الحصار. ص113.

فهو ((لم ير في الأمة سبباً للانتكاسة دون القيادة، بل وجده فيهما معاً. ويرى أن على العلماء أن يفتّشوا في أخطائهم قبل أن يفتّشوا عن أخطاء الأمة. ولذلك أخذ ينبّه تلامذته على السبب الحقيقي وراء الانفصال بين القواعد الشعبية والقيادة الإسلامية، فلم يفسّره بخيانة هذه القواعد، وإن كانت جزءاً من المسؤولية، بل عمد إلى الكشف عنه وذلك في محاضرته التي ألقاها عن المحنة، ومحاضرته التي ألقاها عن الدور التاريخي للمرجعية، فوجد أن الخطأ يكمن في طبيعة العلاقة بين القواعد الشعبية وقياداتها الإسلامية، لأن الأوساط العلمائية لا تتعامل مع هذه القواعد، بل تتعامل مع أجدادها الأموات))[185].

وبهذا يكون السيد الشهيد (رضي الله عنه) قد شخّص نقاط الخلل في الحوزة العلمية على مختلف مستوياتها مرجعيات وطلبة علوم دينية بـ[186]:

1ـ فقدان روح التضحية والإيثار؛ حيث يرى أن الحوزة بحاجة إلى أخلاقية التضحية بدلاً عن أخلاقية المصلحة الشخصية. ولا شكّ أن السيد الصدر (رضي الله عنه) لا يتحدّث بلغة العموم، وإنما هو بصدد الحديث عن (الظاهرة) لا عن (المستثنيات).

2ـ فقدان نزعة التجديد في أساليب العمل؛ حيث يرى أن الحوزة تدرّس العلم لكي تجمّده في الرؤوس لا أنها تدرّسه للعمل، عدا شخصيات عُلمائية خرجت من عباءة الحوزة لترتدي لباس العصر لا من حيث (الزيّ) بل من حيث (التعاطي) فبزّوا أقرانهم، وكان لهم شأن من الشأن، فهو ينتقد العامة لا المفردات النادرة.

3ـ عدم الشعور التفصيلي بالارتباط بالله تعالى؛ فهو يرى أن الأخلاقية التي تعيشها الحوزة ـ بشكل عام ـ ليست أخلاقية الإنسان العامل، بل هي أخلاقية إنسان آخر لا يصلح للعمل الحقيقي.

4ـ فقدان الحدس الاجتماعي كأساس للعمل الاجتماعي؛ ويرى أن الحدس الاجتماعي يتكون من خلال التفاعل مع الناس والإطلالة على ظروف العالم، ويدعو إلى التحرر من (النزعة الاستصحابية)[187] التي تشلّ العمل وتجمّده وتحجّمه.

(185) محمد الحسيني. الإمام الشهيد محمد باقر الصدر ـ دراسة في سيرته ومنهجه. ص84.

(186) نقاط الخلل هذه مأخوذة بتصّرف من محاضرته عن (حبّ الدنيا).

(187) معنى (النزعة الاستصحابية) هنا أنّ ثمة خطأ تقليدياً كامناً يخاف على الهوية الدينية من تأثير أي تجديد أو تطوير، فيطالب بثباتها واستدامتها مع ركونها وسكونها، متحفظاً على أي نقد للتراث، وأي نقاش في الافكار السائدة، أو تغير في أساليب العمل الديني المتوارثة عن الاسلاف. (راجع: السيد علي السلمان. قراءة في المنهج، للشيخ حسن الصفار).

5ـ حب الدنيا؛ حيث يرى أنه ((إذا كان حب الدنيا خطيئة، فهو منا نحن الطلبة ـ وهذا هو تعبيره بالحرف ـ من أشد الخطايا؛ لأننا نصّبنا أنفسنا أدلّاء على طريق الآخرة))، ويضع تلامذته على محكّ التجربة حينما يخاطبهم: ((نحن نقول: إننا أفضل من هارون الرشيد، أورع من هارون الرشيد، أتقى من هارون الرشيد. عجباً! هل عُرضت علينا دنيا هارون الرشيد فرفضناها حتى نكون أورع من هارون الرشيد؟!

يا أولادي، يا إخواني، يا أعزائي، يا أبناء علي، هل عرضت علينا دنيا هارون الرشيد؟

لا، عرضت علينا دنيا هزيلة محدودة ضئيلة، دنيا ما أسرع ما تتفتت، ما أسرع ما تزول، دنيا لا يستطيع الإنسان أن يتمدد فيها كما كان يتمدد هارون الرشيد، هارون الذي يلتفت إلىَ السحابة فيقول لها: أينما تمطرين يأتيني خراجك! في سبيل هذه الدنيا سجن موسىَ بن جعفر (عليه السلام).

هل جرّبنا أن هذه الدنيا تأتي بيدنا ثم لا نسجن موسىَ بن جعفر ؟ جرّبنا أنفسنا، سألنا أنفسنا، طرحنا هذا السؤال علىَ أنفسنا، كل واحد منّا يطرح هذا السؤال علىَ نفسه، بينه وبين اللَّه أن هذه الدنيا، دنيا هارون الرشيد كلّفته أن يسجن موسىَ بن جعفر، هل وضعت هذه الدنيا أمامنا لكي نفكّر بأننا أتقىَ من هارون الرشيد؟

ما هي دنيانا؟ هي مسخٌ من الدنيا، هي أوهامٌ من الدنيا، ليس فيها حقيقة إلّا حقيقة رضا اللَّه سبحانه وتعالىَ، إلّا حقيقة رضوان اللَّه.

كلّ طلبة (طالب) حاله حال علي ابن أبي طالب، إذا كان يعمل للدنيا فهو أتعس الناس؛ لأنّ أبواب الدنيا مفتوحة، خاصة إذا كان الطلبة له قابلية، له إمكانية، له ذكاء، له قابليات، هذا أبواب الدنيا مفتوحة له، فإذا كان يعمل للدنيا فهو أتعس الناس؛ لأنّه سوف يخسر الدنيا والآخرة. لا دنيا الطلبة دنيا ولا الآخرة يحصل عليها. فليكن همّنا أن نعمل للآخرة، أن نعيش في قلوبنا حبّ اللَّه سبحانه وتعالىَ بدلاً عن حبّ الدنيا؛ لأنّه لا دنيا معتدّ بها عندنا))[188].

إن سيدنا الشهيد (رضي الله عنه) في نقده للمرجعية نقداً صارماً، إنما يحاول حمايتها من الداخل، ذلك أن السكوت على التقصير فيها يعني تركها تتآكل وتتصدع وتسقط هيبتها في أعين الناس، فيما التنبيه إلى نقاط الخلل فيها ينبغي أن يكون داعياً ودافعاً لتفادي ذلك، وإصلاحه، والعمل على معالجته من

(188) هكذا قال الصدر: ص85.

قبل أن يستفحل فيصعب علاجه، أو ـ في مرحلة أسوأ ـ قد يتحول السلب إلى أمر واقع فيصبح إنكاره أو استنكاره مدعاة لهجوم المتحجرين أو أعداء الحوزة المتربصين بها لدوائر، وهو ما حصل في بعض مقاطع التاريخ الحوزوي لاسيما المتأخرة.

يقول أحد تلامذته معقّباً على انتقادات السيد الشهيد (رضي الله عنه) للحوزة العلمية واصفاً إياها بـ(الانتفاضة): ((لقد كان الوضع الخُلقي للمرجع الشهيد ثورةً على القديم المألوف في الحوزة، وكانت فضائله (رضي الله عنه) انتفاضةً عظمى هزّت ركام المعتاد الجاثم على سمعة الحوزة واعتبارها، فانبعثت من تحته شخصية جديدة اسمها المرجعية المؤهلة للقيادة المتصفة بصفات القادة الصالحين السائرين على خط أهل البيت (عليهم السلام) وقد حفدت[189] القلوب مشوقة والهة إلى احتضان هذه المرجعية، والذنوب في تقديسها وإجلالها واستذكار الملامح الثورة لأسوتها وأصلها))[190].

ج ـ التواضع للمراجع واحترام مواقفهم:

منذ نعومة أظفاره عُرف السيد الشهيد (رضي الله عنه) بالعلم وبالتواضع المتلازمين، ونَمَيا في مراحل عمره اللاحقة مترافقين متعاضدين متلازمين: العلم كشاخص والتواضع كظلّ له.

يقول معلّمه في (منتدى النشر الابتدائية) في الكاظمية: ((ما وجدته يوماً وقد ارتكبه الغرور، أو طغى عليه العجب بنفسه، أو تعالى على زملائه التلاميذ مما عنده في علم ومعرفة))[191]. وهذا يعني أنه لم يكن يباهي بعلمه أو ينافس غيره من العلماء، إنما كان يريد به وجهاً واحداً وهو وجه الله تعالى، وهذا بحد ذاته مَعلم أساسي من معالم شخصيته العلمية والأخلاقية.

وكما أن حالة الاحترام للزملاء والتواضع لهم ـ على الرغم من رجاحة علم السيد الشهيد (رضي الله عنه) وجلالة قدره ـ لم تنشأ متأخرة، فإنها كانت تزداد أكثر كلما كان علمه يزداد أكثر، وكلما كان موقعه يبرز أكثر. فلقد بقي ينظر إلى السيد الخوئي! كأستاذ يراعي موقعه العلمي في الحوزة العلمية وبين المراجع الآخرين، كما كان يجلّ المرجع السيد محسن الحكيم! ويستشيره ويتداول معه في شؤون العمل الإسلامي ويستجيب لطلباته. مثلما كان يُكبر ويجلّ ويعظّم الإمام الخميني (رضي الله عنه) غاية الإجلال والاكبار والتعظيم، ويمكن النظر إلى ذلك ليس من خلال الاحترام الشخصي المجرد فقط، بل باتخاذ المرجعيات

(189) حفدت: أي خفّت وأسرعت في العمل.

(190) فاضل النوري: سبحات روحية. ص113.

(191) السيد الحائري: مقدمة مباحث الأصول. ص40.

المذكورة مرجعية استشارية خاصة له أيضاً، بمعنى أنه يلجأ إليها في المواقف الصعبة مستنصحاً ومسترشداً، كما رأينا ذلك في استجابته للسيد محسن الحكيم (ﷺ) في تجميد عضويته في (حزب الدعوة الإسلامية) إثر إدراك السيد الحكيم لخطورة بقائه في الحزب، بعد ما علم بأن السلطة الحاكمة في العراق تخطّط للقضاء عليه، على خلفية ما توافر لديها من معلومات عن ارتباطه بالحزب المذكور.

وكما رأيناه يتعهد لموفد المرجعية في عهده في أن تكون مرجعيته في طول تلك المرجعية لا في عرضها، وأن طبع الرسالة العلمية شيء ومزاحمة المرجعية العليا وايجاد التفاضل في الأعلمية والتعديل عن التقليد شيء آخر.

يقول الشيخ (النعماني) في تعليقه على هذه الحادثة: ((لم يحدث أن يخضع مرجع من مراجع التقليد إلى محاسبة مرجع آخر على تصديه للمرجعية وطبع رسالته العملية. إن هذا الأمر لا سابقةَ له في تاريخ المرجعيات، وهو أمر يثير العجب))[192].

وكما رأيناه يوفد الى السيدين الخوئي والخميني (ﷺ) من يطلعهما على قراره بالاستشهاد في الصحن العلوي الشريف، بعد أن يواجه السلطة الجائرة بخطاب ناري يفضح فيه جرائمها كلها ويؤلب الأمّة عليها. فعلى الرغم من مرجعيته المشهود له بها. كان يرى ضرورة تأييد المرجعية لعملٍ مثل هذا.

وقد تجلّى احترامه للمرجعيات الأخرى وتواضعه لها فيما كان يكتب، فلقد كتب في مقدمة كتابه (غاية الفكر في الأصول): ((ولئن كان أكثر مطالب هذا الكتاب مخالفاً لما هو المسموع من الكلمات، فليس ذلك لأني قد اهتديت إلى ما لا يصل إليه الأساتذة والأكابر. وهيهات لذهني القاصر أن يرتفع إلى ذلك، وإنما هو لأني لم أوفق للعروج الى آفاق تفكيرهم ومجاراتهم في أنظارهم الدقيقة، وكل رجائي من المولى سبحانه أن يشملني بعنايته ولطفه ويوفقني لاقتفاء أثرهم ويعدني للتشرّف باتباع خطواتهم المباركة))[193].

ويشهد لتواضعه العلمي أحد تلامذته ممن عاش ذلك التواضع عن كثب، فيقول: ((وهذا التواضع الذي قد يصح أن نسميه (التواضع القيادي) يصحبه تواضع مثله وعلى مستواه، لأنهما من معدن واحد، هو (التواضع العلمي) فهو في دروسه اضعا وسماحة. لا يذكر أساتذته إلا بأرفع النعوت وتأليفه يفيض تو مثل (سيدنا الأستاذ). ولا يذكر آراءهم، ولو كان بطلانها لديه واضحاً، إلا بأحسن ما يريدون لها أن تذكر، ويعرضها كما يحبون لها أن تعرض. بل قد يعرضها ويؤولها بوجوه حبيبة لم يقصدوها، ثم يتصدى

(192) سنوات المحنة وأيام الحصار ص 177.

(193) محمد الحسيني: الإمام الشهيد محمد باقر الصدر. ص 84.

لها بعد ذلك ينفي عنها وجه الصواب بأدب جم، وخلق عظيم. بل إن تواضعه لروح الفكر يجعله يتواضع لكل فكرة مهما كانت غير صحيحة عنده، ويبديها إذا أراد نقدها، بخير وجوهها))[194]. وهذا خلق عظيم من أخلاق العلم التي امتاز بها سيدنا الشهيد (ﷺ)، كما سيأتي في محلّه.

وقد تجلّى ذلك أيضا في احترام أبناء المراجع ممن كانوا يمثلون آباءهم في النيابة عن هذا العمل أو ذاك، وليس أدل على ذلك من موقفه في الصلاة على جنازة ميت دعي إليها هو والسيد يوسف الحكيم (رحمه الله) في آن واحد، حيث تأخر (ﷺ) ملحاً على السيد يوسف بالتقدم للصلاة، معتذرا أنه غير مسبوق بقدومه. ولم يكتف بذلك - على الرغم من أنه يومذاك من كبار العلماء، بل ذهب الى منزل السيد يوسف الحكيم ليكرّر الاعتذار، ويعلن عن أسفه الشديد لما حصل.

هذه الأخلاقية في التعامل مع الند أو المثل، في ظل ما هو ابتلاء متعارف من العلماء بالحسد أو المنافسة أو المزاحمة في الموقع، تعكس روحية السيد الشهيد (ﷺ) الذي لم يعرف عنه أو يُسجّل عليه موقف واحد حسد فيه عالما غيره، أو وقف منه موقفاً ينم عن ذلك. كما تعكس - من جهة أخرى سعيه (ﷺ) في أن لا يضع أهل صنفه في الموضع الذي يستوجب الحسد، اللهم إلا علمه الجم الذي لم يكن هناك من سبيل الى حجبه أو التقليل من آثاره على النفوس التي لا تطيق أن ترى نجمه يزداد لمعانا. ولذلك يصدق القول إن أصحاب العقول محسودون، بينما أصحاب القلوب محبوبون. لكننا - في مثال السيد الشهيد (ﷺ) وجدنا طغيان الحسد للدرجة التي طال التجني فيها حتى عاطفته الإسلامية النبيلة فلم تنج من الجرح والغيرة والقدح والحسد.

د ـ المواقف المؤيدة والمساندة للمرجعية:

كان يمكن أن تدمج هذه الفقرة بالتي سبقتها، خاصة وأنهما تصبّان في عنوان متقارب، لكن آثرنا الحديث عن هذا الموضوع بشيء من الاستقلالية، لأنه إذا كان التواضع للمراجع الآخرين واحترامهم مما يمثّل الجنبة الأخلاقية البحتة في التعامل معهم، فإن مواقف التأييد والمساندة تعني التجسيد العملي لما هو أعراف أخلاقية سائدة في أوساط المرجعية أو الحوزة العلمية، بل تعني ـ في المغزى الآخر ـ تقديم الصورة الأمثل للتعامل الأخلاقي بين المراجع، فإن صورة السيد الشهيد (ﷺ) تطلّ على صفحة الذاكرة مشعّة بكل تلك المعاني.

فحينما يُتهم الشهيد السيد مهدي الحكيم (ﷺ) بالعمالة من قبل النظام الحاكم في بغداد يبادر

(194) فاضل النوري: سبحات روحية. ص 51.

السيد الصدر (ﷺ) وبالتنسيق مع مرجعية السيد الحكيم! لإقامة اجتماع جماهيري حاشد يعبّر عن مستوى تغلغل المرجعية وامتدادها في أوساط الأمة.

وحينما تحاصر السلطة الباغية السيد محسن الحكيم (رحمه الله) نفسه يكسر السيد الشهيد الحصار ليكون أول داخل عليه، بل يسافر إلى لبنان ليقود من هناك حملة إعلامية مكثّفة دفاعاً عن المرجعية.

وحينما يزمع الإمام الخميني (ﷺ) مغادرة العراق تحت ضغط الحزب الحاكم، يقرّر شهيدنا الذهاب إلى بيت الإمام لتوديعه على الرغم من المراقبة المشدّدة والمكثّفة المفروضة على منزله، ولمّا لم يوفّق لتوديع الإمام، لأنه كان قد غادر قبل وصوله، فإنه يجلس في منزله كتعبير رمزي عن تعاطفه معه.

بيد أن أبلغ صور التأييد وأوفاها، تلك التي وقف فيها السيد الشهيد (ﷺ) موقف النصرة التامّة والمؤازرة الكاملة لثورة الإمام الخميني (ﷺ)، وللجمهورية الإسلامية في إيران، بل ولمرجعية الإمام القائد (ﷺ) الذي حقّق حُلم الأنبياء بحسب تعبير السيد الشهيد نفسه، سواء في برقيات التأييد والمساندة والمباركة، أم في التعبير عن الاستعداد لأن يضع نفسه ومرجعيته وكل ما يملك في خدمة الثورة وقائدها، أم في دعوة تلامذته ومريديه أن لا يدّخروا وسعاً في بذل أقصى ما يستطيعون من أجل تلك الخدمة الجليلة، ومما جاء في رسالة موجّهة منه إليهم:

((ويجب أن يكون واضحاً أن مرجعية السيد الخميني التي جسّدت آمال الإسلام في إيران اليوم، لا بدَّ من الالتفاف حولها، والإخلاص لها، وحماية مصالحها، والذوبان في وجودها العظيم بقدر ذوبانها في هدفها العظيم))[195].

يقول (النعماني) شاهداً على مدى اندكاك السيد الشهيد (ﷺ) بالثورة الإسلامية وبقائدها: ((وقد سمعته مراراً يقول أمام بعض من كان يعترض على تأييده للسيد الإمام والثورة الإسلامية: لو أن السيد الخميني أمرني أن أسكن في قرية من قرى إيران أخدم فيها الإسلام، لما ترددت في ذلك. إن السيد الخميني حقّق ما كنت أسعى لتحقيقه))[196].

وفي قبال هذا التواضع والاحترام والتقدير والتأييد لمواقف المرجعية الممثلة في المراجع الآخرين،

(195) سنوات المحنة وأيام الحصار. ص164.

(196) المرجع السابق. ص164.

نراه يخاطب خاصّة طلابه، كما يشهد بذلك (عبد الهادي الشاهرودي) أحد طلّابه المقرّبين، بالقول: ((يجب عليكم أن لا تتعاملوا مع هذه المرجعية ـ يقصد مرجعيته هو ـ بروح عاطفية وشخصية، وأن لا تجعلوا ارتباطكم بي حاجزاً عن الموضوعية، بل يجب أن يكون المقياس هو مصلحة الإسلام، فأية مرجعية أخرى تستطيع أن تخدم الإسلام وتحقّق له أهدافه يجب أن تقفوا معها وتدافعوا عنها، وتذوبوا فيها. فلو أنَّ مرجعية السيد الخميني ـ مثلاً ـ حقّقت ذلك فلا يجوز أن يحول ارتباطكم بي عن الذوبان في مرجعيته))[197].

إنه هنا لا يدعو فقط إلى نفسه وإلى مرجعيته ـ لا تصريحاً ولا تلميحاً كما هو معهود ـ وإنما يدعو تلامذته ونفسه إلى الاندكاك في المرجعية الخط المتوافرة على مواصفات المرجعية الشهيدة الرشيدة، بقطع النظر عمن يمثلها، وهو خُلق ـ أقل ما يقال فيه ـ إنه نادر في أوساط المرجعية والحوزة.

البعد الثالث: أخلاقه مع العلماء والمفكرين (الخُلق العلميّ)

(أخلاقُ العلم) أو (الخُلُق العلمي) في الاحترام الجمّ للعلم والعلماء من الموافقين والمخالفين، خصّيصة من خصائص الأخلاق الصدريّة الكبرى، ففي الوقت الذي قد لا يرى فيه بعضهم سبباً لربط العلم بالأخلاق، يؤكد منهج السيد الشهيد (ﷺ) الأخلاقي أن الصلة بين العلم وبين الأخلاق وثيقة، بل إن علماً بلا أخلاق، مهما كان عظيماً، قد يتحول إلى قوّة مدمّرة، وإلى تعالٍ بغيض، وإلى تجاوز للقيم والأعراف، وربما إلى عصبية مقيتة.

ولقد وفّر علينا الأستاذ نزيه الحسن في كتابه: (السيد محمد باقر الصدر: دراسة في المنهج) عناء البحث في مقومات هذا الخلق الصدري الذي يقول عنه: ((من الإخلاص للحقيقة العلمية أن يشار إلى الخطأ لدى باحث معين أو فكرة محددة، وعلى الباحث ألّا يراعي هذه الفكرة أو لقب ذاك الباحث من أجل تبيان وجه الصواب الذي حيدَ عنه، سواء أكانت النية حسنة أم كانت غير ذلك. ونحن نرى باحثنا ـ ويعني السيد الصدر ـ يذهب إلى أبعد من هذا الخلق العلمي فلا ينقد رأياً أو فكرة إلا بمزيد من الترفق بمن هو موضوع هذا النقد. ولئن جاز لي ـ للحسن ـ التمثيل فلأستعيرنّ مصطلحين إسلاميين هما: العدل والإحسان. فالعدل هو الجانب الموضوعي من الحق، أما الإحسان فهو إلزام ذاتي تفرضه على نفسك لغاية سامية))[198].

(197) سنوات المحنة وأيام الحصار. ص134.

(198) نزيه الحسن: السيد محمد باقر الصدر ـ دراسة في المنهج. ص46 - 47.

وحينما يتحدث عن سمة (الموضوعية) كقيمة أخلاقية للعالم، فإنه يراها تتمثل لدى السيد الصدر (رضي الله عنه)، فيما يلي[199]:

أ. إنصاف الخصم وإبراز مزاياه. فهو إذ يفنّد آراء (ماركس) ويهدّم الماركسية بأسلوب علمي رصين نراه ينصف ماركساً، ويرى أنه صاحب عقلية جبارة.

ب. الأمانة العلمية. وهذا ما نلاحظه في دقته في الاعتماد على المراجع، وفي نقل أفكار الخصم بأفضل صورة ممكنة وبتحرره المذهبي، ونزاهته في البحث. والمراد بالتحرر المذهبي هو أنه على الرغم من أن السيد الصدر ينتمي إلى مذهب أهل البيت (عليهم السلام) (فقهياً) فإن انتماءه هذا لم يقف حائلاً دون أخذه بآراء المذاهب الفقهية الأخرى: الشافعية، والحنفية، والمالكية، والحنبلية.

ويمكن أن نضيف هنا إلى ما تفضّل به الأستاذ (الحسن): أن من بين أخلاق العلماء عدم المتاجرة بعلمهم، أو تسخيره لمآرب دنيوية رخيصة، أو استعماله في غير مرضاة الله عزّ وجل. فلقد حاول رئيس الجمهورية العراقية السابق (أحمد حسن البكر) ـ كما سبقت الاشارة ـ أن يسخّر علم السيد الشهيد (رضي الله عنه) بأن يطلب منه تأليف كتاب بمستوى كتبه العلمية الرائعة ويطبعه باسم البكر لقاء ما يشاء من مال وجاه، لكن السيد الشهيد (رضي الله عنه) رفض العرض، مثلما رفض من قبل عروضاً مثله، كما في طلب السلطة طبع وتبنّي كتاب (فلسفتنا) بعد إجراء تعديلات عليه.

وربما كان بإمكان السيد الشهيد (رضي الله عنه) أن يمارس التقية في هذه الحالات الضاغطة، خاصة وأن الرفض يضيف إلى قائمة حسابه عند السلطة عوامل جديدة لقتله، لاسيما وأنه يرفض طلب رأسها الأعلى، وهو الذي تعوّد أن لا يُرفض له طلب. لكن هذا قد يكون خُلق الضعفاء، أما السيد الصدر (رضي الله عنه) فإنه ترك صورته في أذهان الطغاة قوية تهزّ جبروتهم في رفض كل ما طرحوه عليه من عروض خفيفة وثقيلة.

ولعلّ من أخلاق العلماء النادرة أن يكون العلم وما يحققه من منفعة وهداية للناس أهم من الاسم والجاه والعنوان. ولقد سبقت الإشارة إلى أن السيد الشهيد (رضي الله عنه) كان مستعداً أن ينشر أهم كتبه ـ فلسفتنا ـ باسم (جماعة العلماء في النجف).

وإن من أخلاق العلماء الذين يقدّرون العلم حق قدره، أن يقدّروا علم الآخرين ممن هم دونهم علماً. وهذا ما نجده فيما كتبه! من مقدمات لكتب بعض تلامذته والتي قدّر فيها جهودهم العلمية بإنصاف العالم وتحفيزه للذين هم دونه في العلم، ولا يعني ذلك المجاملة على حساب القيمة العلمية للكتاب. بل إنك تراه حينما يزوره (الدكتور عبدالفتاح مقصود)يثني على كتابه عن الإمام علي (عليه السلام)

(199) المرجع السابق. ص248 وما بعدها بتصّرف.

لكنه يقول له: ولنا عليه ملاحظات، ويذكرها له بما يثير دهشة مقصود وتسليمه بكل تلك الملاحظات التي وعده بالأخذ بها في طبعات الكتاب اللاحقة.

ومن أخلاق العلم التي اتصف بها السيد الشهيد (رضي الله عنه) أنه ((ينصت لكلّ إشكال يطرحه تلامذته ويردّه ولو كان خارجاً عن روح بحثه، ولا يردّ أحداً منهم يناقشه ردّاً قاسياً، ولا يشتطّ في جوابه، ولا يغلظ عليه حتى لو أساء ملاددته[200] ومعارضته))[201].

غيرَ إن هذا لا يمنعنا من الاشارة إلى أن السيد محمد باقر الصدر (رضي الله عنه) كان لا يجامل على حساب العلم والحقيقة والوعي. يذكر (الشيخ النعماني) في كتابه (الشهيدة بنت الهدى ـ سيرتها ومسيرتها) أنّ ((من عادة السيد الشهيد صرف الاشخاص الذين يخوضون في مطالب علمية ليست بمستواهم، إمّا بالسكوت وعدم التجاوب، أو بنصحهم لما فيه نفعهم))[202].

كما أن احترامه للاختصاص واعترافه بالفضل يجعله لا يتردّد في ترجيح علم الآخر الذي قد لم يصل هو إليه.

تروي السيدة (أم فرقان) في كتابها (بطلة النجف): ((أن السيد الشهيد كان في إحدى الجلسات يشرح لاخته الشهيدة بنت الهدى (رضي الله عنها) بعض المطالب في كتاب (فلسفتنا)، فقالت له: سيدنا أين أنا منكم، أنا لا أصل إلى درجة من درجات علمكم وفلسفتكم. فأجابها: أنت أقدر مني في كتابة الشعر والأدب، فمع حبي للشعر وتذوقي له لكنني لا استطيع ان اكتب بيتاً واحداً. إنها موهبة وانت أقدر مني في ذلك))[203].

(200) الملاددة: الاختلاف في الرأي لدرجة التضادّ الحادّ.

(201) فاضل النوري: سبحات روحية. ص52.

(202) النعماني: الشهيدة بنت الهدى ـ سيرتها ومسيرتها. ص29.

(203) أم فرقان: بطلة النجف. ص74.

المحور الثاني: خصائص المدرسة الأخلاقيّة الصدريّة

بعد أن وقفنا على أبرز أصول المدرسة الأخلاقية الصدرية، وتبين لنا التلازم الشديد بين نصوص الصدر التربوية والروحية وبين تجربة الصدر الأخلاقية، لدرجة اندغام النص مع التجربة، نقف الآن عند خصائص هذه المدرسة والتي يمكن استشرافها ضمن الخصائص الخمس الآتية:

أولاً: الأريحيّة[204].

ثانياً: الشمولية.

ثالثاً: التجسيدية.

رابعاً: المعيارية.

خامساً: الغيرية.

وسنقف عند الخصيصة الأولى مطولاً تقديراً منا لأهميتها في حياة السيد الشهيد (رضي الله عنه) ولما أثير حولها من تقييمات فيها الكثير من التجني، والكثير من الجهل والمغالطة.

أولاً: الأريحيّة

ليست هي الارتياح للبذل والعطاء وعمل المعروف وفعل الخير فقط، ففي (لسان العرب)، (الأريحيّ): الرجل الواسع الخلق النشيط إلى المعروف يرتاح لما طلبت ويُراح قلبه سروراً.

الأريحية أكثر ما تقال في (السخاء) لكننا نفهم السخاء ـ من وجهة نظر صدريّة ـ هو الخلق الكريم والسماحة واللطف والذكاء العاطفي أيضاً. فما نريده بـ(الأريحيّة) هو العاطفة الصدرية الجيّاشة التي لم يتفيأ ظلالها تلامذته فقط، ولم يستشعرها العلماء الآخرون فحسب، بل بسطت ظلالها الوارفة حتى على أعدائه ومناوئيه.

وإذ نستعير للعاطفة مصطلح (الأريحيّة) فلأننا نجدها أكثر انطباقاً على الجانب العاطفي في حياة السيد الشهيد (رضي الله عنه)، فأنت تلمس هذه الأريحية من خلال أول لقاء تلتقيه، ومن أول كلمة تسمعها منه، بل أول نظرة حب باسمة تستقبلك قبل الترحيب والسلام، حتى إذا حادثته ـ أياً كان فحوى حديثك ـ ملك عليك العقل والقلب والجوانح كلها، فأنت في حضرته لست آذاناً صاغية كلك، بل عيوناً

(204) كنّا في الطبعة الأولى من هذا الكتاب قد اطلقنا على هذه الخصلة أو الخصيصة اسم (الشفافية) ونرى أن استبدالها بـ(الأريحيّة) أوفق.

متطلعة للآفاق، ومشامّ تتنشق عبق الأنبياء (عليهم السلام) وأريج الأئمة (عليهم السلام)، ولوامس تتكهرب بالروح الدفّاقة كنبع صاف، يذوب لحلاوتها وعذوبتها كيانك ـ مهما كنت تحمل له من درجات الحب والاحترام.. ألم يقل له ذلك الجلف الذي رأس أخطر وأرهب مؤسسة مخابراتية في الشرق (فاضل البراك): ((سنقتلك ونبكي عليك))!! هل رأيتم قاتلاً جافياً يبكي قتيله، إلا إذا كان القتيل بشفافية أكمام الورد وصفاء قطرات الندى ورقة النسيم العليل؟! وانه من (الأريحية) في أعلى مكان!

وبالنظر لكون البحث علمياً فإننا لا نرى أن هذه الديباجة الأدبية تشذّ عن سياق البحث، لأنك لا يمكن أن تتحدث عن الأريحيّة بلغة جافة، لكن ذلك لا يمنع من أن نتقرى عاطفة السيد الشهيد (رضي الله عنه) من خلال النصوص التي بين أيدينا والتجربة التي أمامنا، فلننظر إلى ما قاله في ذلك، وإلى ما قيل في ذلك، وإلى ما يمكن أن نقوله في ذلك.

فحينما يستظل (رضي الله عنه) الآية الكريمة (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ)[205]. يقول: ((ألم يأن لهؤلاء الذين أضاء الإيمانُ عقولَهم وتمكنت العقيدة من نفوسهم، وتبين لهم الحق متجسداً في أشرف رسالات السماء، أن يفجّر هذا الإيمان في نفوسهم موجات العاطفة، ويشعّ فيها انفعالاً خاصاً يتفق مع طبيعة ذلك الإيمان وجوهره حتى تمتلئ قلوبهم بالخشوع للحق والانقياد له والانصياع إلى أوامره ونواهيه))[206]؟!

ويضيف: ((وبمقدار ما تكون الرسالة أكثر عمقاً وتركّزاً في موضعها الرئيسي من عواطف المسلم، ترتفع شخصيته الفكرية، ويكتمل طابعه الإسلامي، كما ترتفع شخصيته الفكرية، ويكتمل طابعه بمقدار وجود القاعدة الإسلامية وتمركزها فيها))[207].

ومن هذين النصين يمكن استنباط الحقيقة التربوية التالية:

إن استخلاص القواعد التربوية والأخلاقية من النصوص الصدرية ليست ناجمة عن دراسة متعمقة لأثر الرسالة الإسلامية التربوية على نفسية الشخصية الإسلامية فحسب، وإنما هي ناشئة أيضاً من عملية تجريب لهذا الأثر، وتلمّس لانعكاساته على تلك الشخصية، وهي هنا شخصية السيد الشهيد

(205) الحديد: 16.

(206) محمد باقر الصدر: رسالتنا. ص33.

(207) المرجع السابق. ص36.

(ﷺ). فتعمّق الرسالة وتركّزها في عواطف المسلم قائدةٌ ـ بشكل طردي ـ إلى اكتمال الطابع أو الهوية أو الصبغة الإسلامية من جهة، وإلى اكتناز الشخصية الفكرية من جهة أخرى، وكلاهما عند سيدنا الشهيد (ﷺ) بائنتان واضحتان فلا تباين ولا تناقض ولا تفاوت ولا ازدواج.

واستكمالا للنص السابق فإنه (ﷺ) يرى أن العقيدة الإسلامية هي ينبوع العواطف الإسلامية، فيقول: ((فالعقيدة الإسلامية ينبغي أن تكون في نظر الإسلام ينبوعاً لأعمق العواطف في نفس المسلم، كعاطفة الحب العميق لله ولرسوله وللرسالة التي تسمو على كل عاطفة وتهون في سبيلها كل العلائق: علائق الأبوة والبنوة والأخوة والزوجية والعشيرة، وعلائق المال والتجارة والمسكن. وتقوم على أساس التقدير العاطفي لكل موقف ولكل واقع))[208][209].

فالسيد الشهيد (ﷺ) يلفت النظر هنا إلى أن العقيدة لا تحتاج إلى التزاوج العقلي ـ العاطفي، أو تطعيم العقل بالعاطفة والعاطفة بالعقل، فالعقيدة الصالحة ينبوع ومخزن لأعمق العواطف، فلا يمكن أن يكون توحيدٌ لله ولا حبَّ معه وفيه، وإلا فالخلل في التوحيد كونه ليس خالصاً، فعلى أساسه أو بوحي منه ـ حسب رؤية السيد الشهيد ـ يقوم التقدير العاطفي لكل موقف ولكل واقع، بل ولكل إنسان وكل علاقة، وبالتالي، فالتناسب طردي بين عمق التوحيد وعمق الحب لله، وحب من يحبه الله، وحب أي عمل يقرّب إلى الله.

وهو يدعونا إلى أن نعي الفرق بين عاطفة إسلامية سامية وعميقة متجذرة في النفس تسوسها وتقودها في دروب الخير وفي آفاق رضا الله، وبين عاطفة سطحية مائعة ليست أكثر من أحاسيس ومشاعر سريعة الطفو والطفح والاشتعال، سريعة الأفول والذبول والزوال، فيقول:

((وأما العواطف السطحية المائعة التي لا تستند إلى مفهوم، والتي يثيرها الإحساس أكثر مما يثيرها الفكر، فليس من الصحيح للدعوة أن ترتكز على هذه العواطف؛ لأن انتشار هذه العواطف المنخفضة يشكّل خطراً على الدعوات الفكرية التي تحاول الارتفاع بذهنية الأمة إلى المستوى الفكري والتسامي بها عن المشاعر المرتجلة والأحاسيس الساذجة))[210].

(208) محمد باقر الصدر: رسالتنا. ص37.

(209) وهذا هو قوله عزّ وجلّ: (قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ). التوبة: 24.

(210) المرجع السابق. ص38.

إن الفكر العميق والإيمان الكبير إذا توّجا بعاطفة عميقة وكبيرة فإنهما يفتحان الفكر على الأذهان، والإيمان على القلوب، والحب على السلوك وحسن السيرة والعمل. وهذا ما امتازت به شخصية الشهيد الصدر الأخلاقية، ذلك أن الجمع بين هذه الصفات يوفّر جواً من الكمال لا يتسنى لأي كان، فقد يكون إيمان مع علم، وقد يكون علم مع عاطفة، وقد تكون عاطفةٌ خلواً من فكر ومن إيمان راسخين. ولهذا كان فكر السيد الشهيد (ﷺ) عميقاً مؤثراً راسخ العمق، مستديم التأثير، وكانت عاطفته كذلك، وكان إيمانه ـ الذي هو الأساس لهذا وذاك ـ عميقاً مؤثراً أيضاً.

ويمكن أن ننظر إلى عاطفة السيد الصدر (ﷺ) من خلال نص آخر، يقول فيه: ((وإنما يشاد البناء الاجتماعي المتماسك على فهم معنوي للحياة، وإحساس خلقي به ينبثق عنهما، يملأ الحياة بروح هذا الإحساس وجوهر ذلك الفهم. وهذا هو الإسلام في أظهر عبارة وأروعها، فهو عقيدة معنوية وخلقية ينبثق عنها نظام كامل للإنسانية يرسم لها شوطها الواضح المحدد، ويضع لها هدفاً أعلى من ذلك الشوط ويعرفها على مكاسبها منه))[211]. فعلى ركيزتين أساسيتين يقوم البناء الاجتماعي المتماسك، ويرتفع، ويبلغ كماله:

ركيزة ((فهم معنوي للحياة)) في مقابل الفهم الماديّ الذي تتعاطاه الرأسمالية وكل العناوين العلمانية الأخرى. وركيزة ((إحساس خلقي به)). فالفهم المعنوي المجرد ناقص ما لم تنفذ في مساماته الروح الأخلاقية لتكون مظهره وصورته المتحركة، وشكله الخارجي المتحقق على الأرض بهذه الأريحية التي كان عليها السيد الشهيد (ﷺ) نفسه.

يقول الشيخ (عبد الحليم الزهيري)[212]: ((عندما يتحدث - أي السيد الصدر - مثلا عن رسالة الدين ودوره في بناء المجتمع، وبعد أن يورد عدداً من الآيات القرآنية كشواهد على دعواه في مقابل غياب الجانب الأخلاقي عند الرأسمالية ومؤاخذاته على الشيوعية في كتاب (فلسفتنا) يقول: ((هذه الصور الرائعة التي يقدمها الدين)). ومفردة (رائعة) التي كثيرا ما يستعملها السيد الشهيد عندما يورد دليلاً القرآن أو شاهداً من السنة النبوية دليل عما يجيش في نفسه من مشاعر الحب والإعجاب والإقناع بالدليل الشرعي))[213]. وهي نفس النتيجة التي ننتهي إليها دائماً، والتي قام عليها بناء هذا البحث، أي الترابط الوثيق بين نص السيد الشهيد (ﷺ) وبين تجربته.

(211) محمد باقر الصدر: فلسفتنا ص53.

(212) أحد تلامذة السيد الشهيد.

(213) مجلة الفكر الجديد. العددان (11 12-) السنة الرابعة 1416هـ - 1996 م ص58.

الطعن في عاطفة وأريحية السيد الشهيد (رضي الله عنه): يقول (السيد النوري) في (سبحات روحية): ((ثم جاءت مرحلة كان أصل العداء فيها للإمام الشهيد الغضب والانفعال من أناس يعرفونه ولا يجهلونه، وكانوا قبلها يحبونه ولا يكرهونه، فلما خالفهم إلى ما لا يشتهون أعنقت منهم نحوه عادية السب والتوهين، وجبهته قوارع السوء، ونطقت ألسن السخط بالانتقاص، فاشتجرت عليه رماح الإيذاء، وتعانقت حوله أسنة التبريح))[214].

وأكثر ما يلفت النظر في هذا النص حادّ الوقع والنبرة قوله: ((كان أصل العداء للإمام الشهيد الغضب والانفعال من أناس يعرفونه ولا يجهلونه، وكانوا قبلها يحبونه ولا يكرهونه، فلما خالفهم إلى ما يشتهون اعنقت منهم نحوه عادية السب والتوهين)). ولعل الباحث يقف دهشاً مذهولاً إزاء هذه اللوحة المتنافرة الألوان، فكيف يا ترى ينقلب العارف غير الجاهل، والمحب غير الكاره، إلى ضده ونقيضه ـ بين ليلة موقفٍ وضحاها ـ إلى سبّاب وموهّن وطعّان؟ هل هي المخالفة إلى ما لا يشتهي وحسب؟ هل كانت العلاقة - قبل الاختلاف ـ معرفة حقيقية؟ وهل كان الحب - قبل المخالفة - نابعاً من قلب صادق؟ هذا ما سنتبينه في السطور الآتية:

يقول الشيخ (النعماني): ((لقد أثير الكثير من الشبهات حول السيد الشهيد (رحمه الله) بهدف إسقاطه والقضاء على مرجعيته. لقد قيل إنه عاطفي ولا يصلح للمرجعية))[215].

ويقول في موضع آخر ((ومن الغريب اعتبار ذلك نقطة ضعف فيه، وكانوا يقولون: إن السيد الصدر عاطفي لا يصلح للمرجعية وقيادة الأمة))[216].

وقبل أن نستمع إلى تعليق (النعماني) على هذه الشبهة، لنستمع إلى السيد الشهيد (رضي الله عنه) نفسه لنرى كيف رد عليها: يقول (النعماني): ((لقد سمعته يقول: ماذا يريد هؤلاء مني؟ هل يريدون أن أتعامل مع الناس بجفاء وخشونة؟ هل يريدون أن لا أمنحهم حبي! إذن كيف يمكن للأب أن يربي أبناءه بقلب لا يحبهم؟! أليس هؤلاء هم الذين سيحملون راية الإسلام ويدافعون عن كرامة القرآن ؟! إذا كنا لا نسع الناس بأموالنا، فلماذا لا نسعهم بأخلاقنا وقلوبنا وعواطفنا))[217]؟!

(214) فاضل النوري: سبحات روحية. ص 57.

(215) سنوات المحنة وأيام الحصار ص 165.

(216) سنوات المحنة وأيام الحصار. ص96.

(217) المرجع السابق. ص98.

ثم يسجل الشيخ (النعماني) الذي عاش السيد الشهيد عن قرب، الملاحظات التالية على عاطفته:

1. إن عاطفة السيد الشهيد (ﷺ) وأحاسيسه صادقة الكلمة، فهو لا يعرف التصنع والتمثيل... الخ. إذا تألم لأحد تألّم من أعماقه.. وإذا أحب أحدا أحبه من قلبه.

2. إن هذه العاطفة لله وطلبا لمرضاته، وتقربا إليه عزَّ وجل وليس حالة فطرية جُبَل عليها فقط.

3. من سمات هذه العاطفة أنها عامة لكل الناس، فليست هي لأهله وذريته وأرحامه ولا لطلابه والمقربين منه فحسب، بل لكل أبناء الأمة.

وهذه الملاحظات، على أهميتها، لا تعطينا التصور الكامل عن شخصية السيد الشهيد الأخلاقية خاصة في بعدها العاطفيّ الشفافّ (الأريحية)، فلنا عليها ملاحظات أخرى:

1.هناك فرق واضح بل وشاسع بين (العاطفة) كمقوم أساس من مقومات الشخصية الإسلامية التي تستقي عواطفها من ينبوع عقيدتها حسب تعبير السيد الشهيد (ﷺ)، وبين (الانفعال) بما هو حالة طارئة ومعبرة عن الغضب الانفعالي أو عن الرضا الارتجالي.

يقول الشيخ (الزهيري): يجب أن نفرق بين العاطفة والانفعال. فهناك فارق جوهري بينهما، فالانفعال قد يدفع الإنسان بشدة باتجاه معين دون أن يكون له دور في تنظيم الدوافع عند الإنسان، بينما تقوم العاطفة بدور التحريك، ولكن ليس بالطريقة الانفعالية المرتجلة.

ولذا - والاستنتاج للزهيري - فإن الشخصية القيادية يجب أن تتسم بالعاطفة لتكون قوية من أجل أن تجمع كل قدراتها لهدف معين، ثم تكون مثالاً أمام الآخرين للشخصية النموذجية التي يحتذى ويقتدى بها))[218]. وهذا ما نجده واضحاً ليس في مقطع زمني معين من سيرة أو مدرسة السيد الشهيد الأخلاقية، بل هو خط عام لازمه في جميع مراحله.

2. إن العاطفة الإسلامية فيض إيماني متفجر، فهي لمسات أو رشحات، وربما فيوضات ربانية من (الرحمة) و (اللطف) و (المغفرة)، وهي بالتالي تخلّقٌ بأخلاق الله الرحمن الرحيم، اللطيف العطوف، العفوّ الغفور، فالعاطفة عند السيد الشهيد (ﷺ) ليست مجرد تخلٍّ عن الأخلاق السيئة وتحلٍّ بالأخلاق الفاضلة، إنما هي ضرورة حياتية ومرجعية وقيادية حركية لا بدَّ من حيازتها وتوفير أكبر قدر ممكن منها

(218) مجلة الفكر الجديد: العددان (11 - 12) ص51 - 52.

لمن يكون في موقع الشهادة والقيادة والريادة والسيادة.

3. إننا حينما ندرس أريحية السيد الشهيد (﵁) بكلّ صفائها وشفافيتها، نلاحظ أن الحب النقي الذي كان يعيشه هو حب خال من العقد، وتعبير عن السجيّة - عن نفس مملوءة بالحب لا تعيش أي لون من الوان الحساسية، أو حسابات الذات أو الفوقية، إنه لا يتعامل من منظور رد الإساءة بمثلها، بل بالإغضاء عنها والإحسان إلى من أساء. كما أنه لا يتعامل برد الحسنة بمثلها بل بأحسن منها، وهي منه دائما تطوع ومبادرة. وهذه الروح الإيمانية النقية المتألقة لا تتأتى إلا من دفق قلب طاهر منزوع الغلّ، أو عامل على قلع الشرّ من داخله باستمرار، وتجربة إعداد روحي مضنية لا تتأتى إلا إلى النفوس الكبيرة. إن روح الاريحية عند شهيدنا هي براءة الروح، وطهارة النفس، ونقاء القلب، ومران منذ نعومة الأظفار على الصفاء الذي لا تخالطه شائبة، هي ليست نبت المرجعية، هي سابقة عليها، وهي لاحقة لها.

4. تفسّر (الأريحية) بصفتها عاطفة نبيلة صقيلة شفّافة أحيانا تفسيراً خاطئاً بأنّها ضعف في الشخصية، أو أنها الجانب الهش منها، وهذا خلطٌ بين مشاعر الضعف والهوان والانسحاق والتذلل، وبين عاطفة الحب في الله ولله ولرسوله ولعباده المؤمنين أي عاطفة اللطف والطيبة والرفق وخفض الجناح للمؤمنين فهل تعاب رقةُ وعطفُ ولطفُ وسماحةُ رسول الله (ﷺ) مع عيال الله وأحبائه وأنصاره، و هو الشديد مع أعداء الله المتنمّر في ذاته؟! وهل تُؤاخذ عواطفُ الأئمة من أهل البيت (عليهم السلام) على سجاياها الندية السخيّة وكلها صفحٌ واحسان مع مواليهم وخصومهم ومن يبتغون هدايتهم؟ في حين كانوا لا يلين لهم حانب مع عدو الله ورسوله.

إنّ عاطفة الضعف هي عاطفةأحاديّة ـ اذ جاز التعبير ـ أي ذات وجه واحد، كأن تعيش الهوان أو الانسحاق مع المؤمنين ومع غير المؤمنين، أي قد تواد من حاد الله ورسوله، وهذا ليس من الشخصية الإسلامية في شيء، ولا يصح بحال أن نصف عاطفه السيد الشهيد (﵁) ولا أي مؤمن له وثاقة في دينه بذلك.

5. إن القول: إن السيد الشهيد (﵁) عاطفي ولا يصلح للمرجعية ولقيادة الأمة مردود لأكثر من جهة، فهل أن من شروط المرجعية الصالحة والرشيدة، بل هل من شروطها العامة أن يكون المرجع فضّاً قاسياً عنيفاً متجهماً غليظاً شديداً مبسوطاً قمطريرا؟! أم أنه شرط ابتدعوه ليشترطوه على السيد الشهيد (﵁) دون غيره من المراجع؟!

بل حتى لو تعدّى الأمر إلى قيادة الأمة، فمن ـ يا ترى ـ يقول: إن القائد الإسلامي كيما يكون قائداً

ناجحاً يصلح للقيادة فإن عليه أن يضرب بالعصا وبالسيف وبالرصاص؟ وأن يكون نسخة من القيادات الأرضية والوضعية والمادية التي لا تراعي في الناس إلاً ولا ذمة؟ والله تعالى نفسه يخاطب رسوله القائد الأمين والرحمة المهداة إلى العالمين (ﷺ) بقوله: (فَبِما رَحمَةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لَهُم وَلَو كُنتَ فَظّاً غَليظَ القَلبِ لَانفَضّوا مِن حَولِكَ)[219]. وهو الذي يصف رسوله وأتباع رسوله (ﷺ) بالقول: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)[220]. وهذا يعني أن العاطفة الإسلامية ـ في ما هو سلبي وما هو إيجابي ـ واحدة لا تتجزأ، فلا تعارض ولا تناقض بين الشدة هناك والرحمة هنا، إنهما وجهان لعاطفة واحدة، ولكل مقام مقالٌ وموقفٌ وعاطفةٌ خاصة به.

لقد عابوا على السيد الشهيد (رضي الله عنه) لينه أو أريحيته وشفافيته وعدّوها منقصة ومثلبة، وهي لعمري ـ في مفاهيم القرآن الكريم وسيرة النبي (ﷺ) والأئمة من آل بيته (عليهم السلام) ـ فضيلة ومكرمة ومنقبة.

ثم أن أريحية السيد الشهيد (رضي الله عنه) قد آتت أكلها حتى مع أعدائه وخصومه ومناوئيه، ممن كان يحتمل أن الإحسان إليهم هو سبيل إلى صلاحهم وإصلاحهم، وهكذا كان. وقد سبقت الإشارة إلى أكثر من مثل في هذا الصدد. أما أعداؤه ممن طغى وتكبّر وتجبّر فإنه لم يبدِ لهم سوى أشد ألوان الشدة والرفض والتبريّ والمجابهة التي لا تدّخر أنملة عطف أو تهاون أو تساهل. وهذا هو قول الشهيد الصدر (رضي الله عنه) الذي مر قبل قليل: ((ماذا يريد هؤلاء مني؟.. هل يريدون أن أتعامل مع الناس بجفاء وخشونة؟ هل يريدون أن لا أمنحهم حبي. إذ كيف يمكن للأب أن يربي أبناءه بقلب لا يحبهم))؟!

6. إننا لسنا في معرض اتهام أحد، لكنّنا ومن منطلق علميّ بحثيّ بحت، نقول على نحو الاحتمال لا الجزم، إنّ بعض الذين كانوا يُشكلون على لين جانب وأريحية السيد الشهيد (رضي الله عنه) المنفتحة على الحبّ كلّه، المنغلقة عن الحقد كلّه، يمكن أن نرجع أحد أسباب إشكالهم إلى أنهم يفتقدون لمثل هذه العاطفة السامية الربّانية، النبويّة، الإماميّة، الإنسانيّة. وحتى لا تكون ميزة جاذبة في نظر الناس حاولوا أن يطعنوا فيها، ويقلّلوا من قيمتها وأن يصوّروها جنبه ضعف وهشاشة في شخصية السيد الشهيد، وهي ـ لعمري ـ من أقوى نقاط القوّة فيها.

إن الطاعنين في صلاحية السيد الشهيد (رضي الله عنه) للمرجعية ولقيادة الأمة بسبب عاطفته الجيّاشة

(219) آل عمران: 159.

(220) الفتح: 29.

ربّما يقدّرون ـ بشعور من الاحباط ـ انهم لن يصلوا إلى هذا المستوى من رحابة الأريحية والشفّافية العالية التي ربّما تفضح عواطفهم الجامدة البليدة أو المتبلّدة التي تضرب بينهم وبين الأمّة حجباً سميكة لا حجاباً واحداً، ولكي لا يعقد الناس مقارنة بين عواطفهم التي من هذا النوع وبين (كاريزما) السيد الشهيد التي هي من طراز فذّ فريد، عمدوا إلى الطعن بها واعتبارها منقصة لا فضيلة.

7. إن ما اعتبر عيباً أو ضعفاً يقدح في شخصية المرجع أو القائد، تطلّ الدراسات العلمية التربوية والأخلاقية والنفسية والاجتماعية الحديثة لتعتبره عكس ذلك تماماً. فبين أيدينا مقالة تحت عنوان (الذكاء العاطفي)[221] جاء في جانب منها ((أخيراً.. ومنذ سنوات قليلة فقط اكتشفوا أن هناك نوعاً آخر من الذكاء البشري غير الذكاء التقليدي الذي تعارفوا عليه منذ مئات السنين. هذا النوع الآخر من الذكاء أسموه الذكاء العاطفي Emotional intelligence)).

ويعرّف الذكاء العاطفي بأنه ((القدرة على أن ترصد عواطفك وتفهمها.. والتأمل الذاتي، والسياحة داخل مشاعرك وأحاسيسك. إنه القدرة على الحب والفهم والعطاء. إنه ضبط النفس والتحكم في الغضب والاندفاع. إنه القاعدة الأخلاقية التي تتكون من الصدق والأمانة والعدل والإنصاف والتعاطف والرحمة. إنه القدرة على التفهم لوجدان الآخرين ومشاركتهم وتبنّي وجهة نظرهم حتى وإن اختلفوا معنا، وهو التفاعل والإنصات والتقدير وهو أيضاً كياسة الاستجابة للغير.. وهو أيضاً قدرة التأثير في الآخرين، وامتلاك الحجة القوية في الإقناع والقدرة على القيادة الملتزمة بهدف، والقدوة والمثل الأعلى في التغيير، ثم هو في النهاية القدرة على بناء جسور الوفاق ودعم الفريق))[222].

ونطرح السؤال التالي على من يؤاخذ السيد الشهيد (رضي الله عنه) على أريحيته الشفافة: هل فيما تطرحه الدراسات الحديثة مما تصطلح عليه بـ (الذكاء العاطفي) ومما وردت مواصفاته في الأسطر آنفة الذكر، يعدمونها أو بعضها فيه؟ وإذا كان الجواب بالنفي، ولا يكون ـ مع الانصاف ـ بغيره، فسيدنا الشهيد (رضي الله عنه) يكون قد حاز على ذكائين متلازمين متكاملين: (الذكاء العلمي) و(الذكاء العاطفي). ونعتقد أن لا تنافي أو تضادّ بينهما، بل نرى أن الشخصية حينما تنطوي على كلا الذكائين فإنها تكون في موقع التأثير الكبير، وهذا من أهم ما تتطلبه المرجعية وتقتضيه القيادة.

(221) لاستاذ علم النفس المصري الدكتور عادل صادق، نشرت في مجلة (الاهرام العربي) السنة الثالثة. العدد 145. 1/1/2000م، ص-56 57. واليوم اصبحت الدراسات في حقل (الذكاء العاطفي) مجالاً معرفياً ثرياً، أي بعد ما يقرب من ربع قرن على صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب.

(222) مجلة الفكر الجديد: العددان (11 - 12). ص51 - 52.

يقول المعترفون بالذكاء العاطفي: ((إنه أشذى الزهور الحية التي تقف على سيقانها، وتبعث إلى الهواء مكنونها، فيمتد كالسحر إلى الآخرين ليهزّ وجدانهم، فيحدث التواصل الإنساني البديع، وتعزف سمفونية الحب، والتي لا يمكن أن تنبعث نغماتها إلا من خلال اهتزاز قلب وقلب)). وهل الشفافية أو الرحابة النفسية أو الأريحية في التعريف الأشمل غير ذلك؟! أم يراها غيرنا ممن في قلبه وبصره وسليقته مرض، عكس ذلك؟!

ثانياً: التجسيديّة

في ضوء ما عرفنا عن شخصية السيد الشهيد الصدر (رضي الله عنه) فإننا كما نعدم الفاصلة بين القول والفعل، فلا تناقض ولا ازدواجية في أي موقف من مواقفه، فإننا نعدم كذلك الفاصلة بين النصوص التربوية والأخلاقية الصدرية، وبين التجربة السلوكية الصدرية، بل نعدمها بين درجة المثل الأعلى وبين درجة الاقتداء والتأسي، إلا ما ميّز الله به المثل الأعلى واختصّه به من مزايا لا تنال إلا بفضله واجتبائه، وهذا هو بالضبط ما نعنيه بمصطلح التجسيدية، فهي ترجمة كاملة غير منقوصة للأفكار والمبادئ والمعتقدات والعواطف التي تنطوي عليها الشخصية الأسوة.

ولذا فإن (التجسيدية) في مدرسة الشهيد الصدر الأخلاقية هي التي أعطت لشخصيته هذا التأثير الكبير والفاعل في الأمة، وستبقى تعطي ما بقي الدهر، فكما خلّد الزمان مواقف الأنبياء والرسل والأئمة(لأنهم كانوا النسخ البشرية الناطقة مقابل الرسائل الصامتة، كذلك ستخلّد مواقف المراجع (الأحبار) الذين مثّلوا خط الشهادة خير تمثيل.

((لقد وحّد الصدر توحيداً فريداً بين عقله وسلوكه، وبين قلبه وخطاه، وقرن العلم بالعمل، والمعرفة بالسعي فما باين بين مبادئة ومسيره، ولا خالف بين مفاهيمه وأخلاقه، ولا نافر بين القول والفعل، ولا باعد بين وصايا اللسان وأدب الأركان، ولا اختصّ لنفسه بالمندوحة إذا اختار لسواه العزيمة[223] ولا شدّد على من عداه وحبى نفسه بالسعة، وما أخذ على غيره عهد التقيّد ليذر نفسه سارحة بلا وثاق))[224].

خذ ـ لا على سبيل المثال والتخصيص والحصر ـ أية مقولة للسيد الشهيد (رضي الله عنه) وقارنها مع مواقفه وأفعاله، فإنك لن تجد إلا أن هذه المقولة هي صدى لذلك الفعل، وأن هذا الفعل هو انعكاس أو مظهر لتلك المقالة. فالسيد الشهيد (رضي الله عنه) لم يأمر بشيء إلا وسبق أن ائتمر به، ولا نهى عن شيء

(223) المراد انه لم يؤثر نفسه بالرخص ويلقي على كاهل غيره بالفرائض والواجبات.

(224) فاضل النوري: سبحات روحية. ص140.

إلا وسبق إلى الانتهاء عنه، وله في هذا أسوة في جده المصطفى (ﷺ) ومولاه أمير المؤمنين (عليه السلام)، لذلك لم يقف أمام الآية المباركة (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ)[225]، إلا موقفَ القانع الراضي السعيد أنه ما أمر ببرّ إلا وكان العامل الأول به. وازاء الآية المباركة (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ)[226]، إلّا وهو ممتلئ ثقة أنه ما بادر إلى قول إلّا وكان قد استحضر المبادرة إلى العمل به، وربما كان قد فعل قبل أن يقول.

فحينما نصح الطبيب مدير مكتبه الشيخ النعماني بشراء مكيفة لوالدة السيد الشهيد (رضي الله عنها) المريضة، غضب رضوان الله عليه غضباً شديداً، وقال مخاطباً النعماني: ((هل مات إحساسك؟ هل تريد أن أنعم بالهواء البارد وفي الناس من لا يملك حتى المروحة البسيطة؟ ألم تعلم بأني أريد لهذه المرجعية حياة البساطة والاكتفاء بأبسط مظاهر العيش بل الضروري منه))؟!

وحينما يبرّر النعماني المسألة بالقول: (إن الناس لا يعلمون بذلك) يردّ عليه: ((الناس يعلمون أنك معي وتصرّفك يحسب عليّ)).

وبعد أن يخبره أن ذلك وصية الطبيب ونصيحته، يقول له: ((أنا يا ولدي أريد أن أغيّر هذا الواقع بقولي وفعلي، وعليك أن لا تنسى هذه الحقيقة في كل تصرفاتك وأعمالك في المستقبل))[227].

فالمسألة ـ كما هو واضح ـ ليست مسألة مكيفة هواء، ولا عدم تقدير لظروف والدته المريضة وهو الرؤوف الرؤوم البار بها[228]، ولا هو بالذي لم ينظر إليها باللحاظ الشرعي وهو الفقيه العارف بالأحكام العامل بها، إنما هو منهجٌ أخلاقي رصين ومتين ورزين دأب عليه السيد الشهيد (رضي الله عنه) ليس في هذا الموقف وحده بل في جميع المواقف المماثلة، خاصة وأن أي تصرف، حتى بالنسبة لمن هم قريبون منه، يحسب عليه بنحو أو بآخر، ودونكم حياته فادرسوها، والأمثلة العملية التي سقناها في الفصل الأول من الكتاب حَريّة بتأكيد حقيقة، السيد (رضي الله عنه) أراد أن يضرب مثلاً أعلى بنفسه لكلّ المرجعيات المتزامنة أو اللاحقة أنه كان لا يرى نفسه أستاذ الحوزة في مقام التعاطي الإنساني، بل يرى نفسه ويراه تلامذته على أنه واحد منهم.. لقد كان جسده (رضي الله عنه) في تعب شديد، والناس منه في راحة شديدة، وقد

(225) البقرة: 44.

(226) الصف: 2.

(227) سنوات المحنة وأيام الحصار. ص98.

(228) يقول السيد فاضل النوري في (سبحات روحية): ((كانت أمّه تنعم منه بفيض برّ وأصب النبع، وتهنأ منه بدفء حبّ واجلال لا يعتوره فتور، كان يغدق عليها ظلّ الاحترام البالغ فيقرّ عينها، ويكتّف حولها ألوان الخضوع والنجوع وخفض الجناح فيثلج صدرها، ويملأ قلبها بمعاني الحبّ له، والإعجاب بخلاله السامية)). ص67.

يتبدّد التعب والعناء، ويذهب النصبّ والمعاناة، وتبقى راحة الضمير، وراحة النفس، وراحة السيرة التي هي كالمسلك ما كررته يتضوّع.

مرّة أخرى نعيدُ إلى الأذهان أن صاحب السيرة العطرة السيد الشهيد محمد باقر الصدر (رضي الله عنه) ليس بالإمام المعصوم، ولا نريد من خلال ترجمتنا له أن نرفعه إلى درجة (المعصومية) وإن كان قد حاز وبجدارة درجة (العصامية)، لكنه ومن خلال استقراء لسيرته، ومقولاته، وشهادات من شهد له من عدول وتقاة، كان يعمل بعد أن شهد له الجميع بالفقاهة والاجتهاد والعلم، على اجتهاد أكبر من نوع آخر، وكان (يجاهد) و(يجتهد) من أجل أن يكون أنموذجَ العالم الربّاني، وقدوةَ العالم العامل، ومفخرة الحوزة منذ أن كان هناك شيء اسمه الحوزة.

ثالثاً: الشمولية

من بين أهم خصائص المدرسة الصدرية الأخلاقية أنها جامعة شاملة للفضائل والخصال الحميدة كلها، فلا تجد خُلقاً محدداً يمتاز به الصدر (رضي الله عنه) دون الأخلاق الأخرى، كما أنك لا تجد تفاوتاً ولا تفاضلاً بين خلق وخلق، فأخلاقه كلها على مستوى راق، مما يوضّح أن منظومة الأخلاق عند السيد الشهيد (رضي الله عنه) وكما هي في الإسلام كلٌ متكامل يكمّل بعضُها بعضاً، ويعكس بعضها أثره الإيجابي على الخلق الآخر بما يعزّزه ويقوّيه.

فقناعته وزهده ونكران ذاته، وتواضعه، وعطفه ورأفته ونبله وتسامحه، واحترامه للآخر، وتساميه وترفّعه وشجاعته، وصدقه وما إلى هناك من سمات خلقية رفيعة، لم تكن تؤخذ عند السيد الشهيد (رضي الله عنه) بمعزل عن بعضها آحاداً. فدماثة خلقه يمكن تصويرها كما اللوحة الجميلة التي تسرّ الناظر على نحو الإجمال، حتى إذا أراد أن يتعرف على مواطن الجمال فيها أقبل عليها يدرسها جانباً جانباً ومفردة مفردة ليخلص إلى هذا التناسق الموسق الجميل الذي يضفي على الحياة الصالحة الطيبة جمالا.

إن هذه الشمولية التي وصفها الله تعالى ـ دون الدخول في التفاصيل والمفردات والمصاديق ـ بقوله: (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)[229]، هي عند السيد الشهيد (رضي الله عنه) عامل أساس من عوامل التغيير، الذي هو في حقيقته تغيير مزدوج: عملية تغيير داخلي (جهاد أكبر) ((إنّما هي نفسي أروضها)) بحسب تعبير الإمام علي (عليه السلام) تطلّ بدورها على عملية تغيير خارجي (جهاد أصغر)، (إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ

(229) القلم: 4.

حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)[230]، فإذا تمازجا جاء التسديد والتوفيق على شكل أكاليل هدايا ومباركات وفيوضات (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)[231]. ويصف لنا إحدى النصوص الصدرية ذلك على النحو الآتي: ((إن الإنسان إذا لم ينفذ بعملية التغيير إلى قلبه وأعماق روحه، ولم يبنِ نفسه بناء صالحاً، لا يمكن أبداً أن يطرح الكلمات الصالحة، لأن الكلمات الصالحة إنما يمكن أن تتحول إلى بناء صالح في المجتمع إذا نبعت عن قلب يعمر بتلك القيم التي تدل عليها الكلمات، وإلا تبقى الكلماتُ مجردَ ألفاظٍ جوفاء دون أن يكون لها مضمون ومحتوى. فمسألة القلب هي التي تعطي للكلمات معناها ولعملية البناء الخارجي أهدافها ومسارها))[232].

فإذا رجعنا إلى نصٍ مفسِّرٍ لهذا النص، فإننا نفهم من (مسألة القلب) التي عناها السيد الشهيد (ﷺ) المحتوى الداخلي النفسي والروحي للإنسان، والذي هو نتاج كل المثل والقيم والأخلاق الإسلامية التي تمثل البنى التحتية التي يقوم عليها البناء العلوي الاجتماعي. يقول (ﷺ): ((لا يتغير هذا البناء العلوي إلا وفقاً لقاعدة التغيير، فخارج الإنسان يصنعه داخل الإنسان))[233].

ولذا فإن شمولية الأخلاق في المدرسة الصدرية لازمة كبيرة من لوازم التغيير، ولأجل أن يكون هذا شاملاً، لا بدَّ أن تكون الأخلاقية القائدة له أو المؤديّة له شاملة، وهذا ما توافر عليه سيدنا الشهيد (ﷺ) تقديراً منه أنه السبيل إلى مرجعية صالحة رشيدة.

وهنا قد يثار سؤال وجيه: هل هذا التوصيف لشمولية الاخلاق عند السيد الصدر يرتقي به إلى درجة العصمة؟ وهل كان السيد الصدر نقياً خالي الوفاض من أي زلّة أو عيب أو خطأ؟!

نحن لا نزعم ذلك ولا ندّعي العصمة الكاملة إلّا لمن حازوا على كمالاتها، وان كانت (أي العصمة) درجات قد نال الأولياء بعضها في ما أسميناه بـ(الكمال النسبي). ولو تأملنا في بحثه حول (الشخصية الإسلامية) وفي تمييزه بين (الشخصيات الملتزمة) والأخرى (غير الملتزمة) لوجدناه يقارن الأولى بالثانية بانها وحدة متكاملة يسود التناسق بين أفكارها وعواطفها، وينظّم الانسجام سلوكها وأفعالها، فلا مجال للارتباك في الافكار، أو الصراع بين المشاعر والتناقض في السلوك[234].

(230) الرعد: 11.

(231) العنكبوت: 69.

(232) محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية. ص107.

(233)محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية ص58.

(234) من فكر الدعوة الإسلامية. ص9.

رابعاً: المعياريّة

ونعني بها تقديم المثل والقدوة والنموذج في كل عمل كان يقوم به السيد الشهيد (ﷺ). فمن معالم عظمة مدرسته الأخلاقية ـ التي هي مدرسة الإسلام ـ أنها تقتدي وتتأسى بالمثل الأعلى بحيث تختزنه وتوظّفه في اللحظة المناسبة، وأنها تجعل من نفسها قدوةً وأسوة لمن حولها وللقادمين على الأثر. يقول السيد الشهيد (ﷺ): ((إن الارتباط بالقيادة جزء من التربية الشاملة الكاملة للإنسان، فوجود قيادة إسلامية للحياة الاجتماعية كان جزءاً ضرورياً في الحياة الإسلامية الاجتماعية))[235].

ويقول مشيداً بالنماذج التي منحت المسيرة صبغتها الإسلامية: ((وفي تاريخ التجربة الإسلامية مثل فريدة نجدها حتى في الفترات التي شحبت فيها التجربة وعصفت بها أهواء كثير من الظالمين))[236].

لهذا كان السيد الشهيد (ﷺ) يحرص دائماً وأبداً على أن تكون مرجعيته رائدة تعيد للتجربة الشاحبة نضارتها، وللأمة الشبح معالمها المميّزة، وللخط المنحرف استقامته، وأن تكون قيادته نموذجية للأمة، عاملاً من عوامل تربيتها الشاملة الكاملة. وهذا ما نلاحظه في تأكيده الدائم على (المرجعية الصالحة أو الرشيدة) وإرادة تغيير الواقع من خلال حركتها، وتفاعلها مع الأشخاص والأحداث والمواقف. وما حقّقه! في هذا المضمار من خطوات عملية باهرة لا يتأطر بمواقف أخلاقية محدودة بالوسط الحوزوي أو المرجعي، بل تمتد إلى أقصى مدياتها في المجابهة السياسية المحتدمة والضارية مع السلطة التي لا تراعي لمفكر أو مرجع أو عالم أية حرمة، فهو حينما يصدر فتواه بتحريم الانتماء إلى حزب السلطة الجائرة المجرمة في العراق لا يحسب في ردّ الفعل المترتب عليها حساباً شخصياً يهدد مرجعيته أو شخصه، وإنما أراد أن يضرب مثلاً في تحدي المرجع للواقع الفاسد والمتخاذل والمتراخي ليصيب في السلطة التي اتخذت مالَ الله دولاً وعباده خولاً، مقتلة عظيمة.. ولقد قاتلها بثباته على المبدأ، والثبات في زمن الزعزعة والاهتزاز بحد ذاته انتصار!!

كما أراد أن يضرب مثلاً في تحدّي المرجع للواقع الاجتماعي المنحرف في أفكاره وقيمه وعواطفه وعلاقاته، فهو ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ عندما يتواضع للمرأة المسلمة ويجلّها ويقدّرها حقّ تقديرها، (ليس موقفه من اخته الشهيدة بنت الهدى الذي يُكّن لها غاية الاحترام، ولا من أمّه التي يبرّها أكمل البرّ، ولا من زوجته أم جعفر التي ما اغضبها يوما، ولا من بناته العزيزات بعزة كتبه لديه، بل

(235) الموقف: العدد 55. مقال (مفاهيم تربوية من وحي فكر الإمام الشهيد الصدر) لـ(محمد الحسيني).
(236) الإسلام يقود الحياة. 189.

لكلّ النساء المؤمنات الصابرات العاملات المضحيات)، لا يعطي المثال المحدودَ بشخصه، بل يريده معياراً للتعامل مع المرأة المسلمة في كلّ مكان وزمان لاسيما العاملة التي قد تجد ـ حتى في أوساط المتدينين ـ ظلماً هنا، وتجاهلاً هناك، واجحافاً بحقّها، وتقليلاً من شأنها أو بخساً لدورها هنا وهناك.

يقول أحد تلامذته: ((وقد ينصرف عن بالي كلّ شيء من خلق التواضع عند الإمام، لكنّه لن ينصرف ذلك اللون الذي لم أسمع به من قبل أن أجده عند إمامنا الشهيد، هو تواضعه الكبير للمرأة المؤمنة التي كان يحبّها ويحترمها ويوصي بها، ويجدها في نفسه في الذروة العالية، وقد يشاركه في هذا سواه، أمّا مالم أجد أنا من يشاركه فيه فهو قيامه للمرأة إذا دخلت عليه وقيامه لها إذا انصرفت عنه، تماماً كما كان يفعل مع إخوانها الرجال المؤمنين))[237]. والأمثلة التي جاء ذكرها في ثنايا البحث تدللّ على محاولة السيد الشهيد (رضي الله عنه) إعادة الاعتبار للكثير من المعايير والقيم المهدورة أو المتساهل بها أو الساقطة من التداول!

فهذه الأريحية القصوى، وهذه الترابية المتناهية، وهذه الشجاعة الفائقة، وهذه الأريحية البالغة، وهذه الهادفية الشاملة، وهذا الزهد في كل شيء، وهذا الاندكاك بخط الشهادة حد التماهي، وهذا البذل أقصى البذل، كلها تركت للأمة قيادات وقواعد معايير في التعامل الأخلاقي والتربوي، وما أحوجنا في ظل انهيار المعايير أو ازدواجها أو شحوبها، أن نلزم معالم المحجّة البيضاء التي مثّلها الأنبياء والرسل (عليهم السلام) والأئمة (عليهم السلام) والأحبار، وهم ـ كما مر ـ معنا المراجع العظماء، وفي الطليعة منهم صدرنا الشهيد (رضي الله عنه).

خامساً: الغيريّة

يلاحظ الدارس لحياة السيد الشهيد (رضي الله عنه) أنه أوقف حياته الكريمة في خدمة أبناء الإسلام للحد الذي أنكر ذاته في سبيل الله: ((وسبيل الله هو التعبير التجريدي عن السبيل لخدمة الإنسان، لأن كلَّ عمل من أجل الله فإنما هو من أجل عباد الله، لأن اللهَ هو الغني عن عباده، ولما كان الإله المطلق فوق أي حد وتخصيص لا قرابة له لفئة ولا تحيّز له إلى جهة، كان سبيله دائماً يعادل من الوجهة العملية سبيل الإنسانية جمعاء. فالعمل في سبيل الله ومن أجل الله هو العمل من أجل الناس ولخير الناس جميعاً، وتدريب نفسي وروحي مستمر على ذلك))[238].

فمن أجل الناس ولخير الناس جميعاً كان عمل سيدنا الشهيد (رضي الله عنه) كله. فهو إذ يحدّثنا عن الحاجات الثابتة في حياة الإنسان يشير إلى بعض الخطوط الثابتة لها، إذ علاوة على ((الحاجة إلى الارتباط

(237) فاضل النوري: سبحات روحية. ص52 - 53.

(238) محمد باقر الصدر: الفتاوى الواضحة. ص716.

بالمطلق)) و((الحاجة إلى الشعور الداخلي بالمسؤولية لضمان التنفيذ)) يرى أن هناك حاجة ثالثة ثابتة وهي ((الحاجة إلى الموضوعية في القصد وتجاوز الذات))[239]. وهو ما نريده من التعبير بـ (الغيرية) التي يصفها لنا (ﷺ) بقوله: ((الإنسان بحاجة إلى التربية على الموضوعية في القصد وتجاوز الذات في الدوافع، أي على أن يعمل من أجل غيره، من أجل الجماعة، وبتعبير آخر: من أجل هدف أكبر من وجوده ومصالحه المادية الخاصة. وهذه تربية ضرورية لإنسان عصر الذرّة والكهرباء، كما هي ضرورية للإنسان الذي كان يحارب بالسيف ويسافر على البعير على السواء، لأنهما معاً يواجهان هموم البناء والأهداف الكبيرة، والمواقف التي تتطلب تناسي الذات والعمل من أجل الآخرين، وبذر البذور التي قد لا يشهد الباذر ثمارها. فلا بدَّ إذن من تربية كل فرد على أن يؤدّي قسطاً من جهده وعمله لا من أجل ذاته ومصالحها المادية، ليكون قادراً على العطاء وعلى الإيثار وعلى القصد الموضوعي النزيه))[240].

إذن فحاجة الإنسان المؤمن إلى نكران ذاته، والعمل من أجل غيره حاجة ثابتة تفرضها طبيعة العبادة في الإسلام، والتي تتحرك عادة في اتجاهين: (عمودي) لتوطيد العلاقة مع الله، و(أفقي) في بناء وتوثيق العلاقة مع الناس. والسيد الشهيد (ﷺ) إذ لا يرى في تناسي الذات ونكرانها سحقاً لهذه الذات، وإنما احترامها وإسعادها ووضعها في موضع البذل والعطاء، مما يعطيها شعوراً فائقاً بقيمتها وبقدرتها على التضحية، يرى ـ فى قبال ذلك ـ أن ارتفاع قيمة العمل هو بتجاوز الذات لدوافعها، فيقول:

((وإنما يعتبر العمل فاضلاً ونبيلاً إذا تجاوزت دوافعه الذات، وكان في سبيل الله وفي سبيل عباد الله. وبقدر ما يتجاوز الذات ويدخل سبيل الله وعباده في تكوينه يسمو العمل وترتفع قيمته))[241].

هذه الغيرية أو القصديّة عبّر عنها الشهيد مطهري! بالعمومية في مقابل الذاتية، حيث يقول:

((فمعيار الأخلاقية هو العمومية، ومعيار غير الأخلاقية هو الخصوصية، فالعمومية تضفي على الفعل قيمة، مع أنه لا يختلف عن الفعل الذاتي)).[242] ويرى أن جميع الأخلاق تُردّ إلى أصل واحد ثابت دائم هو (خدمة الآخرين).

من هذا المنطلق قدّم السيد الشهيد (ﷺ) من نفسه مثلاً رائداً في الإيثار والبذل والتضحية ونكران الذات. وللتدليل على ذلك بالإمكان الوقوف على بعض الشواهد المعبّرة عن هذه الخصيصة في

(239) المرجع السابق. ص705.

(240)محمد باقر الصدر: الفتاوى الواضح. ص715.

(241) المرجع السابق. ص717.

(242) مرتضى مطهري: ثبات الأخلاق. ص62 وما بعدها.

أخلاقه!.

ففي شهادة للشيخ النعماني: ((كان السيد الشهيد (ﷺ) ينهج أسلوب الشورى في أموره الهامة، فكان يجمع أهل الرأي والخبرة ممن يثق بهم، ثم يطرح عليهم ما هو المهم من الأمور، وكان لا يخالف الأكثرية حتى لو كان رأيهم يغاير قناعاته الخاصة))[243]. ولقد سمع صاحب هذه السطور من الأستاذ الراحل الحاج (محمد صالح الأديب) (رحمه الله) أن السيد الشهيد (ﷺ) عندما كان يدير حلقة القيادة يترك لاخوانه ابداء آرائهم على المحاور المطروحة، ثم يكون آخر من يُدلي برأيه، فقد يوافق رأي بعضنا، وقد يخالفه، وقد يتفق مع ما ذهبنا إليه، وكان كلّ رأي لديه محترما. والمهم هنا ليس انتهاج نهج الشورى في العمل، وإنما عدم مخالفة الأكثرية حتى ولو كان رأيه مخالفاً لرأيهم، وهو خُلقٌ علاوة على أنه يربّي على لزوم الجماعة، فإنه يدلّل على روح كبيرة تتناسى ذاتها خدمة للعمل الجماعي، ولقد رأيناه يستشير العلماء والمراجع في أكثر من قضية وموقف.

لكننا نلاحظ غيرية السيد الشهيد (ﷺ) بشكل أجلى وأصرح في مواقف التضحية بالقليل وبالكثير. يقول النعماني: ((إن من عاش مع السيد الشهيد يستطيع أن يدرك بسهولة أن حالة التضحية حالة متجذرة في أعماق نفسه، ولم أعهده إلا مضحياً، مؤثِراً غيره على نفسه، وهي حالته وسلوكه قبل المرجعية وبعدها. وكان سخياً إلى حدٍ كبير في ميادين التضحية، فتارةً يضحّي بمرجعيته، وأخرى بكتابه، وثالثة بماله وجاهه، وأخيراً بروحه ودمه))[244].

ولقد سبقت الإشارة ـ في ثنايا البحث ـ على كل هذه التضحيات فلا حاجة للتكرار ـ وإنما تجدر الإشارة أيضاً إلى رفض السيد الشهيد (ﷺ) للهدايا التي كانت تقدّم تكريماً له ـ كما هي العادة الجارية في أوساط العلماء ـ ومحاولته خلق دوافع أخرى عند المتبرعين ((دوافع إسلامية خالصة بعيدة عن أجواء المودة العاطفية والصداقة المجردة والهوى القلق، فيحثّهم على توجيه هذه الأموال إلى ما ينفع الأمة بشكل عام كبناء المدارس والمساجد والمؤسسات الاجتماعية وتوظيفها في خدمة الجميع. ولذلك كله عمد السيد الشهيد إلى عدم قبول الدار والسيارة وغيرها مما يقدّم إليه في موارد ووجوه أخرى))[245].

وفي أوجز عبارة: فإن غيرية السيد الشهيد (ﷺ) تتضح من خلال التضحية بالعنوان وبالمكسب المادي والمعنوي، كما تتضح أيضاً من خلال احترامه وإكباره للآخر موافقاً كان أم مخالفاً، مسلماً أم غير مسلم، الأمر الذي يعني أنه لا ينظر إلى ذاته كمحور استقطاب على الرغم من ما كان يتمتع به من مزايا

(243) سنوات المحنة وأيام الحصار. ص124.

(244) سنوات المحنة وأيام الحصار. ص129.

(245) محمد الحسيني: الإمام الشهيد محمد باقر الصدر. ص73.

فريدة لا يتمتع بها الكثيرون، وإنما ينظر إلى الغير، حتى الذين هم دونه علماً وخلقاً، نظرة فيها الكثير من الإنصاف وعدم البخس، بل والتقدير وحسن الظن.. وهذا ما عبّر عنه أروع تعبير في موضعين: حينما وصف ساحات الخدمة الإنسانية التي يزجيها الإنسان المؤمن للآخرين بأنها (مسجد واسع)، حيث يقول: ((وإنما استحق المسجد أن يكون بيت الله لأنه الساحة التي يمارس عليها الإنسان عملاً يتجاوز فيه ذاته ويقصد به هدفاً أكبر من منطلق المنافع المادية المحدودة، وأن هذه الساحة ينبغي أن تمتدّ وتشمل كل مسرح الحياة. وكل ساحة يعمل عليها الإنسان عملاً يتجاوز فيه ذاته ويقصد به ربه والناس أجمعين فهي تحمل روح المسجد))[246]. وهذا ليس فهمًا جديداً لمعنى المسجديّة، وإنما هو إعادة اعتبار لمفهوم ضيّقهُ الناسُ، فأراد أن يعيد له رحابته، فلا يكون المسجد البناء المؤطر بجدرانه الأربعة، بل مفتوحاً على مساحة الحياة بانفساحها وانفتاحها على العمل في سبيل الله.

والمورد الآخر الدالّ على غيريته هو أنه حينما كتب بيانه السياسي الثالث الذي خاطب فيه الأمة في العراق بقوله: ((وإني منذ عرفت وجودي ومسؤوليتي في هذه الأمة بذلت هذا الوجود من أجل الشيعي والسني على السواء، ومن أجل العربي والكردي على السواء، حين دافعت عن الرسالة التي توحّدهم جميعاً، وعن العقيدة التي تضمّهم جميعاً، ولم أعش بفكري وكياني إلا للإسلام طريق الخلاص، وهدف الجميع))[247].

أشار إلى إنها غيرية مبكرة نمت منذ نعومة الأظفار: ((منذ عرفت وجودي ومسؤوليتي في هذه الأمة)) وقد بلغت أوجها وأعلى مراحل تكاملها في سفك دمه لإنقاذ الأمة وخلاصها من محنتها.

بقي أن نشير في ختام هذا المقطع من البحث أن خصائص شخصية السيد الشهيد (رضي الله عنه) الأخلاقية والتربوية الأخرى سواء الأريحية أو التجسيدية أو الشمولية أو المعيارية، إنما هي أوجه مشرقة لهذه الغيرية التي عبّر عنها! بالموضوعية في القصد وتجاوز الذات.

((لقد غيّر قلبُ الصدر الأحاسيسَ عن الحياة، كما غيّر فكرُه مفاهيم الواقع، وابتدع لا شعورها الجديد، كما ابتدع عقله نهجها الفريد، وعاد قلبه يراها بعين عرفانه الأشمّ، كما عاد لبّه ينظرها بباصرة رأيه المجدّد الأعظم))[248].

(246) الفتاوى الواضحة. ص725.

(247) سنوات المحنة وأيام الحصار. ص304 - 305.

(248) فاضل النوري: سبحات روحية. ص131.

خلاصة واستنتاجات

نصل الآن إلى الإجابة عن السؤال التالي: كيف يمكن توظيف تراث أو تجربة الشهيد الصدر (رضي الله عنه) الأخلاقية والتربوية توظيفاً سليماً؟ وكيف يتسنّى لنا ـ ونحن في موقع أدنى ـ أن نتمثّل هذه الأخلاقية الربّانية؟ لاسيما وان الأمة تنظر إلى كلّ من له صلة وصل بالسيد الشهيد تلميذاً حوزوياً، أم تلميذاً حركياً أم عاملاً في خدمة الأمة، على أنه وارث هذا الخلق العظيم؟

أولاً- الاستنتاجات

إن ما يمكن أن نجنيه من تراث الإمام الصدر (رضي الله عنه) في هذا المضمار هو الأمور التالية، والتي هي ليست حصرية ولا استقصائية:

1 ـ لقد خلّف سماحته النموذج المقتدى الذي يحق للأمة أن تتخذه مقياساً عملياً، بل ومائزاً بين عامل وبين عامل آخر. فلقد قام بإحياء أمر وسيرة وأخلاق وقيم الأئمة من أهل البيت (عليهم السلام) حيث سيّل (رضي الله عنه) ذلك كلّه في واقعنا المعاش حركةً مدروسة وملموسة ويانعة الثمار، حتى أننا بتنا نرى ظلال كلماتهم (عليهم السلام) في كلماته (رضي الله عنه) وصورة عملهم (عليهم السلام) في عمله (رضي الله عنه) بكل ما في كلماتهم وأعمالهم من نبل وجمال وحق وعدل وخير وتقوى وانصهار في حب الله تبارك وتعالى.

وإذا كنا نبحث عن تلميذ بارّ بمدرسة أهل البيت (عليهم السلام) الأخلاقية في المنهج وفي الأسلوب، أعاد لتلك المدرسة بريقها الساطع، ونبضها الحي المتحرك، فإن السيد الشهيد (رضي الله عنه) هو ذلك التلميذ الذي قرن القول بالعمل، والنص بالتجربة. ولذلك فإن من الصعب جداً أن نتخيل مدى الزمن الذي سيمتدّ فيه الشهيد الصدر (رضي الله عنه)، كما ان من المتعذر العثور على شخصية شمولية كشخصيته.

فإذا كان ذِكرُ (عمار بن ياسر) و(المقداد) و(مالك الأشتر) و(محمد بن عمير) وغيرهم من النجوم التي لمعت في سماء المدرسة الإمامية، لم ولن يخبو، فإن ذكر السيد الشهيد (رضي الله عنه) سيبقى خالداً ما بقي الدهر، بمعنى أنه سيبقى قادراً على العطاء الطويل حتى بعد الرحيل، فلا يمكن لتجربة بهذا العمق، وهذا السخاء، وهذا الصفاء، أن تُطمس أو تُدرس أو تُنسى أو يعفو عليها الدهر.. وقد تشجب التجارب البازغة الساطعة لكنّ شحوبها آنيّ مؤقت كشمسٍ يحجبها الضباب، إلّا أنه سرعان ما ينفك ضبابُ الوقت وينزاح أمام اصرارها على السطوع.. إنها تستمدّ ديمومتها من مقومات خلود أخلاق أهل البيت (عليهم السلام) الذي عمل الصدر الشهيد (رضي الله عنه) على إخراجها من أقبية الكتب إلى مساحات الضوء الشاسعة، وحرّكها من إطار التمجيد في المناسبات إلى أن نعيشها في آلامنا وآمالنا ودعوتنا ومواجهتنا للظلم وفي عقولنا

وقلوبنا وأخلاقنا بل في حياتنا برمّتها، فهل هم غير الإسلام، أو الباب الذي منه الله يؤتى؟!

لقد مرّ بالقارئ الكريم أن السيد الصدر (رضي الله عنه) كان قد تحدّث عن (يوسف بن تاشفين) في علاقته التفصيلية بالله على انه إنسان عادي من عامّة الناس، ليس بالإمام، وليس بالمعصوم، وكأنه أراد أن يقول إنّ مدرسة الإسلام الأخلاقية مشرعة الأبواب لكلّ تلميذ بارٍّ نبيل يقصدها لا لاكتساب الصلاح والفلاح، بل يعمل بجهده ومثابرته على زيادة صلاحها وفلاحها.

2 ـ لقد أعاد المرجع الشهيد (رضي الله عنه) للحوزة العلمية اعتبارها الضائع والمضيّع وكرامتها المهدورة وسمعتها التي تألّقت في بعض مراحل عطائها الفريد، ومكانتها اللائقة كقائدة شرعية للأمة. فهو إذ يرى فيها امتداد خط الإمامة، يدعو ـ ومن موقع ميداني رائد ـ إلى أن تأخذ المرجعية الدينية الرشيدة مقام الشهادة في الأمة، أي إشغال الموقع الذي شغله المعصوم (عليه السلام) ولكن من غير عصمة.

3 ـ لقد قدّم السيد الشهيد (رضي الله عنه) ملامح نظرية أخلاقية إسلامية متكاملة تقود من شاء أن يقتدي ويهتدي إلى مصافّ شخصيته الربانية ـ في جميع خصائصها التي درسناها ـ لأنه وهو يرسم لنا معالم هذه النظرية فكراً تربوياً، ويجسّدها لنا سلوكاً عملياً، كان يحرص على أن يترك (المنهج) و(الخطّ) و(الكيان) و(المدرسة) التي يمكن أن تخرّج نماذج أخرى تملأ الحياة خيراً وحقاً وصفاءً وجمالاً وهداية.

إنه بعبارة أخرى، كان يريد أن يبني أجيالاً، أو قل نماذَج ترقى إلى مصافّ الشخصية الهادفة الملتزمة، التي تقف شخصية المعصوم (عليه السلام) في الذروة منها ثم الأمثل فالأمثل. وهذا هو الذي دعاه أن يشتغل وينشغل ببنائها واعدادها عن تسطيرها بحروفه في (مجتمعنا) كما قال لـ(الشيخ الوائلي) في جوابه عن سؤال بهذا الصدد. فهل ستلتفت مؤسساتنا ومناهجنا التربوية إلى تجربة الصدر (رضي الله عنه) لتأخذ منها ما يفتح للحياة ما فتحه الإمام الخميني! والشهيد الصدر (رضي الله عنه) والأبرار من مدرسة الإمامية؟!

4 ـ لقد أعاد السيد الشهيد محمد باقر الصدر (رضي الله عنه) بتجربته التربوية الرائدة الثقةَ كاملة للأمة الإسلامية، برموزها وقادتها ومراجعها الصالحين الراشدين، بعد ما تعمّقت الهوّة وتزلزلت الثقة، حتى لقد أضحت عملية إعادة البناء شاقّة بل غاية في المشقّة. وقد قدّم! من نفسه نموذجاً سلوكياً راقياً تماهى فيه القول بالعمل، فأضحى مدرسة تربوية واضحة المعالم، هي صورة ناطقة عن مدرسة الأئمة من أهل البيت (عليهم السلام) فإذا بمَن يرى تلك تتبادر إلى ذهنه هذه، ومن يرى هذه يرى صورتها في تلك.

وما تقديمه (رضي الله عنه) نفسه الزكية قرباناً على طريق البذل في سبيل الله تعالى، إلا عملية ضخّ مدروسة بعناية لزخم ثقة جديدة في الأوصال المتيبسة والمفاصل المتخشبة للعلاقة بين المرجعية

ومريديها أو مقلديها أو جمهورها العريض، وهي أكبر برهان يمكن أن يقدّمه مرجع في طريق إعادة الإسلام إلى قيادة الحياة، حسب تعبيره الرائع والدقيق والمليء بالإيحاءات والدلالات.

5 ـ إنه ذلك (الثائر النبويّ)[249] الذي يعرّفه لنا بقوله: ((الثائرُ النبويُّ هو ذلك الإنسان الذي يؤمن بأن الإنسان يستمدّ قيمته من سعيه الحثيث نحو الله، واستيعابه لكل ما يعنيه هذا السعي من قيم إنسانية، ويشنّ حرباً لا هوادة فيها على الاستغلال، باعتباره هدراً لتلك القيم وتحويلاً للإنسانية من مسيرتها نحو الله وتحقيق أهدافها الكبرى، وإلهائها بالتكاثر وتجميع المال. والذي يحدّد هذا الموقع للثائر النبوي مدى نجاحه في الجهاد الأكبر لا موقعه الاجتماعي والانتماء الطبقي))[250].

فهل يمكن أن نجد مثلاً بارزاً ورائداً ينطبق عليه وصف الثائر النبوي في كثير من سماته غير السيد الشهيد (ﷺ) ومن نهج نهجه ودعا بدعوته وتخلّق بأخلاقه؟!

لقد ((كان ذلك الثائر أبياً رافضاً، ولا يذعن للظلم شيئاً من الاذعان، ولا يلين للبغي نزراً من اللين، ولا يداهن، ولا يصانع ولا يضارع ولا يحابي، ولا يداجي، ولا يتقي كغيره إذا التقيّه عنده أكبر المناهي والمحرّمات. وغدت المجاهرة بالعداء والسطوة أعظم الفروض والواجبات، ولا ينزغه التسليم بنزغ يستعيذ منه بالمقاومة والثبات. وإن فعل فحسبه بهذين ملاذا ومعاذا. ولا ينفث في نفسه خنّاس الإعطاء باليد ووسواسه، فبيعته للإباء الطفيّ في حماسة عاشوراء بيعة واثقة لا تنكث))[251].

لقد نظر هذا الثائر النبوي عميقاً فرأى أن هناك مثالاً أو مثلاً أعلى ينهار ويتحطم وعلى أيدي ولاة الأمر المرجعي أنفسهم، ونظر فرأى أن هناك تركيزاً ـ في المضمار الفقهي والأصولي ـ على (الأعلمية) كتقييم أوحد، فيما هناك أفول واضح للأخلاقية العلمية في بعض مرافق الحوزة العلمية. ونظر فرأى أن هناك مرجعية للفتيا فقط، ولا وجود للمرجعية الموضوعية المتصدية الشاملة المتعاملة مع قضايا الأمة وهموم الميدان والحياة، مما حجّم صورة المرجع القائد وحسرها في تصور جمهورها الملتفّ حولها المطيع لأوامرها في النطاق الأضيق.

ولعلّ من بين أسباب هذا الانحسار هو انكشاف المرجعية الميدانية المتصدية أمام الناس، الأمر الذي يستدعي التزاماً فائقاً بالشروط والمواصفات التي حددتها الرواية المشهورة عن الإمام العسكري

(249) نفهم من (الثائر النبويّ) انه الثائر العلويّ والثائر الحسيني، وكلّ من سار على هذا الدرب وانتهج هذا النهج، فلا انتهاء لمدة صلاحيته.

(250) محمد باقر الصدر: الإسلام يقود الحياة. ص29 - 30.

(251) فاضل النوري: سبحات روحية. ص116.

(عليه السلام) في تحديد المعالم العامة لشخصيات المراجع، وهذا ما لا يتأتى إلا إلى مرجع دفع الضريبة باهضة كثائر نبوي تفوّق في (جهاده الأكبر) فضرب في (الجهاد الأصغر) أمثله أروع من رائعة.

وعلى هذا، فقد تحرّك السيد الشهيد (رضي الله عنه) منطلقاً في هذه الاتجاهات الثلاثة المتحدة في جوهرها ومغزاها:

أ ـ محاولة ترميم المثال المرجعي المتداعي.

ب ـ إعادة الترابط العضوي والجدلي بين (الأعلمية) في شخصية المرجع الفقيه وبين (الأخلاقية) لدرجة تساوي الاهتمام والبحث عنهما.

ج ـ تحويل المرجعية من دور فتيائي محدود إلى دور أبوي، قيادي، إشرافي واسع على التجربة الإسلامية كلها، وهو أمر يتطلب في رأس ما يتطلبه، مثالاً أخلاقياً له في أخلاق الله تعالى وأخلاق رسوله (صلى الله عليه وآله) وأخلاق الأئمة من أهل بيته (عليهم السلام) أسوة حسنة.

6 ـ إن إرث السيد الشهيد محمد باقر الصدر (رضي الله عنه) الأخلاقي الضخم في نوعه، ليس في أنه ترك لنا نظريات تؤسّس للأخلاقية العلمية، بل بما جسّده شخصياً من تطبيقات لتلك النظرية أكسبتها حرارةً وحيوية وإقناعاً في أنها ممكنة التطبيق رغم صعوبتها الظاهرية والفعلية.

7 ـ إن مدرسة السيد الشهيد (رضي الله عنه) الأخلاقية والتربوية تقوم على عدة ركائز مهمة، لكن ركيزتها الأساس والأهم هي أن عملية تحرير الذات من العبوديات الأخرى ـ سوى العبودية لله تعالى ـ تفتح للنفس آفاقاً رحبة للعمل والإبداع والحب والإخلاص، فلا يقف في طريق تكاملها أي عائق يربك أو يعطّل كدحها إلى ربها، فهي عروج دائم وانعتاق دائب لا يأبه بالحواجز الدنيوية ماديةً ومعنوية، ولا يكترث للخطوط الحمراء الوضعية قيد أنملة.

8 ـ يقول السيد الشهيد (رضي الله عنه): إن الإسلام يتشدد في النظرية ويتسامح في التطبيق، لكننا رأيناه ـ من خلال البحث في سيرته الأخلاقية والتربوية ـ قد شدّد كشرط أساس في بنائه لصرح مرجعية رشيدة في التطبيق أيضاً، ليأتي موافقاً للنظرية في صفائها وسطوعها وغناها وامتداد تأثيرها. يقول (رضي الله عنه):

((إذا بقيت لدى الأمة محاولة استرجاع هذا الوجود باستمرار، هذه المحاولة التي يحاولها خط علي (عليه السلام) ومدرسة علي (عليه السلام) والشهداء والصديقون من أبناء علي (عليه السلام) وشيعته، إذا بقيت هذه المحاولة فسوف يبقى مع هذه المحاولة أمل في أن تسترجع الأمة وجودها، وعلى أقل تقدير سوف تحقّق هذه المحاولة كسباً آنياً باستمرار، وهو تحصين الأمة ضد التميع والذوبان المطلق في إرادة هذا الحاكم وفي إطار ذلك الحاكم. أسأل الله سبحانه أن يجعلنا من أنصاره وشيعته والسائرين في خطه والمساهمين

في هذه المحاولات))[252].

فكيف يمكن للأمة ـ يا ترى ـ أن تسترجع هذا الوجود؟

لقد أجاب السيد الشهيد (ﷺ) على ذلك إجابتين: (نظرية) و(عملية)، فهو إذ يحثّنا على الالتزام بالاختزان الفاعل كأسلوب تربوي ناجح، نراه يختزن علياً (عليه السلام) في تجربته اختزاناً رائعاً، حيث يقول:

((كان الأمل في أن علياً يمكنه أن يحقق الهدف ويعيد للأمة وجودها من دون حاجة إلى المساومات وأنصاف الحلول، كان هذا الأمل أملاً معقولاً وكبيراً، ولهذا لم يكن هناك مجوّز لارتكاب أنصاف الحلول والمساومات))[253].

وقد يبدو هذا نهجاً سياسياً في التعامل مع الطغاة المتخذين مال الله دولاً وعباده خولاً، وهو كذلك. لكننا نقرأ فيه أيضاً نهجاً تربوياً تشرّب الرفض لأي نوع من أنواع الظلم والاستغلال. فهو (ﷺ) حينما يستخلص الأسباب التي دعت علياً (عليه السلام) أن يرفض مساومة معاوية وإقراره على الشام، يقدّم لنا أسباب رفضه للتعاطي ـ ولو على مستوى السكوت أو الإغضاء السلبي ـ عما كان يفعله الطغاة في عصره، فهناك الحاجة إلى قاعدة عقائدية وإعدادها فكرياً ونفسياً وعاطفياً، وهناك لحظة الثورة التي تستبطن تركيز وتعبئة وتجميع كل الطاقات العاطفية والنفسية في الأمة لصالح القضية الإسلامية، وهناك محاربة الشك الذي استفحل في الأمة كظاهرة، ولذا فإن الإقرار بما يصطلح عليه بسياسة الأمر الواقع كانت تعني بالنسبة للسيد الشهيد (ﷺ) كما عنت لأستاذه علي (عليه السلام) تعويقاً لعملية التغيير الحقيقي.

وبعد، فكما استدل سيدنا الشهيد (ﷺ) على صفات الله تعالى من خلال صنعه وإبداعه، وقيّم خصائصه بما تشعّ به مصنوعاته من دلالات[254]، وكما استدل على نبوة النبي (ﷺ) بهذا الاستدلال الرائع: ((الوجه الثالث ـ هناك وجهان آخران لسنا في معرض الحديث عنهما ـ ملاحظة أحوال الرسول (ﷺ) وأمانته وصدق لهجته وخلقه العظيم واستقامته في أمره وصموده أمام المحن والمصائب التي كانت تكفي لرفع يد الكاذب عن كذبه وعلوّ همته بدرجة لو وضعت الشمس في يمينه والقمر في يساره، وجعل سلطاناً على وجه الأرض لما رفع اليد عن دعوته، فلا يعقل أن تكون دعوته استطراقاً إلى كسب المال والجاه وما أشبه ذلك. فمن لاحظ كل هذا وما إليه حصل له القطع، إذا كان سليماً في فطرته وعقله بنبوته(ﷺ))[255].

(252) محمد باقر الصدر: أهل البيت ـ تنوّع أدوار ووحدة هدف. ص31.

(253) المرجع السابق. ص30.

(254) راجع: (المرسل ـ الرسول ـ الرسالة). ص59.

(255) كاظم الحائري: مباحث الأصول. ص511.

أقول كما استدلّ بهذه الاستدلالات على صفات الله تعالى هناك، وعلى صفات رسوله (ﷺ) هنا، كذلك كان استدلالنا ـ اقتداءً بنهجه ـ على معالم شخصيته التربوية بما شعّت به تجربته وإبداعاته وما لاحظناه من أحواله وأمانته وصدق لهجته وخلقه العظيم واستقامته في أمره وممانعته في قابل المحن والمصائب والتحديات.. ومن لاحظ ذلك كله يحصل له القطع ـ إذا كان سليماً في فطرته وعقله ـ بأنه المرجع الرشيد الذي جسّد مثال خط الشهادة أروع تجسيد، مما يجعله شاهداً على المسيرة بعد رحيله مثلما كان شاهداً عليها في حياته.

ثانياً- التوصيات

وتأسيساً على ذلك رأينا أن نقدّم التوصيات الآتية للمعنيين بالشأن التربوي للأمة، عسى أن ننهض ببناء مدرسة الصدر الأخلاقية التي أكدنا مراراً أنها مدرسة الإسلام الأخلاقية وليس شيئاً مختلقاً أو زائداً عليه:

1 ـ لا بدَّ من طرح تراثه الأخلاقي بصيغه العلمية والتجاربية والموضوعية الشاملة، إلى جانب تراثه الفكري والفقهي والفلسفي، على مستوى حوزاتنا العلمية وجامعاتنا الإسلامية المهتمة بالشؤون التربوية، وأن نحثّ طلبة الدراسات العليا ـ في كليات التربية على وجه الخصوص ـ على إعداد الدراسات والبحوث العلمية في هذا الجانب، والعمل على إماطة السكوت عن كنز أخلاقي دفين هو للإنسانية كلها وليس للأمة فحسب، بل إننا ومن وجهة نظر وطنية وإسلامية، نرى ضرورة اهتمام وزارات التربية والتعليم في إيراد سيرته ومواقفه في بعض مناهجها التربوية، من أجل انشاء جبل (يعرف) الصدر) و(يتعرّف) عليه، ويقابله بـ(العرفان) لا بمجرد الاشادة والامتنان، لاسيما وأن شخصية مثل السيد محمد باقر الصدر (رضي الله عنه) ليست عمليّة فقط، بل (نهضوية) (حركيّة) (إصلاحية) (تنويرية) (إحيائية) (تجديدية) (ثورية) أيضاً، فلا بدَّ أن تأخذ حيزها من الاضاءة والسطوع والانتشار اسوة برجالات النهضة، وشخصيات الاصلاح، ورموز الابداع والعبقرية والعظمة.

2 ـ إن مراجع الأمة الذين مثّلوا خط الشهادة خير تمثيل كالإمام الخميني (رضي الله عنه) والشهيد الصدر (رضي الله عنه) وغيرهم ممن وصفهم السيد الشهيد بالمرجعية الرشيدة، منظومة مراجعية كبرى وثرية لا بدَّ من تقديمها للأمة على الطريقة الموضوعية الشاملة التي كان الصدر الشهيد ينادي بها في المجالات كلها؛ ذلك أن الصدر هو ـ بمعنى وبآخر ـ خميني آخر، كما أن الخميني ـ بمعنى وبآخر ـ هو صدر آخر، وأن الاقتران بينهما وبين أمثالهما في دراساتنا[256]، ضروري للكشف عن معالم مدرسة أهل البيت(فيما صنعته من

(256) كما فعل الدكتور (محمد خاتمي) في كتابه (بيم موج).

نماذج كانت زيناً لهم. وليس الكلام هنا محصوراً في هذه الأسماء بل بكل هذا الخط الذي مثّل المرجعية كحصن واق للأمة من كل ألوان الضياع والانحراف.

3 ـ إن عرض جهود وجهاد السيد الشهيد (رضي الله عنه) في فلم سينمائي وثائقي، وتقديمه من خلال المسرح الجادّ ينطوي على خدمة جليلة لمشروعه ليس التربوي فقط بل الفكري والحركي والنهضوي أيضاً. فهو ـ في تقديرنا ـ الأبلغ في التأثير وإيصال رسالته من الكثير من المشاريع الكتابية التي تناولت سيرته ومنهجه وآثاره. ولا يعني ذلك تقليلاً من شأن البحث العلمي والدراسة الأكاديمية في المشروع الصدري أو المدرسة الصدرية، ولكنه إلماعٌ إلى أن الصورة الحية المرئية هي الأكثر استقطاباً للاهتمام العام، على أن يكون الفلم أو المسرحية بالمستوى الذي عليه أفلام ومسرحيات الشخصيات التاريخية العظيمة التي أثّرت بل وحفرت عميقاً في مجرى التاريخ.

4 ـ إن دخول السيد الشهيد الصدر (رضي الله عنه) كمدرسة وكمشروع تربوي وفكري على خطوط شبكة المعلومات (الإنترنت) بشكل عصري مبرمج، لا يكتفي بتقديم تعرفيات متناثرة بنتاجات وإبداعات السيد الشهيد، بل يفتح حوارات بين تلامذته ودارسيه من جهة، وبين قارئيه ومحبيه من جهة أخرى، يعني فتح صفحة مهمة ونادرة من صفحات الإشراق الفكري والتربوي والحركي، ويوسّع دائرة المهتمين بفكر هذا العملاق الذي يأتي الاهتمام بكتبه في بعض البلدان (كما في المغرب العربي) بعد الكتاب الكريم.

5 ـ إن موسوعة السيد الشهيد محمدباقر الصدر (رضي الله عنه) التي جرى الكلام عنها في مطلع الثمانينات، والتي توقفت أو ألغيت ـ لست أدري لماذا ـ بحاجة إلى بعث الحياة فيها من جديد، وأن تتظافر جهود فريق عمل خبير، مختص لإنجازها على نحو الموسوعات العصرية الراقية، لتكون عوناً لأبناء الإسلام في ثقافتهم وعملهم وإبداعهم[257].

6 ـ إن مشاريع الصدر التي تنتظر حول (أصول الدين) و(مجتمعنا) واستكمال (المدرسة القرآنية) و(الفتاوى الواضحة) ومشاريعه الفلسفية والمؤسسة المرجعية وغير ذلك من أحلام وتطلعات السيد الشهيد الفكرية والعملية، تدعو إلى حلبة العطاء أصحاب الغيرة على خط السيد الشهيد (رضي الله عنه) ونشر تراثه، إلى أن يبذلوا قصارى جهودهم ليحققوا للصدر ما كان يؤمّله من تلامذته وعشّاق مدرسته في أن

(257) لقد تكرّم القائمون على مؤتمر الشهيد الصدر الدولي الذي عقد بطهران من تلامذة السيد الشهيد الراحلين: الشيخ محمد علي التسخيري، والسيد نور الدين الاشكوري، على طباعة الكتب الأساسية لتراث السيد الشهيد، وليت شعري، هل هي الموسوعة الشاملة الكاملة، أم لم يغطها مشروع المؤتمر تغطية كاملة. كما نشيد بمجهود الشيخ أحمد عبد الله العاملي (أبو فريد) في خماسيته الرائعة، ومؤلفات الاستاذ السيد محمد الحسيني في جمع تراثه وتقديمه للقارئ العربي والإسلامي.

يضيفوا للبنات الفلسفية والاقتصادية والفكرية لبنات أخرى ليكتمل بناؤها.

7. لقد تمت ترجمة السيد الشهيد (رضي الله عنه) إلى بعض اللغات العالمية الحيّة في بعض كتبه التي تلاقفتها الأكاديميات العلمية الرصينة، والشخصيات العلمية البارزة، بل لقد بلغنا أن بعض من عُدّوا في عداد الملاحدة واللاأدريين، نجح كتاب السيد الصدر الأشهر والأبرز (الأسس المنطقية للاستقراء) في ربطهم بفلك التوحيد من جديد، فما أحوج المكتبة العالمية اليوم إلى ترجمة كاملة لموسوعة الصدر وبلغات حيّة أخرى غير الانجليزية والفرنسية.

اللهم احشر سيدنا الشهيد ومرجعنا الرشيد محمد باقر الصدر (رضي الله عنه) مع من تولى من الأنبياء والمرسلين، ومع الأئمة الهداة المهديين (عليهم السلام) واجعله مباركاً نفّاعاً ما امتدت حياة المسلمين، ووفقنا إلى أن نكون من أتباع مدرسته مدرسة الإسلام قولاً وعملاً، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الملاحق

الملحق رقم (1)

"المِحنة" في القرأن الكريم في جانبيها (الذاتيّ) و(الموضوعيّ)
مفهومها القرآنيّ و تطبيقاتها الحياتيّة

تقدمة:

ألقى الإمام الصدر هذه المحاضرة الصوتية في (جامع الطوسي) بالنجف، يوم السادس والعشرين من صفر 1389 هجرية، في جمع غفير من تلامذته ومريديه. وإذ نضيفها الى ملاحق الكتاب، وحقها أن تكون في صلبه وصميمه، فإننا ندرك أن هذه المحاضرة (التشريحيّة)، والأخرى (الصرخة) الخاصّة بـ(حب الدنيا)، تصبّان في مجرى المفهوم الأخلاقي والسلوكي عند سيدنا الصدر، بل هما عصيرُ حياته المهمومة بالإنسان، وزبدة فكره التربويّ في ما يترتب على العاملين من مسؤوليات. وقد انطوت الأولى على قراءة نقديّة مجتمعيّة مستوعبة لمحنة الأمة في أعتى وأصعب مراحل حياتها، فيما وجّهت الثانية عنايتها إلى (الذات) في معترك صراعها بين (مِنحتها) و(محنتها).. بين ابتلائها بالظلم والقهر والاستبداد، وبين ابتلائها برغد العيش وبحبوحته ومغرياته وتشويقاته.

فمن وجهة نظر تحليليّة، نرى أن المحاضرتين محاضرة واحدة، أو تُكمل إحداهما الآخرى، فـ(المحنة) في زمن الشدّة عاتية مُزلزِلة، و(حب الدنيا) في زمن الدعة والسلامة واستمراء الغنائم، أشدّ وأعتى، إنه (محنة) ولكن من نوع آخر.. أكبر وأخطر وأضرّ من حيث نتائجه وآثاره المجتمعيّة.

جانبا المحنة:

((بسـم االله الـرحمن الـرحيم. وأفضل الصلوات على سيد الخلق وآله الطيبين الطاهرين.

أي محنة تمر بالإنسان المسلم لها جانبان:

1. جانب موضـوعي.

2. جانب ذاتي. يرتبط بذات ذلك الإنسان المسلم الذي يواجه تلك المحنة.

أولاً: الجانب الموضوعي:

أقصد به مجموع الظروف والملابسات والعوامل الخارجيّة التّي أدّت إلى تكوين هذه المحنة

ووقوعها بين يدي هذا الإنسان المُمتحن، أو هذه الجماعة الممتحنّة.

ثانياً: الجانب الذاتي من المحنة:

أقصد به دور هذا الإنسان الممتحن، وموقفه من المحنة بعد وقوعها، وقبل وقوعها.

فهناك في الجانب الذاتي أمران:

أحدهما: موقف الإنسان الممتحن ومستواه الشعوري، والنفسي والإدراكي إزاء المحنة بعد وقوعها.

والأمر الآخر في الجانب الذاتي: هو دوره الإيجابي في تكوين هذه المحنة قبل وقوعها، القدر الذي ساهم فيه عن قصدٍ أو عن غير قصد عن خبثٍ أو عن حسن نيّة في تكوين هذه المحنة التي يواجهها.

وبما أن كلّ محنة لها جانبها الموضوعي وجانبها الذاتي فلا بدّ ـ بالإضافة إلى التفكير في الجانب الموضوعي الذي تتولّى التفكير فيه الجهاتُ المسؤولة عن تلك المحنة ـ لا بدّ للممتحنين جميعا أن يفكّروا في الجانب الذاتيّ من المحنة أيضاً. وأن يعيشوا المحنة كـ(عملية تطهير) لأنفسهم، و(تزكية لأرواحهم)، و(تصميم على التوبة) من التقصيرات المتراكمة المتلاحقة التي عاشوها عبر حياتهم العملية والعلميّة.

هذه التقصيرات المتراكمة المتلاحقة التي عاشوها عبر حياتهم العملية والعلميّة، هذه التقصيرات التي قد لا يُحَسّ بكلّ واحدٍ منها على حدة، لكنّها حينما تتراكم تتحول إلى فتنة تأكل الأخضر واليابس ، تأكل من ساهم ومن لم يساهم ، تأكل من قصّر ومن لم يقصّر، تأكل الحسين سلام الله عليه[258].

أليست تلك التقصيرات المتراكمة التي عاشها المسلمون منذ سقط الإمام علي عليه الصلاة والسلام صريعاً في المحراب في سبيل الدفاع عن المسلمين، التقصيرات المتراكمة التي عاشتها الكثرة الكاثرة من المسلمين، ألم تأكل الفتنة التي تمخضت عنها تلك التقصيرات كلَّ النّاس،حتى الحسين نفسه أكلته الفتنة بالرغم من أنّه كان أنصف النّاس وأبعد النّاس عن تقصيرٍ في قول أو عمل؟

إذن فهذا الجانب الذاتي درس، هذا الجانب الذاتي اختبار نفوسنا، ونحن نواجه (محنة اختبار مشاعرنا) تجاه المحنة بعد وقوعها و(اختبار أعمالنا التمهيديّة التي مهّدت لهذه المحنة .هذا الاختبار عمل ضروري آني، يجب أن لا ننشغل بالألم أو بالانفعالات العاطفية عن حساب مرير من هذا القبيل. كيف يمكن أن نترقب فرجاً من الله، أن نترقب رحمةً من الله تعالى، إذا كنا لا نتفاعل مع النُّذر (أو

(258) وتأكل السيد الصدر واخته العلوية آمنة (بنت الهدى) وأبرار الأمة وأخيارها!

الشروط) التي يريد الله تبارك وتعالى أن يميّز فيها الخبيث من الطيّب ويريد بها أن يفتح أمامنا أبواب التوبة من جديد وأبواب التطهير من جديد؟!

شرط الصبر والثبات:

أوّل الشروط، أن نرجو من الله تعالى رجاءً حقيقياً الرحمةَ والإمداد والعون على الصبر والثبات ومواصلة الخط ،أول شروط ذلك أن نتجاوب مع هذه النّذر ونعيش مع الله لنقرأ من جديد صفحات حياتنا وأعمالنا وما قدّمنا وما أخّرنا.

ولنبدأ قبل أن نرجع إلى الوراء إلى ما قدّمنا، نبدأ بالأمر الأول أي (بمشاعرنا تجاه المحنة)، لا بدّ قبل كلّ شي أن (ننظّف)هذه المشاعر، أن نجعل مشاعرنا تجاه المحنة، مشاعر صحيحة، مشاعر إسلامية، تنبض بالغيرة على الإسلام لا بالغيرة على مصالحنا الخاصّة، بالغيرة على هذا الوجود. لأنّنا مالم ننظّف هذا الشعور ونحن في غمرة الامتحان القاسي، لم نستطع على أقل تقدير أن ننتصر في معركة تغيير هذا الشعور، وفي معركة إيجاد شعور نظيف تجاه هذا الإمتحان. مالم نستطع أن نغيّر هذا القدر الضئيل من نفوسنا كيف نطمح أن نبني أنفسنا ككل؟ وكيف نطمح أن نبني المسلمين ككل؟ إذن منطلق الحديث هو هذا الشعور الذي يواجهه الإنسان الممتَحن تجاه محنته، كيف يكون هذا الشعور؟

وقفة اختبار المشاعر:

كثيراً ما تُوجد المحنة، وتولّد المحنة مشاعرَ متعدّدة. فبالرغم من وحدة المحنة، تختلف هذه المشاعر في درجاتها ومستوياتها تبعاً لاختلاف التصوّر والتفكير ، واختلاف الروحية والاتجاه واختلاف الشعور يؤدي ـ لا محالة - إلى اختلاف الموقف الذي يتّخذه الممتحن تجاه محنته، فتبعاً لنوعيّة الشعور سوف يُتّخذ الموقف المطلوب وفقاً لذلك الشعور.

أضرب لكم مثلاً قبل أن نأتي إلى الموضوع الذي نتحدث عنه، مثلاً هناك محنة يعيشها العراق منذ سنين وسنين محنة صراع مسلح بين أخوين في الشمال بين بعض الأكراد وبعض العرب هذه محنة يعيشها العراق.

قد يخطر على بال الإنسان، أو قد يكون شعور بعض الناس إزاء هذه المحنة (شخصيّا) أي إنّها كلّفته ولده، كلّفته أخاه، كلفته صديقه، لأنّ أخوه أُخذ،أو أبوه، أو أُخذ صديقه للمعركة فقُتل . قد يعيش هذه المحنة على هذا المستوى، ويشعر بها بهذه الدرجة، وهذا هو الشعور الشخصي المحدود

بالمحنة. وموقفه إزاء هذا الشعور أن يهرّب أخاه، أو أن يُهرب أباه، أن يتهرب من واجبات القانون حتى لا ينخرط في مأساة من هذا القبيل ولا يرى له واجباً وراء ذلك.

وتارةً أخرى يتعمق هذا الشعور أكثر فأكثر، فيكون شعوره إزاء المحنة شعوراً (إقليمياً)على أساس أن أبناء البلد الواحد يتصارعون ويتنازعون فيما بينهم، وهذا الشعور والانفعال الإقليمي تجاه المشكلة يؤدي إلى اتخاذ موقف أوسع من الموقف الأول، إلى موقف يفكّر فيه بأنّه كيف يعيد الصفاء والسلام إلى أبناء البلد الواحد.

وقد يكون شعوره أعمق من هذا وذاك، قد يشعر أن هذه المحنة هي (نتاج عدم تطبيق شريعة الله) على هؤلاء المسلمين. إن عدم تطبيق شريعة الله عليهم هو الذي أدّى إلى تعميق التناقض بين الأخ وأخيه حتى ولدت مشكلة (النزاع) بين هذا وذاك وتصارع الكردي والعربي.

حينئذٍ، هذا الشعور سوف يولّد موقفاً يختلف عن الموقف الذي ولّده الشعور السابق الإقليمي أو الشعور الأسبق الشخصي، سوف يجعله هذا الشعور يحمل همّ الشريعة ويصل إلى السبب الحقيقي لهذا التوتر. وكذلك هي المحنة التي نعيشها.

تارة يفكّر هذا الشخص الذي طُورد وشرّد بأن المحنة هي: أنّه قد فقد أيام الدعة والراحة، إنّه كان يعيش حياة الدعة والراحة، واليوم يعيش حياة القلق والارتباك، إمّا هو فقط، أو هو مع قطاع معيّن من الحوزة يعيشون حياة القلق والارتباك لأنهم مطاردون مشرّدون من قبل الوضع الذي يعيشون في داخل إطاره.

قد يكون الشعور تجاه هذه المحنة هو شعور شخص يفقد الأمن والاستقرار، ويريد أن يفتش عن الأمن والاستقرار. وهذا هو الشعور الشخصي المحدود الذي لا يمكن أن يدخل في حساب بناءٍ حقيقي، ذلك لأن هذا الشعور من طبيعته أن يجعل هذا الإنسان يحسب حساب المحنة في حدود علاقتها به شخصياً، فإن كان هو في منجى من هذه المحنة شخصياً على أساس أنه لا يدخل في نطاق ذلك القطاع المطارد فعلاً، فسوف لن يتفاعل مع المحنة، سوف لن يشعر بوجودها.

وذلك الإنسان الآخر الذي دخل في القطاع الذي يتفاعل فيه مع المحنة، ذلك الإنسان الذي يعيش فعلاً مشكلة التشريد- مشكلة الطرد والمراقبة، يفكّر في علاج المشكلة في حدود أنها مشكلة جعلته يفقد أمنَه ولستقراره، وحينئذ يفكّر أول ما يفكر في أن يغادر الساحة، ما دامت هذه الساحة، مادام هذا المكان لا يوفر له حياة الإستقرار والثبات والطمأنينة ،ومادام بالإمكان أن ينتقل منه إلى مكان آخر أكثر

استقراراً وطمأنينة، فلماذا لا يستعجل؟ لماذا لا يغادر هذا المكان وبذلك تنحل المشكلة؟!

في الواقع أن السلبية التي توجد في بعض الأفراد الذين يعيشون في إطار هذه الحوزة تجاه هذه المحنة، وروح الهزيمة الموجودة في بعض الأفراد الآخرين الذين يعيشيون في إطار هذه الحوزة ، نشئا من نوعية الشعور وردّ الفعل النفسي الذي يعيشونه تجاه المحنة. فحينما يُنظر إلى المحنة على أنها محنة حياة استقرار قد فُقدت، وأنها محنة التفتيش عن وضعٍ أكثر طمأنينةً، حينئذ سوف لن يشعر بالمحنة ذاك الذي لم يتعرض فعلاً للاضطراب، وسوف يفكر من تعرض للاضطراب فعلاً بأن يفتش عن مكان لا اضطراب فيه. هذا هو المنطق الطبيعي والنتيجة الطبيعية لشعورٍ شخصيٍ مصلحي، وانفعال محدودٍ تجاه المحنة.

شعور الغضب لله:

وأما حينما نعيش شعورنا وغضبنا وألمنا لله لا لأنفسنا،حينما نشعر بأن المحنة ليست هي أنّنا فقدنا حياة الاستقرار والطمأنينة. ونتساءل: متى كنّا نعيش حياة الاستقرار والطمأنينة؟!

منذ توفي رسول الله؟! منذ وقعت تلك المصيبة العظيمة؟ حينما خلّف القائد الأعظم في مثل هذه الأيام أمةً بناها بجهده وتضحياته وسهره في آناء الليل وأطراف النهار، حينما ترك هذه الأمة وهي بعدُ في بداية الطريق تواجه ألوان العواصف والمحن والمشاكل، منذ تلك اللحظة لم يعش الإنسان المؤمن حياة الاستقرار. ألم يصف الأمير عليه الصلاة والسلام الفتنة التي وجدت وولدت عقيب وفاء النبي بأنها الفتنة التي ((يشيب فيها الوليد)) فهل تكون حياةٌ يشيب فيها الوليد هي حياة الاستقرار والاطمئنان؟ لكن الفرق هو أن هناك من الناس من لا يحس بفقدان الاستقرار، الاستقرار غير موجود لكنه لا يحس بفقدان الاستقرار، ولا يدرك أنّه لا استقرار إلا حينما تمسّه النار وإلا فإن الواقع لم يتغيّر ولم يختلف منذ مئات السنين، حياة الاستقرار والدعة غير موجودة لشخصٍ يحمل الهموم التي كان يحملها ذلك القلب الكبير قلب الإمام علي عليه الصلاة والسلام الذي قال: إن الفتنة يشيب فيها الوليد، فالشخص الذي يعيش تلك الهموم لا يجد في الدنيا حياةَ الاستقرار والدعة، بل حياة العناء والمسؤولية، حياة الكفاح والجهاد لا حياة الدعة والاستقرار مهما توفرت أمامه أسباب الرخاء بحسب الظاهر.

إذن فالمشكلة ليست أنّا فقدنا حياة الدعة والاستقرار، نحن كنّا قد فقدنا حياة الدعة والاستقرار منذ عصف القدر بنبينا (صلى الله عليه وآله)، ولئن كان بعضنا يشعر مؤقتاً بالدعة والاستقرار، فهذا لأنه لم يعش تلك الهموم، لأنه لم يكن مع الناس، لأنّه لم يكن على مستوى المسؤولية وإلا كان من المفروض أن لا يعيش

حياة الدعة والاستقرار وإمامه يقول: إنها فتنة يشيب فيها الوليد. وتلك الفتنة التي يشيب فيها الوليد لا يمكن أن توفر للإنسان حياة الدعة والاستقرار، و إذن فلا دعةَ ولا استقرار، نحن لم نخسر دعةً واستقراراً.

إمتحان الكيان!

وإنما امتحنا في (كيان)، أمتحنا في هذا الكيان الذي ورثناه منذ مئات السنين، هذا الكيان الذي بُذل في سبيله من جهود سلفنا الصالح الطاهر من أصحاب الأئمة عليهم الصلاة والسلام، ومن أجيال الفقهاء بعد ذلك جيلاً بعد جيل، بُذل في سبيل هذا الكيان وتدعيمه وتطويره وتنميته وجعله مشعلاً للإسلام في كل أرجاء العالم الإسلامي، بُذل في سبيل ذلك من الدم الطاهر والوقت الطاهر ما امتلأ به تاريخ سلفنا الطاهر. المشكلةُ هي مشكلة هذا الكيان.

وليست المشكلة مشكلةَ هذا الفرد أو ذاك الفرد، وإنما هي مشكلة هذا الوجود الكلّي لكلّ هؤلاء الأفراد. وهذا الكيان -كما قلت- ليس كياناً قد وصل إلينا مجاناً حتى نستطيع، أو حتى يجوز لنا ـ بمبرارت الهزيمة النفسية ـ أن نسلّمه بسهولة، أن ننسحب عنه باختيار، أن نضيّعه بأنفسنا، وإنما هو كيان وصل إلينا عبر تاريخ مليء بالتضحيات بالعمل الصالح والجهاد الصالح.

محنة الفقيه (محمد بن عمير):

هذا هو الكيان الذي تسرّبت في كل أرجائه الآلام التي عاشها (محمد بن أبي عمير) في سبيل انشال هذا الكيان، ومئات من أمثال محمد بن أبي عمير من أصحاب الأئمة عليهم الصلاة والسلام الذين عاشوا ألوان المحنة والإضطهاد وألوان البلاء في سبيل ترسيخ بذور هذا الكيان.

أليس (محمد بن أبي عمير) على سبيل المثال هو ذاك الشخص الذي استطاع أن يصمد لا أمام خوف نفسي بل أمام تعذيب خارجي وجهه عليه أسوأ سلاطين العالم في ذلك الوقت[259]؟

استُدعي (يقصد محمداً بن عمير) من قبل جهاز ذاك السلطان وكلّف بأن يشي بالشيعة لأنه كان من مشاهير فقهاء الشيعة.

قيل له: إنّك تعرف أسماء الشيعة اذكرهم لنا وأنت بخير. امتنع محمد بن أبي عمير وبقي يكرّر

(259) هنا يتحدث السيد الشهيد بلغة التاريخ، لكنه يصف الواقع، يحكي عن فقيه من تلامذة الجيل الثاني لمدرسة الإمام الصادق(عليه السلام)، لكنه يُحدّثنا عن نفسه، يصوّر لنا معاناة بار من أبرار المدرسة، ويستبطن ذاته، وكأنه يقول سأفعل ما فعل بن عمير لو تعرّضتُ الى ما تعرّض إليه!

أني أعرف من الشيعة محمداً بن أبي عمير، فأمر به فضُرب حتى أغمي عليه.

قال عليه رضوان إني في حالة هذا الضرب صارت عندي لحظة ضعف، حاولت أن أنطق ،حاولت أن أذكر أسماءَ جملة من الأصحاب ومن الإخوان من تلامذة مدرسة الإمام جعفر بن محمد الصادق، فتمثل أمامي شيخي (حمران) ـ وكان حمران ميّتاً وقتئذٍ- تمثل أمامي وفي مخيلتي شيخي وهو يقول لي: يا محمد إياك وأن تنطق بكلمة ولو متّ تحت السياط!! يقول: فاستعدت رباطة جأشي وقوتي وحولي وطولي وصمّمت على أن لا أنطق مهما كلّف الأمر!

حُمل هكذا إلى بيته بعد أن عجز الآخرون عن استنطاقه ثم صودرت أملاكه صودرت أمواله، كان بزازاً تاجراً واسع النطاق في الثراء والمال وأصبح بين عشيةٍ وضحاها إنساناً فقيراً لا يملك شيئاً من تلك الأموال يجلس في شرفة بيته يشتغل برواياته وأحاديثه.

إن قصة نهب داره هي القصة التي جعلتنا نخسر كثيراً من أسانيد روايات (ابن أبي عمير) يقولون: إنّ السبب في أن أكثر روايات هذا الرجل العظيم كانت مراسيل هي أن كتب هذا الرجل العظيم كانت في جملة الأموال التي نُهبت وصُودرت من بيته من قبل الآخرين، ولهذا بقي ينقل ما علق بذهنه، وكان لا يحفظ الأسانيد في كثير من الأحيان فكان يُرسل، ولهذا كانت روايات ابن أبي عمير أكثرها مراسيل. يجلس في الشرفة يتلهى ويشتغل بالروايات التي عرفها، ولم يشعر بنوع من الإنهيار كان لا يزال أقوى ما يكون صموداً وثباتاً واستبسالاً واعتقاداً بأن خط الإمام جعفر ابن محمد الصادق هو الخطّ الصالح الذي يجب على الإنسان لكي يكون إنساناً صالحاً أن يواصل باستمرار فيه والبذل له والعطاء له بقدر ما يمكنه. لم تجعله هذه المحنة يتململ أو يتزعزع أو ينحرف قيد أنملة عن وصايا وتعليمات الإمام جعفر بن محمد الصادق.

جاءه شخص من عملائه الذين كانوا يشترون منه الأقمشة حينما كان تاجراً وكان عليه دين قد بقي في ذمته لمحمد بن أبي عمير، وكان يتقاعس عن الوفاء، لكنه حينما بلغه أن محمد بن أبي عمير وقع في محنة مصادرة أمواله وأملاكه، جاء إليه بالمبلغ من المال ـ ولا أتذكر كم كان ـ قدّم بين يديه المبلغ، قال له: اعذرني يا شيخي إن كنت قد تأخرت حتى الآن في تقديم هذا المبلغ لأني كنت معسراً ولما سمعت بأنك قد صودرت أملاكك ووقعت في ضائقة قررت أن أبيع داري ثم أقدم بين يديك حقّك لكي تستعين به على أمور دنياك.

ماذا قال هذا الفقيه الصالح؟ ماذا قال هذا الإنسان الذي يمثل نتاج مدرسة الإمام جعفر بن

محمد الصادق؟ قال له: سمعت من أشياخي، عن الإمام جعفر الصادق أنه يقول: (لا يباع دارُ سكنٍ في وفاء دين) خذ هذا المال إليك، والله خير الرازقين.

إذن فهو ـ في قمة المحنة ـ لم يشأ أن ينحرف قيد أنملة حتى عن التعاليم والوصايا الأخلاقية التي ذكرها الإمام جعفر بن محمد الصادق وإلا ما معنى (لا يباع دار سكن في وفاء دين) يعني: لا يَجبر الدائنُ المدين على أن يبيع دار سكن، أما إذا تبرع المدين بأن يبيع دار سكنه فيجوز شرعاً للدائن أن يأخذ مال الوفاء ولكنه مكروه.

هذا المفهوم الشرعي للكراهة جعل هذا الرجل الممتحن يقف في هذه اللحظة موقف الإباء والتمنّع، لأنه لا يطلب الحياة إلاّ لكي يضرب المثل الأعلى للإنسان المسلم في أخلاقه وسلوكه وسيرته.

هذا الكيان هو الكيان الذي انبثت فيه آلام محمد بن أبي عمير ومئات من أمثال محمد بن أبي عمير.

تاريخ حافل مضمّخ: هذه الحوزة لها تاريخها الطويل الذي مرّ بعدة مراحل:

مرّ بمرحلة كان فيها هذا الكيان يعبّر عن(اتصالاتٍ فردية) بين علماء مجتهدين، وقواعد شعبية في بلاد أولئك العلماء المجتهدين يُستفتى العالم فيفتي وهذه المرحلة هي المرحلة التي عاشها أصحاب الأئمة عليهم الصلاة والسلام. واستمرت هذه المرحلة لإلى أيّام العلامة الحلّي رضوان الله عليه، كان الوضع العام لهذا الكيان هو وضع علماء مجتهدين يوجد كلّ منهم في مكان يرتبط به شيعة يستفتونه فيفتي ثم بعد هذا دخل مرحلة أخرى. وأظنّ ـ بحسب ما أفهم من سير الأحداث ـ أنه دخلها على يد الشهيد الأول رضوان الله عليه.

هذا الشهيد الأول الذي قدّم دمه في سبيل نقل هذا الكيان من المرحلة الأولى إلى المرحلة الثانية على عهد الشهيد الأول رضوان الله عليه، تطور حتى أصبح عبارة عن (أجهزة من الوكلاء) وعلماء الأطراف يرتبطون بالمرجع ويتصلون بالقواعد الشعبية. وهذا هو الوضع الموجود للمرجعية فعلاً، أنا لا أعرف تطبيقاً أسبق من الناحية التاريخيّة له من تطبيق الشهيد الأول رضوان الله عليه.

قام بهذا التطبيق في لبنان وسوريا وعيّن الوكلاء، وفرض جباية الزكاة والخمس على القواعد الشعبية من الشيعة، وبذلك أنشأ كياناً دينياً قوياً للشيعة مترابطاً لأول مرّة في تاريخ العلماء. وكان انشاؤه لهذا الكيان هو من أهم الأسباب التي أدّت إلى مقتله رضوان الله عليه في قصةٍ لا مجال الآن للتوسع فيها.

واستمرت هذه المرحلة (مرحلة المرجعية من الجهاز) إلى أن دخلت (المرحلة الثالثة) على يد (الشيخ كاشف الغطاء) ومعاصريه من العلماء (مرحلة التمركز والاستقطاب) لأن المرجعيّة في المرحلة الثانية، بالرغم من أنها كانت ذات أجهزة لكنّها لم تكن متمركزة بنحو يستقطب العالم الشيعي كلّه.

وفي عهد الشيخ كاشف الغطاء وعن طريق علاقات وارتباطات واسعة بين العراق وإيران، أمكن وضع بذرة للاستقطاب والتمركز ونشأت (المرجعية المركزية) التي تستقطب أنظار العالم الإسلامي وكان لهذا الإنشاء ولهذا التطوير تضحياته الكبيرة وجهوده التي أيضاً لا مجال الآن للتوسع في الحديث عنها.

وفي هذه المرحلة الثالثة، حينما ولدت هذه المرجعيّة المرتبة المستقطبة، مرّت على هذه المرجعية فترة طويلة من الزمن في عهد الحكم العثماني قبل عصر الإستعمار.

ثم حينما دخل المسلمون عصر الإستعمار وُجد نوعٌ من التحول والتطوّر في هذا الكيان، لأن هذا الكيان الذي كان قد اصبح كياناً مركزياً يستقطب أنظار العالم الشيعي بدأ يتسلم زمام القيادة، بدأ يدخل الصراع مع الكافر المستعمر ويتبنى مصالح المسلمين ويدافع عنهم.

وهكذا بدأ هذا الكيان مرحلة أخرى هي مرحلة (القيادة) زيادة على استقطابه وتمركزه منذ حوالي خمسين أو ستّين عاماً، منذ أحداث دخول النفوذ الإستعماري إلى هذه المنطقة في العراق، وإيران، ولبنان، وغيرها من أنحاء العالم الشيعي وفي بداية الأمر، كانت هذه القيادة تتذبذب بين مدّ وجزر، بين ظهور وخفاء، حسب الظروف والملابسات التي تُمنى بها خلال عملها.

إذن هذا الكيان هو كلّ هذا التاريخ، كلّ هذه الجهود، كلّ هذه التضحيات، هي عبارة عن هذا الكيان الذي بأيدينا، فهل بالامكان أن يكون شعورنا تجاه محنة يتعرّض لها هذا الكيان هو الشعور تجاه إنسان يفقد مصلحةً شخصيةً محدودة فقط، يفقد نعمة الرخاء والدعة فقط، يفقد حياة الاستقرار والأمن فقط؟ هل هذا هو الشعور الذي يجب أن يكون لدى وريث محمد بن أبي عمير؟ لدى وريث الشهيد الأول الذي بذل دمه في سبيل هذا الكيان؟ هل يجب أن يكون وريث ذلك الرجل العظيم يحسّ تجاه المحن التي تعصف بذلك الكيان احساس شخصٍ يفقد مالاً أو يفقد استقراراً؟ لا بل يجب أن يكون أكثر شعوراً بالمسؤولية.

النار التي تأكل الكيان: ومن أعظم مظاهر هذا الشعور بالمسؤولية ـ من ناحيةٍ ـ هو الشمول والعموم يعني أن يكون هذا الانفعال وهذا الغضب وهذا الشعور بالألم أن يكون هذا الألم ألماً يعيشه كل أبناء هذا الكيان، لا أن يعيشه خصوص من يواجه النار وجهاً لوجه، لأن هذه النار ليست نار،

شخصٍ وإنّما هي نار هذا الكيان، فلا بّد أن يعيش أبناء الكيان جميعاً شعوراً خاصّاً وانفعالاً معيّناً وتضامناً معيّناً في هذا الموضوع.

يجب أن يشعر أي واحد منّا بأن الجسم الواحد إذا قطعت يده اليمنى أو قطعت يده اليسرى، فليس بإمكان اليد الآخرى أن تقول: أنا في أمان لأنني أنا لم أقطع، قطعت اليد الأخرى وأنا لم أقطع، لأن إحدى اليدين إذا قطعت فاليد الأخرى سوف تشل عن العمل في لحظةٍ عاجلةٍ أو آجلة حتماً. إذن فالمسألة مسألة جسم واحد ومسألة كيان واحد ولا بد أن يعيش أبناء هذا الكيان الواحد شعوراً واحداً تجاه الموضوع.

ثم أولئك الذين يواجهون الأحداث وجهاً لوجه يجب أن لا ينهاروا، ألا يفقدوا إرادتهم بين ساعة وأخرى، أن لا يشعروا بأن حل المشكلة هو أن يغادروا أرض الله الطيّبة هنا ويذهبوا إلى أرض أخرى، هذا لا يحلّ المشكلة، هذا هو الذي يجعل الكيان يتفتت، ويجعل هذه الحوزة تنتهي بعمل اختياري لا بعمل قسري، وهذا هو الذي يُلحق أكبر الأضرار بالإسلام والمسلمين.

إن هذا البلد، إن هذه الأرض، إن الإسلام الذي قام باعالتك قام بالانفاق عليك أو عليّ، قام باعالتنا والإنفاق علينا، هذا الإسلام نحن مدينون له بوجودنا، مدينون له بأموالنا، مدينون له بكرامتنا، بعزّتنا، بكل ما نملك من اعتبار. هذا الإسلام إذا كلّفنا أن نقيم على الضيم أسبوعاً أو أسبوعين شهراً أو شهرين، أن نتحمل الأذى في سبيل الله، أن نصمد، أن نصبر في سبيل أن لا يتفتّت، في سبيل أن يواصل وجوده حتى تنكشف هذه الأزمة عن الإسلام والمسلمين. إذا كلفنا ذلك، فليس هذا التكليف بالنسبة إلينا تكليفاً غير طبيعي لأنه هو المحسن الذي كان دائماً يقدم ونحن نأخذ، الذي كان دائماً يتفضل ونحن نستفيد، الذي كان دائماً يسدد ونحن نتمتع بكلّ ما يقدّم لنا من خيرات ومكاسب وجاه عريض.

ما هو جاهنا؟! ما هو اعتبارنا؟ لولا الإسلام؟ بمَ نصول؟ بمَ نجول؟ إلا بالإسلام. بمَ عشنا طيلة هذه المدّة؟ بمَ استقطبنا من قلوب المؤمنين؟

أي واحد منكم لا ينفذ إلى قلب شخص إلاّ عن طريق الإسلام، كل من تجدونه يقدّركم إنما يقدركم على أساس الإسلام، فلا تبيعوا الإسلام بثمن رخيص، لا تبيعوه بانسحاب سريع لا مبرر له، لا يوجد هناك مبرر لمثل هذا الانسحاب إلاّ ذلك الشعور الضيق.

اللهم املأ قلوبنا إيماناً، اللهم اجعلنا على مستوى المسؤولية، اللهم أمددنا بإمدادٍ منك، اللهم اجعلنا نعيش المحنة كما يعيشها المؤمنون الصابرون الصامدون الذين يعيشونها لله لا لأنفسهم.

اللهم ذكّرنا دائماً بأن علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام حينما وقف يقاتل عمرو بن عبدود وحينما عاش لحظة الغضب لنفسه. توقف عن قتل عمرو بن عبد ودّ حتى يرجع إليه غضبه تعالى وحتى يتألم لله. اللهم ذكّرنا بذلك حتى نجعل ألمنا دائماً لك، لا لأنفسنا، للإسلام لا لمصالحنا ،للكيان العام لا لوجودنا.

أسئلة اختبار النوايا:

أنا حينما مرّ بالعراق المدّ الأحمر (الشيوعي) حينما مرّ ذلك المد! الشيوعي بالعراق، كنت ألف مرّة ومرة أمتحن نفسي أوجّه إلى نفسي هذا السؤال:

إني الآن أشعر بألم شديد لأن العراق مهدّد شيوعياً، لكن هل سوف أشعر بنفس هذا الألم وبنفس هذه الدرجة لو أنّ هذا الخطر وجّه إلى إيران بدلاً عن العراق؟! لو وجه إلى باكستان بدلاً عن العراق وإيران؟! لو وجه إلى بلد آخر من بلاد المسلمين الكبرى بدلاً عن هذه البلاد؟!. هل سوف أشعر بنفس الألم أو لا أشعر بنفس الألم؟ أوجّه السؤال إلى نفسي حتى أمتحن نفسي، لأرى أن هذا الألم الذي أعيشه لأجل تغلغل الشيوعية في العراق هل هو ألمٌ لخبرٍ سوف ينقطع عني؟ لمقامٍ شخصي سوف يتهدم؟ لكيان سوف يضيع؟ لأن مصالحي الشخصية مرتبطة بالإسلام إلى حدٍ ما، فهل أن ألمي لأجل أن هذه المصالح الشخصية أصبحت في خطر؟ إذا كان هكذا إذن فسوف يكون ألمي للشيوعية في العراق أشدّ من ألمي للشيوعية في إيران أو أشد من ألمي للشيوعية في باكستان.

وأمّا إذا كان ألمي لله تعالى، إذا كان ألمي لأني أريد أن يُعبد الله في الأرض وأريد أن لا يخرج الناس من دين الله أفواجاً فحينئذٍ سوف أرتفع عن حدود العراق وإيران وباكستان، سوف أعيش لمصالح الإسلام سوف أتفاعل مع الأخطار التي تهدد الإسلام بدرجة واحدة دون فرق بين العراق وإيران وباكستان وبين أرجاء العالم الإسلامي الأخرى.

كلّ واحد منّا يجب أن يحاسب نفسه قبل أن يدخل إلى محاسبه الآخرين يجب أن يتأمل في آلامه في إنفعالاته النفسية هل هي انفعالات الله أو انفعالاته لمصالحه؟! إذا كانت انفعالاته لمصالحه فيجب أن لايرجو من الله حتى الثواب! لأنه هو يتألم لنفسه لا يتألم لله، فلماذا يثيبه الله؟ على ماذا يثيبه الله؟ سوف يكون محروماً حتى من الثواب فضلاً عن الفرج سوف يكون محروماً حتى من الثواب الآجل، أمّا إذا كان ألمه لله حقيقةً،إذا كان انفعاله لله حقيقة، فحينئذ سوف يكون أوسع نفساً سوف يكون أوسع أفقاً سوف ينظر إلى كل العالم الإسلامي إلى كل المسلمين إلى كل المشاكل بنظرة واحدة.

هذه المرجعيّة الموجودة اليوم أُبتليت بمصائب كثيرة قبل اليوم، ابتليت بمحن كبيرة، ابتليت

بمحنة كبيرة قبل بضع سنوات، لكن انظروا هل إنّ درجة التفاعل مع تلك المحنة والمصائب التي ابتليت بها المرجعيّة وابتلي بها الكيان الموجود اليوم كانت واحدة؟ إن بها الكيان الموجود اليوم هل إن درجة التفاعل بها كانت واحدة؟ إن إن الشخص الذي يعيش لله يجب أن يتفاعل مع كل هذه المصائب، مع كل هذه المحن التي يُبتلى بها هذا الكيان بدرجة واحدة، بنحو واحد، سواء أكانت النار موجهة إلى وجهه مباشرة أو موجهة إلى أخيه، أو موجهةً إلى أخيه الآخر.

إنّ تفاوت درجات الانفعال، إن اختلاف موقف الإنسان تجاه هذه المحن، هذا الإختلاف يجب أن يعالجه كل إنسان منا في نفسه لكي يعيش لله، وغفر الله لنا ولكم جميعاً)).

الجانب الموضوعي من المحنة:

كان السيد الشهيد قد وزّع محاضرته على فصلين: الأول ما تقدم من إطلالة على المحنة في فضائها المجتمعي (والحوزوي تحديداً)، فيما خصّص الفصل الثاني لرؤية القرآن لمفهوم وابعاد المحنة، لكنه بقي يدور في الفضاء المجتمعي لها، نظرا لما كانت الحوزة ككيان يمثل موقع الدفاع الأول عن مدرسة الإسلام، تعانيه من هجمة ضارية شرسة، ومن حالات اهتزاز وقلق تهدد الكيان بأسره.

((أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم. وأفضل الصلوات على أفضل النبيين وآله الطيبين الطاهرين.

ظهور الفساد ومظاهره: قلنا: إنّ المفهوم القرآني عن المحنة ـ أي محنة ـ يؤكد أن الجماعة الممتحنة تتحمل مسؤولية وقوع هذه المحنة بما قدّمت من عمل.

حينما يظهر الفساد في البرّ والبحر يقول القرآن الكريم: إنّ هذا الفساد الذي ظهر في البرّ والبحر هو نفس ذاك العمل الذي قدّمه الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلّهم يرجعون.

فالمحنة هي في الواقع تجسيد بشكل مرير للأعمال المسبقة التي قامت بها الجماعة الممتحنة (وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ)[260].هي تجسيد للأعمال التي قدمها الناس أنفسهم هي في نفس الوقت موعظة ونذير من الله سبحانه.

على هذا الأساس قلنا: إنّنا في دراسة الجانب الذاتي من المحنة لا بدّ أن نُقيم أولاً شعورنا تجاه المحنة ـ وهذا ما صنعناه بالأمس ـ ولا بد لنا ثانياً أن نحاسب أنفسنا على ما قدّمنا من عمل، وعلى

(260) الشورى/30.

مساهمتنا في تكوين هذه المحنة، وعلى دورنا الإيجابي في صنعها.

وهنا لا أريد أن أناقش أساليب العمل التي أدت إلى هذه المحنة، ولا أريد أن أتحدث عن الأساليب التي من طبيعتها أن تغيّر من الموقف، بل أريد أن أتحدث قبل ذلك عن (الأرضية النفسية) لهذه الأساليب. قبل أن أتحدث عن (الأسلوب).. عن (العامل).. نتحدث عن الأرضية النفسية لأساليب العمل.

فإن منطلق المصيبة والمحنة هو تلك الأرضيّة النفسية التي عشناها طيلة الزمن الذي تقدّم وسبق هذه المحن.هذه الأرضية النفسية لم تكن أرضية صالحة لكي تنشأ ضمنها أساليب العمل الصالحة ولكي تؤتي هذه الأساليب ثمارها.

عوامل الأرضية النفسية: هذه الأرضية النفسية التي عشناها والتي كانت ولا تزال تساهم في خلق المشاكل في طريقنا وفي تكوين المحن في وجوهنا ،هذه الأرضية النفسية أستطيع أن أرجعها بالتحليل إلى عاملين نفسيين أساسيين مراتبطين كلّ الارتباط فيما بينهما:

العامل الأول: هو عدم الشعور التفصيلي بالأرتباط بالله تعالى. والعامل الثاني: هو أنّ (الأخلاقية) التي كنّا نعيشها ليست أخلاقية الإنسان العامل، بل هي أخلاقية إنسانٍ آخر لا يصلح للعمل الحقيقي.

وإذا كنّا نريد أن نستفيد من هذه المحنة وإذا كنّا جادين في الحساب، فلا بدّ أن نرجع إلى هذين العاملين الأساسيين لكي نستطيع أن نتيح لأنفسنا فرصة التكفير عمّا سبق بالنسبة إلى كل من هذين العاملين: عامل: (عدم الشعور بالاتصال بالله بالدرجة الكافية) وعامل: (أخلاقيّة الإنسان اللاعامل).

العامل الأول: هو عدم الشعور التفصيلي بالأرتباط بالله تعالى

بالنسبة إلى عدم الشعور التفصيلي بالاتصال بالله سبحانه وتعالى، فهذا ما يقع عادة وعلى مرّ الزمن في حياة الطالب الاعتيادي الذي يهاجر من بلده ويأتي إلى هنا متحملاً آلام الغربة، وآلام السفر، وآلام الوحشة، وآلام فراق الأحبة والأهل والوطن، كل هذا التحمل يكون في اللحظة الأولى قائماً على أساس شعور تفصيلي يشدّه إلى الله تعالى يشعر بأن هذه القوة هي التي تجذبه وتنتزعه من أهله ووطنه وبلده، ومن أحبته، لكي يهاجر إلى الله ويتعلم على يد ورثة الأنبياء، ثم يواصل خطّ الأنبياء، ولكن بعد أن يدخل إلى إطار هذه الحوزة ويكون هذا الشعور التفصيلي موجوداً في نفسه .. بعد أن يدخل إلى إطار هذه الحوزة فينخرط في مناهجها ويسلك مسالكها ويعيش دروبها، بعد هذا تنتقل بالتدريج، تتضائل بالتدريج، جذوة شعوره بالاتصال بالله تعالى، بينما كان من المفروض أن هذه الجذوة

تنمو بالتدريج بدلاً عن أن تخمد أو أن تتضاءل، لأنه حينما يأتي إلى الحوزة لا يعيش تطبيقاً حياً لهذا الاتصال بالله تعالى، وإنما يعيش على أفضل تقدير دروساً معينة ومناهج معيّنة هي في حدود كونها مفاهيم وأفكاراً لا تغذّي هذا الشعور، فيبقى هناك فراغ نفسي كبير في قلبه في وجدانه وفي ضميره، هذا الفراغ النفسي الكبير لا يمكن أن يُملأ بمطالب من الفقه والأصول، لأنّ مطالب الفقه والأصول تملأ عقل الإنسان ولكنها لا تملأ ضميره ولا تملأ وجدانه، سوف يمتلئ عقله علماً ، لكن من الجائز أن ضميره ووجدانه سوف يبقى فارغاً كما كان فارغاً حينما كان ابن القرية أو ابن المدرسة أو ابن المعمل الذي جاء إلى هذه الحوزة، وهذا الفراغ في الضمير والوجدان الذي يعيشه هذا الإنسان، حتى إذا أصبح ثرياً من الناحية العقلية، هذا الفراغ سوف يُميّع بالتدريج شعورَه بالارتباط بالله لأن هذا الشعور لن يجد ما ينميّه وما يغذّيه لا نظرياً ولا علمياً.

أمّا نظرياً، فلأنه لا يأخذ من النظريات إلا ما يرتبط باستنباط الأحكام الشرعية، والنظريات التي يستنبط على أساسها الحكم الشرعي غذاء للعقل لا الوجدان والضمير.

وأمّا عملياً، فلأنه لا يعيش تجربةً للاتصال بالله تعالى، لا يعيش (حياةً عملية)، وإنما يعيش (حياة مدرسية) خالصة. وهذه الحياة المدرسية الخالصة التي يعيشها كثيراً ما تكون مشوبة أيضاً بالمبعّدات عن الله تعالى، وقد تكون أحياناً مشوبة بكثير من الذنوب التي تبعد الإنسان عن الله تعالى وتميّع صلته به فما يمضي عليه برهة من الزمن حتى تكون جذوة ذلك الشعور التفصيلي قد انطفأت، بعد أن تكون قد تحولت إلى (ارتكاز)، ففي بداية الأمر يتحول شعوره التفصيلي إلى شعور مبهمٍ غامضٍ يختفي في الأعماق وتتراكم عليه مشاعر أخرى لا ترتبط بالله. هذه المشاعر الأخرى ُستورد من البيئة، من أهواء البيئة، من طبيعة البيئة، من الملابسات والتعقيدات غير الصالحة التي يعيشها في البيئة.

تتراكم هذه المشاعر الثانوية غير الطاهرة، ويبقى ذاك الشعور النظيف في الأعماق شعوراً مبهماً غامضاً باهتاً، ثم بعد مضي زمن يتلاشى ذلك الشعور، يتلاشى حتى كقاعدة، ويتمزّق، ويعوّض عنه شعورٌ آخر بعد أن يكون هذا الطالب قد قضى مرحلة طويلة من حياته العلمية، بعد أن يكون قد أصبح مهيّئاً من الناحية العلمية لكي يجسّد ذلك الشعور في عمله، في جهاده، في تطبيقه، بعد أن يكون قد وصل إلى المرحلة التي يكون مدعواً فيها إلى المساهمة في خدمة الدين ،يكون قد فرغ وجدانه وضميره نهائياً من ذلك الشعور الذي عاشه وهو في طريقه من القرية إلى النجف، وهو في طريقه من المدينة إلى النجف، تلك الأحلام والآمال، تلك التصورات الكبيرة الضخمة الروحية التي كان يعيشها وهو في طريقة إلى المهجر العظيم، تلك التصورات تعود كلّها خواءً، تصبح كلّها فراغاً ، لأنها بعد أن جمدت وأصبحت

شعوراً إجمالياً، تكون قد فقدت أي غذاء وإمداد متّصل، حتى تمزقت. وهذا هو معنى (نسيان الله) تعالى، وأنتم كلّكم تعرفون أن من ينسى الله ينساه الله، و من ينقطع عن الله ينقطع عنه الله سبحانه وتعالى، ألم يقل الله: ((صانع وجهاً واحداً يكفيك الوجود كلها)). (كما في الحديث القدسيّ).

نحن اليوم نرى أن الوجوهَ كلها ساخطة علينا متبرمة بنا، إنما كانت ساخطة علينا متبرمة بنا لأننا لم نصانع وجهاً واحداً حتى يكفينا ذاك الوجه الواحد الوجوه كلّها، نحن لم نشعر خلال حياتنا العمليّة بأننا مرتبطون إرتباطاً حقيقياً بالله تعالى، وإننا مدعون من قبله سبحانه وتعالى إلى بذل كلّ وجودنا وإمكانياتنا في سبيله، هذا الشعور حيث أننا لم نعشه، لم نصانع وجهاً واحداً يكفينا الوجوه كلها أفضلُنا، اشطرنا، هو من صرف قواه وطاقاته في سبيل أن يصانع هذا الوجه، وعملية اصطناع الوجوه بشكل فردي لا يمكن أن تؤدي إلاّ إلى نتيجة فردية، وأما من صانع ذلك الوجه العظيم الذي بيده ملكوت السماوات والأرض فهو القادر على أن يكفيه الوجوه كلها.

الأئمة عليهم أفضل الصلاة والسلام بالرغم من أنّهم كانوا مضطهدين من قبل سلاطين وقتهم، وكانوا دائماً يعيشون المحنة من حكام زمانهم، بالرغم من أن أجهزة تلك الحكومات كانت كلها تقوم على أساس الدعاية ضدّهم وعلى أساس نشر المفاهيم المعاكسة لخطّهم، بالرغم من أنهم سُبّوا على منابر المسلمين ألف شهر، بالرغم من كل الطاقات التي بذلت من قبل سلاطين الوقت في سبيل تمييعهم وفي سبيل فصل قواعدهم الشعبية عنهم، بالرغم من كل ذلك نرى أن علي بن الحسين حينما يأتي عليه الصلاة والسلام ليستلم الحجر الأسود ينفرج هؤلاء المسلمون أنفسهم بين يديه، بينما لم يكونوا ينفرجون أمام سلطان من أولئك السلاطين الذين كان ينتظر طريقه إلى الحجر فلا يجده، لماذا؟ لأن علي بن الحسين صانع وجهاً واحداً فكفاه الوجوه كلّها.

لا تقولوا: أن (الناس على دين ملوكهم) لأن الملوك وقتئذ ماذا كان موقفهم من علي بن الحسين؟ أكان يحمل مفهوماً صحيحاً أو يبشّر بمفهوم صحيح عن علي بن الحسين؟ لكن الناس أنفسهم كانوا مجذوبين إلى الإمام علي بن الحسين لأنه كان يعيش بكل وجوده حالة الاتصال بالله، وهذه الحالة بالرغم من أنها (كمال الإنسان) هي بحد ذاتها (طاقة للنجاح) في خط العمل لأن هذا الاتصال بالله سوف يضع قاعدة لما سنتحدث عنه بعد قليل من (أخلاقية الإنسان العامل).

أخلاقية الإنسان العامل لا يمكن أن تتكون عند الإنسان إلا إذا كان يعيش حالة الإتصال بالله سبحانه وتعالى عيشاً تفصيليّا، إضافة إلى ذلك، فإن هذا الإتصال بالله يجعل الإنسان قادراً على أن يدعو ويترقب من الله الإستجابة، أمّا إذا كان قد نسي الله تعالى أيام رخائه، ترك الله ودينه، تركه ومحنته، تركه ومشاكل رسالته، وكان لا يفكر في الله، وكان يفكر في نفسه لا في الله، حينئذ كيف يمكن أن يرجو هذا

الإنسان أن يمدّ يديه إلى السماء (حينما يقع في محنة) فيستجيب الله دعاءه؟

ولماذا يستجيب الله دعاءه؟ ولماذا يستمع إلى لسانٍ لم يلهج بذكر الله؟ وإلى يدين لم تتحركا في إطاعة الله؟ وإلى قلبٍ لم ينبض بالحب لله تعالى؟

نحن لا يمكننا أن نترقب استجابة الدعاء إلاَّ إذا كنّا نعيش حالة الإتصال بالله، وكنّا قد عبّأنا وجودنا وقوانا لله سبحانه وتعالى حينئذ يمكن أن نطلب من الله سبحانه وتعالى الإمداد والمعونة والتغلب على كل المشاكل والمحن.

يوسف بن تاشفين .. نموذج الارتباط التفصيلي بالله:

المسلمون في إسبانيا حينما تعرضوا في القرن الخامس لغزوٍ مسيحي من قبل إسبانيا المسيحية، حينما تعرضوا لهذا الغزو، استنجدوا بأمير المغرب (يوسف بن تاشفين). يوسف بن تاشفين هذا قام مع جيشٍ جرار عَبَر البحر إلى إسبانيا لكي ينقذ المسلمين هناك من الغزو المسيحي الذي كان يهدد كيانهم.

تقول القصة: إن (يوسف تاشفين) حينما نزل البحر مع كل اسطوله وجيشه تحرك ماء البحر وهبّت عاصفة شديدة جداً كادت أن تقضّي على الأسطول. حينئذ وقف يوسف بن تاشفين في وسط جيشه ورفع يديه إلى الله سبحانه وتعالى قال ما مضمونه: ياربّ أنت تعلم أنّي لم أترك بلادي، لم أترك أرضي لم أعبر هذا البحر، لم أقرر أن أطوي هذه المسافة من قارة إلى قارة (من أفريقيا إلى أوروبا) .. لم أتحمّل خطرَ الموت على نفسي، على أهلي، على ولدي، على جيشي، خطر تفتّت مملكتي هناك، لم أتحمّل كلّ هذه الأخطار إلاّ في سبيل حماية دينك ورسالتك في إسبانيا، و في سبيل الحفاظ على المسلمين وعلى الوجود الإسلامي في أوروبا، في سبيل ذلك قمت. اللهم فإن كنت تعلم أنّي حسن النيّة في ذلك، وإن كنت تعلم أن وصولي إلى اسبانيا إلى الشاطئ فيه خير للإسلام والمسلمين، اللهم فأسكن عنّا هذه العاصفة وأزلها عنّا.

يوسف بن تاشفين لم يكن إماماً، أنا أمثّل بيوسف بن تاشفين لأنّه شخص من الناس لا يمكن أن يقال: أنه أفضل من أي واحد من عندنا بحسب الموازين الاعتيادية، ليس هو الإمام علي (عليه السلام)، ليس هو الإمام الحسين(عليه السلام)، ليس هو أحد المعصومين (عليهم السلام) هو إنسان من المسلمين، لكن هذا الإنسان من المسلمين وضع كل قواه في سبيل الله تعالى، هاجر من بلده في سبيل الله تعالى، كان يشعر شعوراً تفصيلياً بالاتصال بالله تعالى، هذا الشعور التفصيلي بالاتصال بالله تعالى جعل من حقه أن يدعو، وجعل من حقه أن يتوقع الاستجابة من الله تعالى.

تقول الرواية التاريخية: ما أتمّ الأمير يوسف حديثه ودعاءه مع الله تعالى، إلاّ وسكن البحر، وهدأت العاصفة، وتغيّرت كلّ الملابسات إلى صالح السفرة حتى وصل يوسف بن تاشفين سالماً إلى الشاطئ واستطاع أن يقضي على الغزو المسيحي ويؤخر من مأساة الإسلام في إسبانيا أربعة قرون.

بقي الإسلام أربعمائة سنة بعد هذا الحادث بعد غزو يوسف بن تاشفين للمسيحين الذين كانوا مجاورين للأندلس.

ثم بعد أربعمائة سنة، كان المسلمون هم المسلمون، كانوا يشهدون أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً رسول الله، كما كان يشهد المسلمون في عصر يوسف بن تاشفين. ولكنهم كانوا قد نسوا الله تعالى وانقطعوا عنه. انصرفوا إلى لهوهم وفسقهم وتراكمت في حياتهم الذنوب، لم يكونوا يعيشون لله تعالى. بعد أربعمائة سنة اضطر ملك المسلمين في غرناطة البلد الأخير الذي بقي للمسلمين في اسبانيا، اضطر إلى توقيع وثيقة الإستسلام إلى توقيع وثيقة التنازل عن الإسلام والوجود الإسلامي إلى توقيع (وثيقه فناء الإسلام في كل اسبانيا) اضطر إلى توقيع هذه الوثيقة.

تقول الرواية: إنه قبل أن يوقع هذا الملك المسكين التعيس وثيقة إعدامه وإعدام دينه وعقيدته وأمته في ذلك البلد نثر نثرة. ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فضجّ الأمراء الذين كانوا حوله قائلين: أشهد أن لا إله الإلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. قال: ولكن لا راد لقضاء الله ولا رادّ لأمر الله تعالى. ثم وقع على هذه الوثيقة التي أدت إلى فناء الإسلام في إسبانيا.

هل كانوا مسلمين؟ نعم كانوا مسلمين؟ كانوا يريدون أن يؤكدوا إسلامهم في آخر لحظة!

وقّع (محمد الصغير المكنّى بأبي عبد الله) على وثيقة إعدام الإسلام وتشهد الشهادتين حينما وقع على هذه الوثيقة!

لكن ما قيمة هاتين الشهادتين؟! إنّه لم يذكر الشهادتين إلا حينما واجه خطر هذه الوثيقة، إلا حينما أصبح ملكه وسلطانه كلّه في غمرة هذا الخطر.

كان هذا الرجل نفسه، وكان غيره من الأمراء المحيطين به يعيشون حالة التفتت والتناقض والإنشغال بأمورهم عن الله إلى اليوم الأخير من حياتهم، لهذا لم ينفعهم شعورهم بالاتصال بالله في اللحظة الأخيرة في لحظة الغرق .. لم ينفعهم.

لابدَّ من أن يعيش الإنسان خطه الطويل متصلاً بالله تعالى حتى يمكنه أن يترقب من الله الاستجابة لدعائه .. الإمداد والمعونة والمساندة والمعاضدة له في عمله.

العامل الثاني: هو (الأخلاقية) أخلاقية الإنسان العامل

أخلاقيتنا التي نعيشها لم تكن أخلاقية الإنسان العامل: هناك مظاهر أساسية للأخلاقية التي كنا نعيشها، وهذه المظاهر هي أبعد ما تكون عن أخلاقية الإنسان العامل الذي يريد أن يحمل رسالة الله والذي يريد أن يمثل الأنبياء على الأرض هذه الأخلاقية لا بدّ لنا أن نطورها بأنفسنا، لا بدّ لنا أن نغير هذه الأخلاقية ونفتح بالتدريج أخلاقية الإنسان العامل لكي نهيء النفسية التي يُقام على أساسها العمل الصحيح.

الأخلاقية التي كنا نعيشها، من نقاطها (سماتها) الرئيسة، الإرتباط بالمصلحة الشخصية بدلاً عن الإستعداد للتضحية. نحن بحاجة إلى أخلاقية التضحية بدلاً عن أخلاقية المصلحة الشخصية، نحن بحاجة إلى أن نكون على اهبة إيثار المصلحة العامة للكيان على المصلحة الخاصة لهذا الفرد أو لذاك الفرد، نحن لا بد لنا من أخلاقية التضحية بالمصالح الخاصة في سبيل المصالح العامة، أما ما كنا نعيشه، أما ما كان موجوداً فهو على الغالب إيثار للمصلحة الخاصة على المصلحة العامة.

كنا نعيش لمصالحنا، وكنا لا نعيش للمصلحة العامة حينما تتعارض مع مصالحنا الخاصة.

هذه النزعة الأخلاقية التي تتجه نحو المصلحة الخاصة لا نحو المصلحة العامة، تجعل القدر الأكبر من طاقاتنا وقوانا وإمكانياتنا خصوصاً في جو من قبيل جو الحوزة، في جو غير منظّم، في جو لا بدّ لكل إنسان أن يبني نفسه بنفسه إذا عاش الناس دائماً عقلية المصلحة الخاصة ولم يكن عندهم أخلاقية التضحية بالمصلحة الخاصة في سبيل المصلحة العامة فسوف يصرف القدر الأكبر من الطاقات والإمكانيات والقابليات في سبيل تدعيم المصالح الخاصة، أو في سبيل الدفاع عن هذه المصالح الخاصة.

حينما تتحول الاتجاهات من المصلحة العامة إلى المصلحة الخاصة سوف يضطر كل إنسان يعيش في جو عامر بهذا الاتجاه، سوف يضطر كل إنسان إلى التفكير في نفسه، وإلى الدفاع عن نفسه، وإلى تثبيت نفسه، وبذلك نصرف ثمانين بالمائة من قوانا وطاقاتنا بالمعارك داخل الإطار.

بينما هذه الثمانون بالمائة من القوى والطاقات التي تُصرف في معارك داخل الإطار كان بالإمكان، لو أننا نتحلى بأخلاقية الإنسان العامل، لو كنّا نتحلى بأخلاقية التضحية بالمصلحة الخاصة في سبيل

المصلحة العامة، أن نحوّل هذه الثمانين بالمائة للعمل في سبيل الله، للعمل بتدعيم الإطار ككل، لترسيخه، لتكريسه، لتوسيعه.

وبذلك كنا نستفيد أيضاً ـ لو كنّا نعقل ـ لكنّا نستفيد حتى بحساب المقاييس العاجلة أيضاً أكثر مما نستفيد ونحن نتنازع ونختلف داخل إطار معرّض لخطر التمزّق، داخل إطار مهدد بالفناء.

إلى متى نحن نعيش (المعركة داخل إطار يُحكم عليه بالفناء) يوماً بعد يوم، أو يواجه خطر الفناء يوماً بعد يوم، ولا نفكر في نفس الإطار؟ ولا نفكر في أن نتناسى مصالحنا الصغيرة في سبيل المصلحة الكبيرة.

أخلاقية الإنسان العامل أول شروطها هو أن يكون عند الإنسان شعور واستعداد بالتضحية بالمصلحة الصغيرة في سبيل المصلحة الكبيرة وهذا ما لا بدّ لنا من ترويض أنفسنا عليه.

تجديد أساليب العمل: المظهر الثاني من مظاهر أخلاقية الإنسان العامل: الإتجاه إلى التجديد في أساليب العمل (نزعة التجديد في أساليب العمل).

نحن عندنا (نظرية) وعندنا (عمل):

النظرية هي الإسلام ولا شك ولا ريب أن ديننا ثابت لا يتغير ولا يتجدد ولا يمكن في يوم من الأيام أن يفترض كون هذا الدين بحاجة إلى تغيير أو تحوير أو تطوير، لأن هذا الدين هو أشرف رسالات السماء وخاتم تلك الأديان الذي ارتضاه الله تبارك وتعالى للإنسان في كل مكانٍ وفي كل زمان، ولهذا فإنّ الصيغة النظرية للرسالة صيغة ثابتة لا تتغير ولا يمكن أن نؤمن فيها بالتجدد.

من الخطأ ألف مرة أن نقول: إن الإسلام يتكيف وفق الزمان، الإسلام فوق الزمان والمكان لأنه من وضع الذي خلق الزمان والمكان فقد قدّر لهذه الرسالة القدرة على الإمتداد مهما امتدّ المكان والزمان.

الصيغة النظرية للإسلام صيغة ثابتة فوق التجدد وفوق التغيّر، ولا بدّ لها هي أن تحكم كل عوامل التغيّر وكل عوامل التجدّد، لا أن عوامل التجدّد والتغيّر تحكم الإسلام بل الإسلام يحكم على كل عوامل التجدد. هذا أمر واضح على مستوى النظرية ولا بدّ أن يكون واضحاً عندنا جميعاً.

التحرّر من النزعة الاستصحابيّة:

وأمّا العمل في سبيل هذه النظرية، أساليب العمل الخارجي، فقد كانت لدينا حالة أستطيع أن أسمّيها الاستصحابية لأساليب العمل (حالة النزعة الاستصحابية) الاستصحاب الذي قرأناه في الأصول طبّقناه في أساليب العمل، وطبّقناه على حياتنا ،فكنّا نتجه دائماً إلى ما كان، ولا نفكّر أبداً في أنه هل بالإمكان أن يكون أفضل ممّا كان؟

وهذه النزعة الاستصحابية إلى ما كان والحفاظ على ما كان تجعلنا غير صالحين لمواصلة مسؤولياتنا وذلك لأن أساليب العمل ترتبط بالعالم، ترتبط بمنطقة العمل وترتبط بالبستان الذي نريد أن نزرع فيه، وهذا البستان هو الأمّة التي تريد أن نزرع فيها الخير والتقوى والورع والإيمان. هذه الأمة ليست لها حالة واحدة، فهي، تتغير نعم إسلامك لا يتغير، لكن الأمة تتغير، اليوم غير الأمة بالأمس في مستواها الفكري وفي مستواها الأخلاقي وفي علائقها الاجتماعية وفي أوضاعها الاقتصادية وفي كل ظروفها، الأمة اليوم غير الأمة بالأمس.

الأمة اليوم حيث أنها غير الأمة بالأمس لا يجوز لك أن تتعامل معها اليوم كما كنت تتعامل معها بالأمس، أنت اليوم حينما تريد أن تتصل بإنسان من أبناء الأمة في بلدٍ آخر لا تمشي على رجليك ولا تركب حيواناً وإنما تركب سيارة لكي تصل إلى هناك، يعني أنك تغير أساليب عملك، فلماذا لاتغيرها مع أبناء الأمة، لماذا؟ الأمة تغيرت، وحيث أن منطقة العمل (مجاله) هي الأمة، وحيث إنك تريد أن تأخذ بعين الاعتبار الظروف والتغيرات والتصورات التي توجد في الأمة، فإنّ هذه التصورات والتغيرات التي توجد في الأمة تحدد لنا أساليب العمل وليس بالإمكان أن يكون هناك أسلوب واحد يصدق على الأمة اليوم وعلى الأمة بالامس وعلى الامة غدا!

لا بد لنا أن نتحرر من النزعة الإستصحابية، من نزعة التمسك بما كان حرفيّاً بالنسبة إلى كل أساليب العمل. هذه النزعة التي تبلغ القمة عند بعضنا، ولأضرب أبسط الأمثلة حتى أن كتاباً دراسياً مثلاً إذا أريد تغييره إلى كتاب دراسي آخر أفضل منه، حينئذ تقف هذه النزعة الاستصحابية في مقابل ذلك إذا أريد تغيير كتاب بكتاب آخر في مجال التدريس، وهذا أضأل مظاهر التغيير ـ إذا أريد ذلك حينئذ ـ يقال: لا ليس الأمر هكذا لا بدَّ من الوقوف، لا بدَّ من الثبات والاستمرار على نفس الكتاب الذي كان يدرّس فيه (الشيخ الأنصاري رضوان الله عليه) أو (المحقق القمّى رضوان الله عليه.)

هذه النزعة الاستصحابية التي تجعلنا دائماً نعيش مع أمة قد مضى وقتها، مع أمّة قد ماتت وانتهت بظروفها وملابساتها، لأننا نعيش بأساليب منسجمة مع أمة (سلفت) تلك الأمة لم يبق منها أحد

تلك انتهت وحدثت أمة أخرى ذات أفكار أخرى، ذات اتجاهات أخرى، ذات ظروف وملابسات أخرى، فحينئذ من الطبيعي أن لا نوفق في العمل لأننا نتعامل مع أمة ماتت والأمة الحيّة لا نتعامل معها، فمهما يكن من تأثيرنا سوف يكون هذا التأثير سلبياً لأن الموضوع غير موجود في الخارج، موضوع العمل ميت، وما هو الموجود في الخارج لا نتعامل معه.

يجب أن يكون واضحاً عندنا أننا يجب أن نتعامل مع هذا الإنسان الحيّ الموجود في الخارج المكون من اللحم والدم، هذا الإنسان الحي الموجود في الخارج يتغير يتطوّر تختلف ظروفه وملابساته لا بدَّ دئماً أن نفكر في الأساليب التي تنسجم مع هذا الإنسان.

الشهيد الأول قبل قرون وقرون ـ كما قلنا بالأمس ـ فكر في تنظيم شؤون الدين والمرجعية بشكل من الأشكال كما قلنا، ونقل الكيان الديني من مرحلة إلى مرحلة.

لكن أليس بالإمكان أن يفكّر مئات العلماء الذين جاءوا بعد الشهيد الأول إلى الآن ومئات العلماء الموجودين فعلاً، ومئات العلماء الذين سوف يخلفون هؤلاء العلماء بعد ذلك أليس بالإمكان أن يفكّر هؤلاء المئات في تطوير أساليب الشهيد الأول؟ في تحسينها في تنقيتها في تطويرها؟

أليس بالإمكان هذا؟

فكّر الشهيد الأول في أن يضع قواعد لهذه المرجعية، لكن هذه القواعد أهي هي؟ لا بدَّ أن تبقى بحدودها التي كانت في أيام المماليك؟ تلك الحدود التي كانت في أيام المماليك في سوريا هل تصدق على ما هو موجود اليوم في العالم مع تغير العالم، اليوم ليس عالم المماليك؟

فإذا كنّا نؤمن بأنّ الأساليب تتغيّر وإن كانت النظرية ثابتة، إذن فلا بدّ لنا أن نفتح باباً للتفكير في هذه الأساليب كما نفكر في النظريات الفقهية والنظريات الأصولية كما نفكّر في (الترتب) وفي بحث (اجتماع الأمر والنهي) كما نفكر في أن العصير العنبي هل هو محكوم عليه بالحرمة أو النجاسة أو غير محكوم عليه بالحرمة والنجاسة.. كذلك لا بد أن نفكر إلى جانب ذلك بأساليب العمل.

هذا جزء من وظيفتنا لأننا ندرس العلم للعمل ولا ندرس العلم لكي نجمده في رؤوسنا، نحن ورثة الأنبياء بحسب زعمنا، والأنبياء عاملون قبل أن يكونوا علماء لكي يكونوا عاملين وليسوا عالمين من دون عمل، فإذا كنّا نحن ورثة الأنبياء فيجب علينا أن نفكر في أننا عالمون لكي نعمل لا أننا عالمون لكي نعلم، فإذا كنّا عالمين لكي نعمل فلا بدّ أن نجعل جزءاً من وظيفتنا أن نطرح في كل مكان هذه الأسئلة:

ما هو العمل؟ كيف نعمل؟ ما هي أساليب العمل؟ كيف يمكن تجديد أساليب العمل بالشكل الذي ينسجم مع الأمّة اليوم؟ نحن نتعامل مع عالم اليوم لا مع عالم المماليك إذن كيف نتعامل مع عالم اليوم؟

هذه الأسئلة قد يكون جوابها صعباً في بداية الأمر لأنّه ليس هناك مطالعات، ليس هنا ترويض فكري على الجواب عنها قد تجد أن الجواب عن مسألة أصولية سهل لأن هذا الإنسان الذي تسأله قد درس الأصول عشرين سنة. وأن مثل هذه الأسئلة حيث إنها بنفسها أيضاً أسئلة دقيقة ومرتبطة بمدى خبرة الإنسان وتجاربه واطلاعه على ظروف العالم لهذا قد يجد الصعوبة في الجواب عن هذه الأسئلة لكن هذه الصعوبة لا بدّ من تذليلها بالبحث والتفكير ومواصلة البحث والتفكير. إذن فلا بدّ أن نجعل جزءاً من وظيفتنا أن نفكر دائماً في أنه كيف نغير أساليب العمل كيف ننسجم مع بيئتنا.

لماذا تعيش الحوزة في هذا البلد مئات السنين ثم بعد هذا يظهر إفلاسها في نفس هذا البلد الذي تعيش فيه في نفس هذا البلد، وإذا بأبناء هذا البلد أو ببعض أبناء هذا البلد يظهرون بمظهر الأعداء والحاقدين والحاسدين والمتربصين بهذه الحوزة؟

ألا تفكرون في أنّ هذه هي جريمتنا قبل أن تكون جريمتهم؟ في أن هذه هي مسؤوليتنا قبل أن تكون مسؤوليتهم؟ لأننا لم نتعامل معهم.

نحن تعاملنا مع أجدادهم ولم نتعامل معهم، فهذه الأجيال التي تحقد علينا اليوم التي تتربص بنا اليوم، تشعر بأننا نتعامل مع الموتى لا نتعامل مع الأحياء، ولهذا يحقدون علينا ولهذا يتربصون بنا لأننا لم نقدم لهم شيئاً ، لأننا لم نتفاعل معهم.

أنا منذ سنة، منذ أكثر من سنة أتحدث مع الإخوان ومع الأعزاء في أنّ كل واحد من أهل العلم كلّ واحد يكون عنده قدرة لو يكوّن له مجلساً تبليغياً في النجف الأشرف يضمّ خمسة فقط لا أكثر من خمسة يضم هذا البقال الذي يشتري منه اللبن. هذا العطار الذي يشتري منه سكراً، هذا الجار الذي يسلّم عليه عندما يخرج من بيته، يضم خمسة من هؤلاء لو كان لكل واحد من أهل العلم مجلس تبليغي في يوم الجمعة بدلاً عن أن يذهب إلى شط (الكوفة) ويسبح فيه من الصبح إلى العصر بدلاً عن أن يبذر الوقت بالمطاردة في الشعر، بدلاً عن أن يبذّر الوقت في ألف لهو ولهو بدلاً عن كل ذلك ، لو أنه يستثمر جزءاً من هذا الوقت الذي يهدره لا في غرض معقول، لو يستثمر جزءاً من هذا الوقت في تكوين (مجلس تبليغي) لخمسة من أبناء النجف، لو أن ألفاً من الطلبة لكل واحد منهم مجلس تبليغي

لخمسة، لكان لدينا قاعدة شعبية مكونة من خمسة آلاف ولأحس الناس من أبناء البلد بأننا نتعامل معهم، إننا نفكر فيهم، إننا نعطيهم، أن وجودنا مرتبط بوجودهم إن حياتنا مصدر خير لهم مصدر عطاء لهم، لكننا لم نتعامل معهم ومن الطبيعي أن لا يتعاملوا معنا إذا كنا لا نتعامل معهم.

إذن لا بدَّ لنا أن نفكر في تغيير أساليب العمل، ولا بدَّ لنا دائماً أن نفكر في الأساليب الأفضل والأصح.

بقيت هناك نقطة آخرى متمّمة لهذه النقطة لا بدّ لي من إثارتها وأظن أن الوقت انتهى أقولها على نحو الإختصار وهي:

إننا حينما نفكر في أساليب العمل يجب أن لا نفكر في أساليب العمل بعقلية الأصول والفقه، يجب أن لا نفكر في أساليب العمل بعقلية (الترتب) واستحالة اجتماع الامر والنهي وبعقلية رياضية.

العقليتان: الرياضية والاجتماعية:

هناك (عقلية رياضية)، وهناك (عقلية اجتماعية)، يوجد نوعان من التفكير تفكير رياضي وتفكير اجتماعي.

التفكير الرياضي: هو التفكير الذي لا يقبل حقيقة من الحقائق إلا إذا كانت كلّ نقاط الضعف فيها قد أزيلت بالبرهان القوي الواضح الذي لا يقبل الشك والجدل فإذا كانت النتيجة الرياضية واضحة بعد التحليل على مستوى أن اثنين زائداً اثنين يساوي أربعة حينئذ تُقبل، وأمّا إذا لم يكن البرهان الواضح القاطع على صحتها فلا تقبل.

هذا هو التفكير الرياضي، وهو التفكير الذي نعيشه في علم الأصول لأن كثيراً من قواعد علم الأصول يبنى على أساس البرهنة لكنّ هذا التفكير يختلف عن التفكير الاجتماعي التفكير الاجتماعي لا يمكن أن نطلب فيه البرهان. لنرجع مرة أخرى إلى ذاك المثال الساذج البسيط حينما نريد أن نغير كتاباً دراسياً بكتاب آخر لا يمكن أن نطلب في مقام الاقتناع برهاناً رياضياً بأن أبرهن لك على انه لو لم يدرس ذاك الكتاب لوقع إجتماع النقيضين، وأما لو درّس هذا الكتاب فلا يقع اجتماع النقيضين، مثل هذا البرهان الرياضي لا يمكن أن يكون في العمل الإجتماعي. العمل الإجتماعي يقوم على أساس (الحدس الإجتماعي) والحدس الإجتماعي يتكون من الخبرة والتجربة ومن الإطلاع على ظروف العالم وملابسات العالم.

إذن يجب أن نفتح أعيننا على العالم،يجب أن نعيش الخبرة والتجربة في العالم، يجب أن نفكر في أساليب العمل لا بالطريقة التي نفكر فيها في أساليب الأصول الطريقة المفضلة في التفكير الأصولي، أن نجلس في غرفة خالية ونقفل باب الغرفة ثم نفكر في أن الترتب مستحيل أو ممكن، لأنها مسألة نظرية تنبع من واقع الأمر لا تنبع من الخارج.

وأمّا العمل الإجتماعي فيحتاج إلى حدس إجتماعي والحدس الإجتماعي يتكون من خلال التفاعل مع الناس والاطلاع على ظروف العالم من خلال الإطلاع على الملابسات وعلى التجارب التي قام بها الآخرون من خلال المقارنة بين أحوالنا وأحوال الآخرين من خلال كل ذلك يتكون هذا الحدس الإجتماعي إذن فلكي نكون متجهين إتجاهاً صحيحاً في تفكيرنا في أساليب العمل يجب أن نغير من طريقة تفكيرنا يعني أن لا نصطنع نفس الطريقة الأصولية حينما نفكر في أساليب العمل.

وإنما نعتمد على الحدس الإجتماعي ونفتش عن كيفية تكوين هذا الحدس في أذهاننا عن طريق تعميق خبراتنا وتجاربنا، ووفقنا الله وإياكم وغفر الله لنا ولكم وآخر دعوانا أن الحمد الله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وأله الطيبين الطاهرين)).

الملحق رقم (2)

"حبُّ الدنيا" رأسُ كلّ خطيئة!

في يوم الأربعاء 4/ رجب، 1399هـ 31/5/1979 م وبعد فراغ الشهيد السيد محمد باقر الصدر (رضي الله عنه) من سلسلة محاضراته في (التفسير الموضوعي)، خصّص القسم الأكبر من محاضرته الأخيرة لدرس أخلاقيّ عرف في أوساط التداول التداول بمحاضرة (حبّ الدنيا).

وكما ستبقى محاضرته في (المحنة) حيّة متفجّرة، ستبقى محاضرته في (حب الدنيا) حيّة متدفّقة، فنحن نقرأ في الأولى عقل و فكر السيد الصدر ذا القابلية على مداومة العطاء، مثلما نقرأ في الثانية قلبَه وروحه التي تسري في كل كلمة ونبضة ودفقة.

الدخول إلى منطقة الوجدان:

((وننصرف الآن من منطقة الفكر إلى منطقة القلب، من منطقة العقل إلى منطقة الوجدان، خاصّة إنّ هذا اليوم هو اليوم الأخير وسوف أودعكم فيه إذ يبدأ التعطيل الموسمي في شهر رجب وشعبان والشهر المبارك.

أريد أن نعيش معاً لحظات بقلوبنا لا بعقولنا فقط، بوجداننا. نُريد أن نعرض هذه القلوب على القرآن الكريم بدلاً من أن نعرضها على أفكارنا وعقولنا. في هذه اللحظات الأخيرة لحظات الوداع معكم نعرض قلوبنا على القرآن الكريم لمن ولاءُ هذه القلوب التي في صدورنا ،لمن ولاؤها؟!

إن الله سبحانه وتعالى لا يجمع في قلب واحد ولائين، لا يجمع حبين مستقطبين: إما (حب الله) أو (حب الدني). أمّا حب الله وحب الدنيا معاً فلا يجتمعان في قلب واحد، فلنمتحن قلوبنا، فلنرجع إلى قلوبنا لنمتحنها، هل تعيش حب الله سبحانه وتعالى أو تعيش حب الدنيا؟

فإن كانت تعيش حُب الله زدنا ذلك تعميقاً وترسيخاً، وإن كانت ـ نعوذ بالله ـ تعيش حُب الدنيا حاولنا أن نتخلّص من هذا الداء الوبيل، من هذا المرض المهلك.

إن كلَّ حب يستقطب قلبَ الإنسان يتخذ إحدى صيغتين وإحدى درجتين:

الدرجة الأولى: أن يشكل هذا الحب (محوراً) و(قاعدة) لمشاعر وعواطف وآمال وطموحات هذا الإنسان. قد ينصرف عنه في قضاء حاجة في حدود خاصة ولكن سرعان ما يعود إلى القاعدة لأنها هي

المركز وهي المحور. قد ينشغل بعمل، بطعام، بشراب، بمواجهة، بعلاقات ثانوية، بصداقات، لكن يبقى ذاك الحبّ هو المحور. هذه هي الدرجة الأولى.

والدرجة الثانية: من الحب المحور هي أن يستقطب هذا الحب كلّ وجدان الإنسان بحيث لا يشغله شيء عنه على الإطلاق، ومعنى أنّه لا يشغله شيء عنه: إنّه سوف يرى محبوبه، وقبلته، وكعبته، أينما توجه، سوف يرى ذلك المحبوب. هذه هي الدرجة الثانية من الحبّ المحور.

هذا التقسيم الثنائي ينطبق على حب الله وينطبق على حب الدنيا. حب الله سبحانه وتعالى، الحبُّ الشريف لله تعالى . . هذا المحور يتخذ هاتين الدرجتين:

الدرجة الأولى:

تتخذ هذه الدرجةَ نفوسُ المؤمنين الصالحين الطاهرين الذين نظّفوا نفوسهم من أوساخ هذه الدنيا الدنيّة، هؤلاء يجعلون من حب الله محوراً لكل عواطفهم ومشاعرهم وطموحاتهم وآمالهم، قد ينشغلون بوجبة طعام، بمتعة من المتع المباحة بلقاء مع صديق، بتنزه في شارع، ولكن يبقى هذا هو المحور الذي يرجعون إليه بمجرد أن ينتهي هذا الإنشغال الطارئ.

وأما الدرجة الثانية فهي:

الدرجة التي يصل إليها أولياءُ الله من الأنبياء والأئمة عليهم أفضل الصلاة والسلام (علي بن أبي طالب) الذي نحظى بشرف مجاورة قبره، هذا الرجل العظيم كلكم تعرفون ماذا قال هو الذي قال: ((إني ما رأيت شيئاً إلا ورأيت اللهَ معه، وقبله، وبعده، وفيه)) لأنّ حبّ الله في هذا القلب العظيم استقطب وجدانه إلى الدرجة التي منعه من أن يرى شيئاً آخر غير الله، حتى حينما كان يرى الناس كان يرى فيهم عبيد الله، حتى حينما كان يرى النعمة الموفورة كان يرى فيها نعمة الله سبحانه وتعالى، دائماً هذا المعنى الحرفيّ، هذا الربط بالله دائماً وأبداً يتجسّد أمام عينيه: لأنّ محبوبه الأوحد، ومعشوقه الأكمل، قبلة آماله وطموحاته، لم يسمح له بشريك في النظر فلم يكن يرى إلا سبحانه وتعالى.

هذه هي الدرجة الثانية، نفس التقسيم الثنائي يأتي (في حب الدنيا) الذي هو (رأس كل خطيئة) على حد تعبير رسول الله (صلى الله عليه وآله) حبّ الدنيا أيضاً يتّخذ درجتين:

الدرجة الأولى: أن يكون حبّ الدنيا محوراً للانسان، قاعدةً للإنسان في تصرفاته وسلوكه، يتحرك حينما تكون المصلحة الشخصية في أن يتحرك، ويسكن حينما تكون المصلحة الشخصية في أن يسكن، يتعبّد حينما تكون المصلحة الشخصية في أن يتعبّد. وهكذا تكون (الدنيا) هي القاعدة، لكن أحياناً

يمكن أن يفلت من الدنيا، يشتغل بأشغال أخرى نظيفة طاهرة، قد يصلي لله سبحانه وتعالى، قد يصوم لله سبحانه وتعالى، لكن سرعان ما يرجع مرّة أخرى إلى ذلك المحور وينشد إليه. فلتاتٌ يخرج بها من إطار ذلك الشيطان، ثم يرجع إلى الشيطان مرة أخرى هذه درجة أولى من هذا المرض الوبيل مرض حبّ الدنيا.

وأمّا الدرجة الثانية: من هذا المرض الوبيل فهي الدرجة المهلكة حينما يُعمي حبّ الدنيا هذا الإنسان، يسدّ عليه كل منافذ الرؤية، يكون بالنسبة إلى الدنيا كما كان سيد الموحدين وأمير المؤمنين بالنسبة إلى الله سبحانه وتعالى، الذي لم يكن يرى شيئاً إلا وكان يرى الله معه وقبله وبعده وفيه، حب الدنيا في الدرجة الثانية يصل إلى مستوى بحيث إنّ الإنسان لا يرى شيئاً إلا ويرى الدنيا فيه وقبله وبعده ومعه حتى الأعمال الصالحة تتحول عنده وبمنظاره إلى دنيا ، تتحول عنده إلى متعة، إلى مصلحة شخصية، حتى الصلاة، حتى الصيام، حتى البحث، حتى الدرس، هذه الألوان كلّها تتحول إلى دنيا لا يمكنه أن يرى شيئاً إلا من خلال الدنيا، إلا من خلال مقدار ما يمكن لهذا العمل أن يعطيه من حفنة مال أو من كومة جاه لا يمكن أن يستمر معه إلا بضعة أيام معدودة.

حبّ الدنيا يُفرغ العبادات من معناها:

هذه هي الدرجة الثانية وكل من الدرجتين مهلكة والدرجة الثانية أشد هلكة من الدرجة الأولى، ولهذا قال رسول الله (ﷺ) ((حب الدنيا رأس كل خطيئة)). وقال الإمام الصادق عليه الصلاة والسلام (الدنيا كماء البحر كلما ازددت منه شربا ازددتَ عطشا)) لا تقل فلآخذ هذه الحفنة من الدنيا ثم انصرف عنها، فلأحصل على هذه المرتبة من جاه الدنيا ثم أنصرف إلى الله، ليس الأمر كذلك، فإن أي مقدار تحصل عليه من مال الدنيا من مقامات هذه الدنيا الزائلة سوف يزداد بك العطش والنهم إلى المرتبة الأخرى (الدنيا كماء البحر) (الدنيا رأس كل خطيئة).

رسول الله (ﷺ) يقول: ((من أصبح وأكبر همّه الدنيا فليس له من الله شيء)) هذا الكلام يعني قطع الصلة مع الله، يعني أن ولائين لا يجتمعان في قلب واحد، من كان ولاؤه للدنيا (من أصبح وكان أكبر همّه الدنيا فليس له من الله شيء) ليس له صلة مع الله سبحانه وتعالى، لأن ولائين لا يجتمعان في قلب واحد ،حب الدنيا هو الذي يُفرغ الصلاة من معناه، يفرغ الصيام من معناه، يفرغ كل عبادة من معناها، ماذا يبقى من معنى لهذه العبادات إذا استولى حب الدنيا على قلب الإنسان.

أنا وأنتم نعرف أن أولئك الذين نؤاخذهم على ما عملوا مع أمير المؤمنين، أولئك لم يتركوا صلاةً،

ولم يتركوا صياماً، ولم يشربوا خمراً، على الأقل عدد كبير منهم لم يقوموا بشيء من هذا القبيل، لكن مع هذا ما هي قيمة الصلاة؟ وما هي قيمة هذا الصيام؟ وما هي قيمة العفّة عن شرب الخمر، إذا كان حبّ الدنيا هو الذي يملأ القلب؟ ما قيمة العفة عن شرب الخمر إذا كان حبّ الدنيا هو الذي يملأ القلب؟

(عبد الرحمن بن عوف) نموذجاً:

ما قيمة صلاة (عبد الرحمن بن عوف) الذي كان صحابياً جليل القدر، كان من السابقين إلى الإسلام، كان ممن أسلم والناس كفّار ومشركون، تربّى على يد رسول الله (ﷺ) عاش مع الوحي مع القرآن مع آيات الله تترى، لكن ماذا دهاه؟ ماذا دهاه؟ حينما فتح الله على المسلمين بلاد كسرى وقيصر وكنوز كسرى وقيصر ماذا دهى هذا الرجل المسكين؟ هذا الرجل المسكين ملأ قلبَه حبُّ الدنيا، كان يصلي وكان يصوم ولكن ملأ قلبه حبّ الدنيا .

حينما وقف في خيار واحد بين عثمان وعلي، إما أن يكون عثمان خليفَة المسلمين وإما أن يكون علي (عليه السلام) خليفةَ المسلمين، وهو يعلم أنه لو أعطى هذه الخلافة لعلي لأسعد المسلمين إلى أبد الدهر، ولكنّه يعلم أيضاً أنه حينما يعطيها إلى عثمان فقد فتح بذلك باب الفتن إلى آخر الدهر.

يعلم بذلك، وقد سمع ذلك من عمر نفسه أيضاً، ولكنه في هذا الخيار غلّب حبّ الدنيا على قلبه، ضرب على يد عثمان وترك يد علي مبسوطة تنتظر من يبايع! جعل عثمان خليفةً وأقصى علياً عن الخلافة، قد تقولون إن هذه معصية، هذا كترك الصلاة، لأن رسول الله (ص) جعل علياً خليفة بعده بلا فصل، هذا صحيح، تولي علي بن أبي طالب أهم الواجبات، ولكن افرضوا - وفرض المحال ليس بمحال -افرضوا أن رسول الله لم ينص على علي بن أبي طالب، أكان هذا الموقف من عبد الرحمن بن عوف مهضوماً؟! أكان هذا الموقف من عبد الرحمن بن عوف صحيحاً؟! لو تركنا نصوص الرسول، لو تركنا حديث الغدير، حديث الثقلين، لو تركنا كل ذلك، بمنطق حب الله وحب الدنيا، بمنطق الحرص على الإسلام، بمنطق الغيرة على الدين والمسلمين، أكان هذا الموقف من عبد الرحمن بن عوف سليماً أن يطرح يدَ علي مبسوطة دون أن يبايعها ويبايع إنساناً غير جدير بأن يتحمّل الأمانة أن يبايع (عثمان بن عفان)؟!

إذن المسألة هنا ليست فقط مسألة نص وإنما المسألة هنا مسألة حبّ الدنيا، مسألة خيانة الأمانة، لأن حبّ الدنيا يُعمي ويصمّ. حبّ عبد الرحمن بن عوف للدنيا أفقد الصلاةَ معناها، أفقد الصيامَ معناه ،أفقد شهر رمضان معناه، أفقد كل شيء مغزاه الحقيقي ومحتواه النبيل الشريف (حب الدنيا رأس كل خطيئة).

حبّ الله أساس الكمال:

أما حبّ الله سبحانه وتعالى فأساس كلّ كمال، حب الله هو الذي يعطي للإنسان الكمال العزّة الشرف الإستقامة النظافة القدرة على مغالبة الضعف في كل الحالات.

حبّ الله سبحانه وتعالى هو الذي جعل أولئك (السحرة) يتحولون إلى روّاد على الطريق، حيث قالوا لفرعون: (فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)[261]، كيف قالوا هذا؟ لأنّ حبّ الله اشتعل في قلوبهم فقالوا لفرعون بكل شجاعة وبطولة: (فاقضِ ما أنت قاضٍ إنما تقضي هذه الحياة الدنيا)!

الإمام علي (عليه السلام) نموذج حبّ الله:

حبّ الله هو الذي جعل عليّاً عليه السلام دائماً يقف مواقف الشجاعة، مواقف البطولة، هذه الشجاعة شجاعة علي ليست شجاعةَ السباع، ليست شجاعة الأسود، وإنّما هي شجاعة الإيمان وحب الله، لماذا؟ لأن هذه الشجاعة لم تكن فقط شجاعة البراز في ميدان الحرب، بل كانت أحياناً شجاعة الصبر، علي بن أبي طالب ضرب المثل الأعلى في شجاعة المبارزة في ميدان الحرب، شد حزامه وقد ناهز الستين من عمره الشريف، وهجم على الخوارج وحده فقاتل أربعة ألاف إنسان، هذه قمة الشجاعة في ميدان المبارزة، لأن حبّ الله أسكره فلم يجعله يلتفت الى أن هؤلاء أربعة آلاف وهو واحد، وضرب قمة الشجاعة في الصبر في السكوت عن الحق حينما فرض عليه الإسلام أن يصبر عن حقه وهو في قمة شبابه، لم يكن في شيخوخته كان في قمة شبابه، كانت حرارة الشباب ملءَ وجدانه، ولكن الإسلام قال له: اسكت، إصبر عن حقك، حفاظاً على بيضة الدين، مادام هؤلاء يتحملون حفظ الشعائر الظاهرية للإسلام وللدين. سكت مادام هؤلاء كانوا يتحفظون على الظواهر والشعائر الظاهرية للإسلام والدين، وكان هذا قمة الشجاعة في الصبر أيضاً، هذه ليست شجاعة الأسود هذه شجاعة المؤمن الذي أسكره حبّ الله وكان قمّة الشجاعة في الرفض وفي الإباء حينما طرح عليه ذلك الرجل أن يبايعه على شروط تخالف كتاب الله وسنّة رسوله بعد مقتل الخليفة الثاني، ماذا صنع هذا الرجل العظيم الذي كان يحترق لأن الخلافة ذهبت من يده، يحترق من أجل الله لا من أجل نفسه، يقول ((ولقد تقمصها ابن أبي قحافة وهو يعلم أن محلي منها محلّ القطب من الرحى)) هذا الرجل الذي كان يحترق لأن الخلافة خرجت من يده، لو أن إنساناً يقرأ هذه العبارة وحدها لقال: ما أكثر شهوة هذا الرجل إلى السلطان وإلى الخلافة، لكن هذا

(261) طه/72.

الرجل نفسه، هذا الرجل بالذات، عرضت عليه الخلافة، عرضت عليه رئاسة الدنيا فرفضها لا لشيء إلا لأنها شرطت بشرط يخالف كتاب الله وسنّة رسوله.

من هنا نعرف أن ذلك الإحتراق لم يكن من أجل ذاته، وإنما كان من أجل الله سبحانه وتعالى.

إذن هذه الشجاعة شجاعة البراز في يوم البراز، وشجاعة الصبر في يوم الصبر وشجاعة الرفض في يوم الرفض، هذه الشجاعة خلقها في قلب علي حبُّه لله، اعتقاده بوجود الله هذا الاعتقاد الذي يشاركه فيه فلاسفة الاغريق أيضاً أرسطو أيضا يعتقد بوجود الله. (أفلاطون) أيضاً يعتقد بوجود الله، (الفارابي) أيضاً يعتقد بوجود الله، ماذا صنع هؤلاء للبشرية، وماذا صنعوا للدين أو للدنيا، ليس الاعتقاد وإنما حبّ الله إضافةً إلى الاعتقاد. هذا هو الذي صنع هذه المواقف.

أهل العلم الأولى بتطليق الدنيا:

ونحن أولى الناس بأن نطلّق الدنيا، إذا كان حب الدنيا خطيئة فهو منّا نحن الطلبة من أشد الخطايا، هذا الشيء الذي هو خطيئة من غيرنا هو أكثر خطيئة منا، نحن أولى من غيرنا بأن نكون على حذر من هذه الناحية.

أولاً: لأننا نصّبنا أنفسنا أدلاء على طريق الآخرة. ما هي مهمتنا في الدنيا، ما هي وظيفتنا في الدنيا؟ إذا سألك إنسان ماذا تعمل؟ ما هو مبرر وجودك؟ ماذا تقول؟ تقول: إنّي أريد أن أشد الناس إلى الآخرة أشد دنيا الناس إلى الآخرة إلى عالم الغيب إلى الله سبحانه وتعالى، إذن كيف تقطع دنياك عن الآخرة؟ إذا كانت دنياك مقطوعة عن الآخرة فسوف تشد دنيا الناس إلى دنياك لا إلى آخرة ربك، سوف نتحول إلى قطّاع طريق ولكن أي طريق؟ الطريق إلى الله لا طريق ما بين بلد وبل، هذا الطريق إلى الله نحن رواده، نحن القائمون على الدلالة إليه على الأخذ بيد الناس فيه، فلو أننا أغلقنا باب هذا الطريق، لو أننا تحولنا عن هذا الطريق إلى طريق آخر، إذن سوف نكون حاجباً عن الله حاجباً عن اليوم الآخر، كل إنسان يستولي حبّ الدنيا على قلبه يهلك هو، أمّا الطلبة، أمّا نحن إذا استولي حبّ الدنيا على قلوبنا فسوف نهلك ونُهلك الآخرين، لأننا وضعنا أنفسنا في موضع المسؤولية، في موضع ربط الناس بالله، نحن أولى الناس وأحق الناس باجتناب هذه المهلكه لأننا ندّعي أننا ورثة الأنبياء وورثة الأئمة والأولياء، إننا السائرون على طريق محمد وعلي والحسن والحسين عليهم الصلاة والسلام، ألسنا نحاول أن نعيش شرف هذه النسبة، هذه النسبة تجعل موقفنا أدقّ من مواقف الآخرين لأننا نحن حملة أقوال هؤلاء وأفعال هؤلاء أعرف الناس بأقوالهم وأعرف الناس بأفعالهم، ألم يقل علي بن أبي طالب عليه الصلاة

والسلام: ((إن إمارتكم هذه أو خلافتكم هذه لا تساوي عندي شيئاً إلاَّ أن أقيم حقاً وأدحض باطلاً)) ألم يقل علي بن أبي طالب ذلك، ألم يجسد هذا في كل حياته. علي بن أبي طالب كان يعمل لله سبحانه وتعالى، لم يكن يعمل لدنياه، لو كان علي يعمل لدنياه لكان أشقى الناس وأتعس الناس لأن علياً حمل دمه على يده منذ طفولته منذ صباه يذب عن وجه رسول الله (ص) وعن دينه وعن رسالة الله، لم يتردد لحظة في أن يُقدم، لم يكن يحسب للموت حساباً لم يكن يحسب للحياة حساباً، كان دمه دائماً على يده، كان أطوعَ الناس لرسول الله في حياة رسول الله، وكان أطوع الناس لرسول الله بعد رسول الله كان أكثر الناس عملاً في سبيل الدين ومعاناة من أجل الإسلام، ماذا حصل عليه علي بن أبي طالب؟ لو جئنا إلى مقاييس الدنيا ماذا حصل عليه هذا الرجل العظيم؟ ألم يُقصَ هذا الرجل العظيم؟ ألم يكن جليس بيته فترة طويلة من الزمن؟ ألم يُسبّ هذ الرجل العظيم ألفَ شهر على منابر المسلمين التي أقيمت أعوادها بجهاده، بدمه، بتضحياته؟ إذن لم يحصل على شيء من الدنيا، لا من حطام ولا على مال ولا على منصب ولا على كُنى ولا على تقدير.

ولكنه على الرغم من ذلك حينما ضربه (عبد الرحمن بن ملجم) بالسيف على رأسه، ماذا قال هذا الإمام العظيم؟ قال: (فزت ورب الكعبة)! لو كان علي يعمل لدنياه لقال: والله إني أتعس إنسان لأني لم أحصل على شيء في مقابل عمر كله جهاد، كله تضحية، كله حبّ لله، لم أحصل على شيء، لكنه لم يقل ذلك، قال (فزت ورب الكعبة) إنها والله الشهادة لأنه لم يكن يعمل لدنياه، كان يعمل لربه والآن لحظة اللقاء مع الله هذه اللحظة هي اللحظة التي سوف يلتقي بها علي مع الله سبحانه وتعالى فيوفيه حسابَه ويُعطيه أجره، يعوضه عمّا تحمل من شدائد عمّا قاسى من مصائب، أليس هذا الإمام هو مثلنا الأعلى، أليست حياة هذا الإمام هي السنّة أليست مصادر التشريع عندنا الكتاب والسنّة ،أليست السنّة هي قول المعصوم وفعله وتقريره؟!

هل عُرضتْ علينا دنيا هارون الرشيد؟!

علينا أن نحذر من حبّ الدنيا لأنه لا دنيا عندنا لكي نحبها، ماذا نحب نحن الطلبة؟ نحب الدنيا ؟! ما هي هذه الدنيا التي نحبها ونريد أن نغرق أنفسنا فيها ونترك رضواناً من الله أكبر، نترك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا اعترض على خيال بشر، ما هي هذه الدنيا؟

دنيانا هي مجموعة من الأوهام، كل دنيا وهم، لكن دنيانا أكثر وهماً من دنيا الآخرين، مجموعة من الأوهام، ماذا نحصل من الدنيا إلا على قدر محدود، لسنا نحن أولئك الذين نهبوا أموال الدنيا وتحدثنا عنهم سابقاً، لسنا نحن أولئك الذين تركع الدنيا بين أيدينا لكي نؤثر الدنيا على الآخرة. دنيا

هارون الرشيد كانت عظيمة، نقيس أنفسنا بهارون الرشيد! هارون الرشيد نسبّه ليلاً ونهاراً، لأنه غرق في حبّ الدنيا، لكن تعلمون أي دنيا غرق فيها هارون الرشيد! أي قصور مرتفعة عاش فيها هارون الرشيد! أي بذخ وترفٍ كان يحصل عليه هارون الرشيدإ أي زعامة وخلافة وسلطان امتد مع أرجاء الدنيا حصل عليه هارون الرشيد! هذه هي دنيا هارون الرشيد. نحن نقول: إننا أفضل من هارون الرشيد، أورع من هارون الرشيد، أتقى من هارون الرشيد، عجباً هل عُرضت علينا دنيا هارون الرشيد فرفضناه حتى نكون أورع من هارون الرشيد؟!

تذكّروا الموت!

يا أولادي! يا إخواني! يا أعزائي! يا أبناء علي! هل عُرضت علينا دنيا هارون الرشيد؟

لا، عُرضت علينا دنيا هزيلة محدودة ضئيلة ، دنيا ما أسرع ما تتفتت، ما أسرع ما تزول دنيا لا يستطيع الإنسان أن يتمدد فيها كما كان يتمدد هارون الرشيد. هارون الرشيد يلتفت إلى السحابة يقول لها: أينما تمطرين يأتيني خراجك! في سبيل هذه الدنيا سجن (موسى بن جعفر) (عليه السلام)! هل جرّبنا أن هذه الدنيا تأتي بيدنا ثم لا نسجن موسى بن جعفر؟!! هل جربنا أنفسنا؟ سألنا أنفسنا؟ طرحنا هذا السؤال على أنفسنا؟ كل واحدٍ منّا يطرح هذا السؤال على نفسه بينه وبين الله، إن هذه الدنيا أمامنا لكي نفكر هل أننا أتقى من هارون الرشيد، ما هي دنيانا؟

هي مِسخ من الدنيا، هي أوهام من الدنيا، ليس فيها حقيقة إلا حقيقة رضى الله سبحانه وتعالى، إلا حقيقة رضوان الله، كلّ طالب علم حاله حال علي بن أبي طالب إذا كان يعمل للدنيا فهو أتعس الناس، لأن أبواب الدنيا مفتوحة خاصة إذا كان طالباً له قابلية له إمكانية له ذكاء له قابليات، هذه أبواب الدنيا مفتوحة له، فإذا كان يعمل للدنيا فهو أتعس إنسان، لأنه سوف يخسر الدنيا والآخرة، لا دنيا الطلبة دنيا ولا الآخرة يحصل عليها، فليكن همّنا أن نعمل للآخرة، أن نعيش في قلوبنا حبّ الله سبحانه وتعالى بدلاً عن حب الدنيا لأنه لا دنيا معتدّ بها عندنا.

الأئمة عليهم الصلاة والسلام علّمونا أن نتذكر الموت دائماً، ليكون من العلاجات المفيدة لحبّ الدنيا، أن يتذكر الإنسان الموت، كلّ واحد منا يعتقد بأن (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)[262] لكن القضية دائماً وأبداً لا يجسدها بالنسبة إلى نفسه. من العلاجات المفيدة أن يجسدها بالنسبة إلى نفسه دائماً، يتصور بأنه يمكن أن يموت بين لحظة وأخرى كل واحدٍ منا يوجد لديه أصدقاء ماتوا، إخوان إنتقلوا من هذه

(262) الرحمن/26.

الدار إلى الدار الآخرى، أبي لم يعش في الحياة أكثر مما عشت حتى الآن، أنا الآن استوفيت هذا العمر، من المعقول جداً أن أموت في السن التي مات فيها أبي، من المعقول جداً أن أموت في السن التي مات فيها أخي، كل واحد منا لا بدّ أن يكون له قدوة من هذا القبيل، لا بد أن أحباباً له رحلوا، أعزاء له قد انتقلوا لم يبق من طموحاتهم شيء لم يبق من أمالهم شيء، إن كانوا قد انتقلوا لم يبق من طموحاتهم شيء لم يبق من أمالهم شيء إن كانوا قد عملوا للآخرة فقد رحلوا الى مليك مقتدر، وإذا كانوا قد عملوا للدنيا فقد انتهى كل شيء بالنسبة إليهم، هذه عِبر! هذه العبر التي علّمنا الأئمة عليهم الصلاة والسلام أن نستحضرها دائماً تكسر فينا شرةَ الحياة، ما هي هذه الحياة لعلّها أيام فقط، لعلها أشهر فقط، لعلها سنوات، لماذا نعمل دائماً ونحرص دائماً على أساس أنها حياة طويلة، لعلنا لا ندافع إلا عن عشرة أيام! إلا عن شهرإلا عن شهرين! لا ندري عن ماذا ندافع! لا ندري إننا نتحمل هذا القدر من الخطايا هذا القدر من الآثام هذا القدر من التقصير أمام الله سبحانه وتعالى وأمام ديننا، نتحمله في سبيل الدفاع عن ماذا عن عشرة أيام ؟!عن شهر عن أشهر؟! هذه بضاعة رخيصة!

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يطهّر قلوبنا، وينقي أرواحنا، ويجعل اللهَ أكثر همنا ويملأنا حباً له وخشية منه وتصديقاً به وعملاً بكتابه، والحمد الله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين)).

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

1. القرآن الكريم.
2. علي بن أبي طالب (عليه السلام): نهج البلاغة. إصدار المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق. 1416 هـ ـ 1995م.
3. علي بن الحسين زين العابدين (عليه السلام): الصحيفة السجّادية الكاملة. إصدار المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق. 1419 هـ ـ 1999م.

ثانياً: المراجع

1. حسين معن: نظرات حول الإعداد الروحي. مؤسسة أهل البيت للطبع والنشر. قم. (د. ت)
2. روح الله الموسوي الخميني: الجهاد الأكبر. ط4. ترجمة حسين كوراني. الدار الإسلامية ـ بيروت. 1411هـ ـ 1991م.
3. كاظم الحائري: مباحث الأصول. ج1. ط1. مكتب الإعلام الإسلامي ـ قم. 1407 هـ ـ 1987م.
4. فاضل النوري: سبحات روحية ـ قم. 1414هـ ـ 1994م.
5. محمد الحسيني: الإمام الشهيد محمد باقر الصدر: دراسة في سيرته ومنهجه. دار الفرات ـ بيروت. 1410 هـ ـ 1989م.
6. محمد باقر الصدر: أهل البيت: تنوع أدوار ووحدة هدف. دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت. 1388هـ ـ 1988م.
7. محمدباقر الصدر: الإسلام يقود الحياة. مطبعة الخيام. 1399هـ 1979م.
8. محمد باقر الصدر: دروس في علم الأصول. الحلقة الأولى. قم المقدسة. (د. ت).
9. محمد باقر الصدر: دروس في علم الأصول. الحلقة الثانية. قم المقدسة. (د. ت).
10. محمد باقر الصدر: رسالتنا. دار الإسلامية ـ بيروت. 1401 هـ ـ 1989م.

11. محمد باقر الصدر: فلسفتنا. ط15. دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت. 1410هـ 1989م.

12. محمد باقر الصدر: الفتاوى الواضحة وفقاً لمذهب أهل البيت (عليهم السلام). ج1. ط8. دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت. 1412هـ ـ 1992م.

13. محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية والسنن التاريخية في القرآن. دار التعارف ـ بيروت. 1409هـ ـ 1989م.

14. محمد باقر الصدر: المرسل ـ الرسول ـ الرسالة. دار التعارف ـ بيروت. 1407هـ ـ 1987م.

15. محمد رضا النعماني: الشهيد الصدر: سنوات المحنة وأيام الحصار ـ عرض لسيرته الذاتية وسيرته السياسية والجهادية. المطبعة العلمية ـ قم. 1417هـ ـ 1996م.

16. مرتضى مطهري: الإنسان الكامل. ترجمة جعفر الخليلي. ط1. مؤسسة البعثة ـ بيروت. 1412هـ ـ 1992م.

17. مرتضى مطهري: ثبات الأخلاق. ط1. دار المحجّة البيضاء ـ بيروت. 1414هـ ـ 1993م.

18. مؤسسة البلاغ: مفاهيم إسلامية في العبادة والعبودية والعلاقة مع الله. مؤسسة البلاغ ـ طهران. 1418هـ ـ 1997م.

19. ميثم جاسم: هكذا قال الصدر (في المحنة وحبّ الدنيا). مطبعة ستارة ـ قم. 1418هـ ـ 1989م.

20. نخبة من الباحثين: محمد باقر الصدر ـ دراسات في حياته وفكره. دار الإسلام ـ لندن. 1416هـ ـ 1996م.

21. نزيه الحسن: السيد محمد باقر الصدر ـ دراسة في المنهج. دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت. 1413هـ ـ 1992م.

ثالثاً: المجلات والدوريات

1. مجلة الفكر الجديد: العددان (12-11). لندن. السنة الرابعة. 1416هـ ـ 1996م.

2. مجلة الأضواء: العدد الأول، العدد الثالث. السنة الخامسة. رجب 1404هـ ـ نيسان 1984م.

3. مجلة الأهرام العربي. السنة الثالثة. العدد 145. 1/1/2000م.

4. صحيفة الموقف: العدد 55. 16 شوال 1413هـ ـ 8 نيسان 1993م.

5. صحيفة الجهاد: العددان 232 و 283.

تطور العالم كثيراً بالبحث العلمي والمناهج الجديدة والآراء الصادمة. تراجعت نظريات وسقطت أفكار، واهتزت مفاهيم، ومع ذلك فان النتاج الفكري للسيد الشهيد في المجالات التي تناولها ظل على مكانته المتألقة، يبرهن وهو في العالم الآخر على دقة ما توصل اليه من نتائج بالرجوع الى العقيدة الإسلامية وفكرها ومنظومتها المعرفية الواسعة.

أمسك الشهيد الصدر بيديه عنصري السير نحو التكامل الإنساني، وهما الفكر والأخلاق، فلم يهتم بواحد ويترك الآخر، بل ضمهما الى صدره بكل قوة، فقد آمن وكما أراد القرآن الكريم، بأن يكون الفكر لصيق العمل. وأن يكون العلم مقروناً بالأخلاق. واستطاع أن يفعل ذلك بصدق مشهود وبإصرار الثابت على مبدئه.

لقد جرت سياقات الحياة الاجتماعية والثقافية أنها تضع عينها على النتاج العلمي لرجال الفكر، بينما لا تنظر الى البعد الأخلاقي في شخصياتهم إلا بنظرات عابرة. ربما يكون السبب في ذلك النزعة البشرية الميّالة الى بهرجة العلم وتفضيله على الأخلاق. ولو أن العيون تطلّعت الى الجانب الأخلاقي عند السيد الشهيد محمد باقر الصدر، لأرجعتْ البصر مرات ومرات على سلوكه وقيمه الأخلاقية، وفي كل مرة سيأخذها الانبهار بسمو أخلاقه ومدى مجاهدته لنفسه وكفاحه الدائم لتجسيد ما يؤمن به عملياً.

في هذا الكتاب للأستاذ عادل القاضي، يجد مركز البيدر للدراسات والتخطيط جهداً رائعاً في التعريف بالمدرسة الأخلاقية للسيد الشهيد، وهو جهد يستحق عليه الشكر والثناء لأنه قام بتسليط الضوء على هذا الجانب من حياة الشهيد الكبير، فسدّ النقص الموجود في التعريف بتراثه ومدرسته وشخصيته.

978-9922-9781-3-0